تفسير إنجيل مرقس

EXPOSITORY NOTES ON THE GOSPEL OF MARK

هنري أ. آيرونسايد

HENRY A. IRONSIDE

LOIZEAUX BROTHERS, INC

نبتون، نيوجرسي

تفسير إنجيل مرقس

هنري أ. آيرونسايد

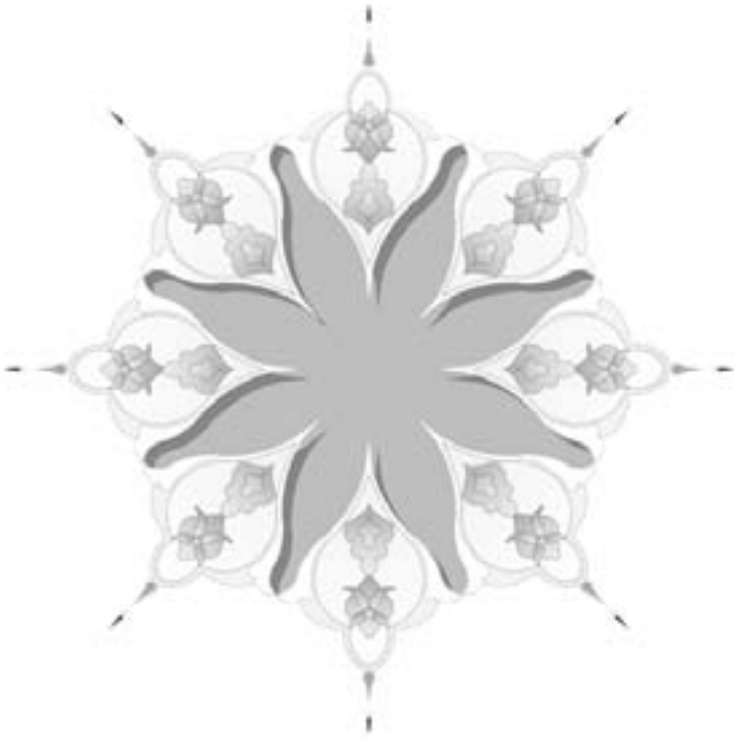

الطبعة الأولى: كانون الثاني، ١٩٤٨

نقله إلى العربية
فريق الترجمة والتعريب

الآيات الكتابية باللغة العربية
هي من ترجمة سميث وفانديك–البستاني
(الترجمة البروتستانتية) للكتاب المقدس.

مقدمة بقلم المترجم

عندما نقرأ تدويناً أو قصةً عن إنسانٍ عظيم، كيسوع المسيح الإله والإنسان، كم تكون التفاصيلُ دقيقةً والأوصافُ حميمةً إذا كان الراوي هو أحدُ الذين رافقوه شخصياً، ثم رافقوا أحد أبرز تلاميذه، بطرس، وأحد أكثر رسله تميزاً، بولس! هذا هو إنجيل مرقس، وهذا الراوي هو يوحنا مرقس، الذي إنما بوحي الروح القدس كتب إنجيله.

لقد كان مرقس يركّز على يسوع المسيح مصوراً إياه كعبد يهوه المتألم الذي تحدث عنه أشعياء النبي، فيرينا كيف يخدم يسوع الناس المعوزين الذين يحبهم والذين يلتجئون إليه. ويرينا أيضاً يسوع كنبي عظيم تنبّأ مُسبقاً عن كل ما سيجري له قبل الصلب وأثناءه وبعده وصولاً إلى الحديث عن الأيام الأخروية وعودته في المجد.

وإزاء كل ذلك، يُظهر لنا مرقس في مناسبات كثيرة الرياء والإدعاء وقسوة القلب وجحود الإيمان التي كان يتميز بها رؤساء الكهنة والكتبة الذين ما انفكوا يتربصون ليسوع ليوقعوه في مكيدة ليتخلصوا منه إلى أن سنحت لهم الفرصة المناسبة بسماح من الله الذي كانت هكذا مشيئته.

ويركز مرقس أيضاً على كيفية انتقال رسالة الإنجيل إلى كل الأمم في كل أصقاع الأرض بعد أن كانت وقفاً على بني إسرائيل في بداية الأمر. والمميز في مرقس أيضاً هو أنه يختم إنجيله بإعطائنا صورة حيوية عن يسوع القائم الذي لا يزال يخدم المؤمنين بعد قيامته.

أما مؤلف هذا الكتاب، هنري آيرونسايد، المفسّر الملهم، فيشرح لنا هذا الإنجيل بلغة بسيطة وأفكار عميقة، ويدخلنا إلى فهم تفاصيل كل حادثة بطريقة تجعل كلمة الإنجيل تدخل إلى فكرنا وقلبنا وكأننا من ذلك الجمع الذين كانوا مع يسوع على الدوام، يسمعونه ويرونه ويلمسونه ويأكلون معه، ويؤمنون به، آمين.

فريق الترجمة

المحتويات

الموضــوع	الصفحة
مدخل: إنجيل الخادم المخلص أبداً	
الجزء ١: الأصحاحات ١– ٥ الخادم النشيط يُعنى بحاجة الناس ومحنتهم	
القسم (١)– ١: ١– ١٣: تقديم الخادم	
القسم (٢)– ١: ١٤– ٥: ٤٣: العمل العظيم للخادم الإلهي	
الجزء ٢: الأصحاحات ٦: ١ إلى ١٠: ٤٥ الخادم رُفِضَ ولكنه لا يزال يخدم في النعمة	
القسم (١): الأصحاح ٦: الرفض والمعارضة تزداد	
الأصحاح ٧: القسم (٢)– ٧: ١– ٩:٨: التقليد إزاء الوحي أو الإعلان	
القسم (٣)– ٨: ١٠– ٩: ٨: الإعلان عن المجد الآتي	
القسم (٤)– ٩: ٩– ١٠: ٤٥: طريق التلمذة	
الجزء ٣: – ١٠: ٤٦– ١٦: ٢٠ اكتمال رسالة الرب	
القسم (١)– ١٠: ٤٦– ١٣: ٣٧: الملك المرفوض	
القسم (٢)– الأصحاحات ١٤ و١٥: الذبيحة الأسمى	
القسم (٣)– الأصحاح ١٦: القيامة: المسيح لا يزال يخدم	

مدخل
إنجيل الخادم المخلص أبداً

من الشيق أن نلاحظ الهدف الخاص الذي كان في فكر الروح القدس في تقديمه لربنا المبارك يسوع المسيح في كلٍّ من الأناجيل الأربعة. ففيها نجد أربع صور قلمية لمخلصنا. لقد أُعطي لمتى أن يُظهره بشكل خاص كملك، مسيا إسرائيل، ومن هنا كانت سلسلة النسب التي تبرهن أنه ابن داود وابن إبراهيم. وهذا هو السبب أو المبرر وراء الإشارات والاقتباسات الكثيرة التي من نصوص العهد القديم. ويصوّره لوقا على أنه إنسان كامل، ابن الإنسان الفريد الذي جاء يطلب ويخلّص الضال. من إحدى سمات إنجيله هي أحاديث يسوع على المائدة. هل هناك أجمل وأوضح من إنسان على سجيته يفاتح أصدقاءه بمكنونات قلبه وهم في حفل عشاء؟ وفي لوقا نجد ربنا في مناسبات كثيرة كهذه. ويرجع لوقا نسب يسوع إلى آدم من خلال هالي، والد مريم وبالتالي حمو يوسف (لوقا ٣: ٢٣). ويخبرنا يوحنا بوضوح عن هدفه في الإنجيل ألا وهو أن يظهر أن يسوع هو المسيح ابن الله، و"لِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ". إن يوحنا يُظهر أن يسوع هو الكلمة الأزلي السرمدي الذي صار إنساناً لفدائنا.

لماذا لا توجد سلسلة نسب في مرقس

انكبّ مرقس بتفويضٍ إلهي على أن يُظهر لنا ابنَ الله يسلك في نعمة وادعة وخضوع مكرس للآب كخادم مثالي ونبي للقدوس. إنه يدخل مباشرة في صلب الموضوع. على مدى قصير من ستة عشر أصحاحاً يصور الخادم المشغول الذي لا يتوقف عن إظهار عمل الرحمة تلو الآخر، ومسرعاً من مكان إلى آخر عاملاً إرادة أبيه. وبما أننا لا نهتم (عادةً) بأصل وفصل الخادم وسلفه بل بقدراته، فإننا لا نجد سلسلة نسب ليسوع على الإطلاق في إنجيل مرقس، بل تدويناً مذهلاً لنشاط يسوع وفعالياته في عمل الخير وتعريف البشر بفكر الله. لقد أُشير كثيراً إلى أن مرقس يستخدم كلمة تترجم بمعانٍ مختلفة مثل "للوقت"، "مباشرة"، "على الفور"، و"حالاً"، أكثر من أربعين مرة، وهذه الكلمة نجدها تتكرر بنفس المقدار تقريباً في كل بقية العهد الجديد. "إن عمل الملك يتطلب السرعة"، وكان يسوع منشغلاً على الدوام في العمل العظيم الذي لأجله جاء إلى العالم.

وذبيحة الصليب يتم تصويرها بشكل متباين أيضاً من إنجيل إلى آخر– وهذا بما يتوافق مع التقدمات اللاوية (لاويين ١ إلى ٧). فيخبرنا يوحنا عن موت الرب كذبيحة محرقة، حيث الابن يبذل حياته لتمجيد الآب في عالم أخزته الخطية. ويصور لوقا تلك الذبيحة العظيمة على أنها ذبيحة سلامية لتحقيق السلام بدم صليبه، وهكذا يتصالح الله والإنسان ويعيشان علاقة شركة مقدسة معاً. أما متى، الذي كان هدفه التعبير عن حكم الله، فيطابق بوضوح بين عمل الصليب وذبيحة الخطية، حيث أمكن للرب أن يقول، كما في المزمور ٦٩: "رَدَدْتُ الَّذِي لَمْ أَخْطَفْهُ".

ولكننا في رواية مرقس ننظر في رهبة وعجب إلى القدوس الذي جُعل خطيئة لأجلنا لكي نصير برَّ الله فيه. إن ما أمامنا هو ذبيحة الخطيئة العظيمة، فالمسيح يموت ليس لمعاصٍ وتعديات ارتكبها، بل بسبب ما نحن عليه بالطبيعة كخطأة، والذي يظهر واضحاً من خلال ممارساتنا.

إني أسهب في هذه النقاط بسبب الأشياء الحمقاء التي علّمها كثيرون، مثل القول بأن إنجيل مرقس كان أول جهد يحاول أن يعيد إلى الذهن ويعرض قصة يسوع، وأن هذا الإنجيل قد تم التوسع فيه وتغييره من قِبَلِ كُتّاب باقي الأناجيل الذين قد يكونوا، أو لا، هم الأشخاص التي ارتبطت تلك الأناجيل بأسمائهم. إلا أنه

يمكننا أن نكون متيقنين أن كل هذه الافتراضات باطلة وفارغة. إن بصمة الفكر الإلهي مطبوعة على كل صفحة من هذه الروايات (الأناجيل)، والاختلافات بينها نفسها (وليس التناقضات بينها) وكذلك النقاط المتفقة بينها ما هي إلا دليل على الوحي الإلهي.

هدف إنجيل مرقس

لقد كان هدف مرقس الأكبر والأهم هو أن يُري العالَمَ الأممي محبةَ الله الفاعلة في المسيح يسوع وهو يخدم المعوزين، وساعياً وراء الخطأة ومخلِّصاً جميع الذين آمنوا به. لو لم يكن لدى المرء سوى هذا الإنجيل المختصر، من الكتاب المقدس، لوجد فيه ما يكفي ليرى كل قلب مضطرب وضمير طريقَ الحياة والسلام.

ما من شك في أن مرقس، ومن وجهة نظر إنسانية، يدين لبطرس بالكثير من المعلومات التي ينقلها، ولكن كل ما كُتب رتّبه روح قدس الله وذلك بحسب هدف معين في فكره.

لقد أُعطيت إلى أشعياء النبوءة عن المسيا كعبد يهوه المتألم (أشعياء ٥٢ و٥٣). وتنبأ موسى عن إقامة نبي ستكون كلمته في كل المسائل نهائية حاسمة (تثنية ١٨: ١٥– ١٩). لقد كان مرقس هو الإنجيلي الذي اختاره الروح القدس ليرسم ربنا في هاتين الوظيفتين: كخادم ونبي. ولكن ليس لنا أن نفترض أن هذا يعني تجاهل الجوانب الأخرى من طبيعته وشخصه. فهو لم يكن ملكاً أكثر عندما كان يخدم، ولم يكن إلهياً أكثر عندما قلّص أو حدد نفسَه من تلقاء ذاته.

كان بطرس الكبير قد قرر، بعد أن بنى الإمبراطورية الروسية بثمن باهظ، أن عليه امتلاك أسطول. ولكن لم يكن أحد في روسيا يعرف فن بناء السفن. ولذلك تخلى بطرس عن عرشه لوقتٍ، وعيّنَ زوجته كاثرين وصيةً على العرش، وألقى عنه جانباً كساءه الملكي، وإذ ارتدى ثياب عامل من عامة الناس، سافر إلى هولندا وإنكلترا حيث تعلّم فيها نجارة السفن بالعمل في المسافن الكبيرة جنباً إلى جنب مع رجال ما كان أبداً ليخطر لهم ولو بالنذر اليسير أن هذا الحرفي الغريب ظاهرياً الذي يعمل معهم كادحاً يوماً فيوماً كان ليتمتع بكرامة ومنزلة عظيمة. لم يكن بطرس أقل مكانةً كإمبراطور وهو يعمل بالمطرقة والقدّوم منه عندما عاد إلى عرشه.

في دراستنا لأي سفر من الكتاب المقدس يحسن بنا أن نضع في أذهاننا أقسامه الرئيسية، أو المخطط العام له. المخطط الذي وضعناه هنا قد يساعدنا في هذا الإنجيل.

إن خدمة المسيح النبوية يتم التركيز عليها في كل الإنجيل، ولكن بشكل خاص أكثر في الجزء الثالث، حيث يخبرنا مرقس– في الأصحاح ١٣، كما الحال في متى ٢٤ ولوقا ٢١– عن الأشياء الأخروية، ناظراً بعين المتنبّئ إلى الأحوال التي كان يعرف أنها ستسود إلى أن يعود في مجد ليرسي ملكوته. من الجدير بالملاحظة أنه عندما يتحدث بشخص الخادم كنبي ليهوه، فإنه يعلن عن محدوديته، "وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ الاِبْنُ إِلاَّ الآبُ" (١٣: ٣٢). وكخادم مثالي اختار ألا يعرف ما لم يُسر الآب بأن يكشفه (تثنية ١٨: ١٥، ١٨، ١٩).

خلفية مرقس

كان يوحنا مرقس ابن امرأة ثرية تُدعى مريم، وعلى الأرجح أرملة، والتي كان منزلها كبيراً بما فيه الكفاية لخدمة اجتماعات الكثير من التلاميذ الأولين بعد التدفق إثر العنصرة (أعمال ١٢: ١٢).

لقد رافق مرقس بولس، وبرنابا، الذي كان قريباً له، إلى قبرص، ولكنه عاد لاحقاً إلى أورشليم، هذا الأمر الذي لم يؤيده بولس تماماً (أعمال ١٢: ٢٥؛ ١٣: ١٣؛ ١٥: ٣٧– ٣٩). ولكن مرقس تجدد، فيما

بعد، وصار خادماً موثوقاً للمسيح ورفيقاً لبولس وبطرس (٢ تيموثاوس ٤: ١١؛ ١ بطرس ٥: ١٣). لقد كان من عادة الله أن يختار خادماً كان غير مؤمن أو مخلص مرةً كمرقس ليخبر قصة الخادم الأمين أبداً، ألا وهو ابنه المبارك نفسه.

بحسب تقليد يعود للكنيسة الأولى، فإن مرقس إنما كان يشير إلى نفسه عند حديثه عن "الشاب" الذي تبع المسيح وهم يأخذونه إلى بيت رئيس الكهنة، وكيف أن الحراس حاولوا القبض عليه، فترك الإزار الذي كان يلف به جسده في أيديهم وهرب منهم عارياً (مرقس ١٤: ٥١، ٥٢). حقيقة أن مرقس هو الإنجيلي الوحيد الذي ينفرد بذكر هذه الحادثة قد لا تكون أساساً كافياً لاعتبار أن هذا الشخص هو مرقس نفسه؛ ومع ذلك، من جهة أخرى، وبسبب قبول هذه الفكرة كثيراً في الأيام الأولى للكنيسة، قد تكون هذه هي الحقيقة. وفي هذه الحالة يكون الشاب يوحنا مرقس قد سمع تعليم الرب يسوع بينما كان في أورشليم، وأن قلبه قد تعلق به حتى أنه فكر بأنه على استعداد حتى ليكون معه، ولكن في ساعة التجربة هرب، كما فعل بقية التلاميذ. كم من أناس يحبون الرب فعلاً ومع ذلك تعوزهم الشجاعة المعنوية التي تمكّنهم من أن يمضوا معه مهما كلف الأمر! إذ نفكر في هذا الشاب الرقيق الحساس والصعوبات التي واجهها ليبدأ فعلياً في خدمة الرب، ونتذكر كيف أنه فيما بعد قد برهن أنه خادم كفؤ للمسيح، فإننا نتشجع لأن نتجاوز مخاوفنا ونقائصنا وضعفاتنا وأن نتكل على الله ليجعلنا سفراء حقيقيين لإنجيل ابنه. وإذ ندرس إنجيله المدون عن ذاك الذي قال: "أَنَا بَيْنَكُمْ كَالَّذِي يَخْدِمُ" (لوقا ٢٢: ٢٧)، تنحني ركبة قلبنا أمامه في خضوع متواضع، ولعلنا نسلم ذواتنا حقاً له وهو القائم الآن من بين الأموات، لكيما نخدمه بنفس روح التواضع التي كانت تميزه إبان حياته على هذه الأرض، في رضا باستحسان الآب، رغم أننا نعبر هذا العالم مجهولين وغير معروفين نسبياً.

المخطط البسيط التالي لهذا الإنجيل قد يكون موحياً ومفيداً لنا ونحن نحاول تحليل محتوياته.

الموضوع: يسوع ابن الله كخادم ونبي

الجزء ١: الأصحاحات ١– ٥

الخادم النشيط يُعنى بحاجة الناس ومحنتهم

القسم (١)– ١: ١– ١٣: تقديم الخادم

القسم (٢)– ١: ١٤– ٥: ٤٣: العمل العظيم للخادم الإلهي

الجزء ٢: الأصحاحات ٦: ١ إلى ١٠: ٤٥

الخادم رُفِضَ ولكنه لا يزال يخدم في النعمة

القسم (١): الأصحاح ٦: الرفض والمعارضة تزداد

الأصحاح ٧: القسم (٢)– ٧: ١– ٨:٩: التقليد إزاء الوحي أو الإعلان

القسم (٣)– ٨: ١٠– ٩: ٨: الإعلان عن المجد الآتي

القسم (٤)– ٩: ٩– ١٠: ٤٥: طريق التلمذة

الجزء ٣: – ١٠: ٤٦– ١٦: ٢٠

اكتمال رسالة الرب

القسم (١)– ١٠: ٤٦– ١٣: ٣٧: الملك المرفوض

القسم (٢)– الأصحاحات ١٤ و١٥: الذبيحة الأسمى

القسم (٣)– الأصحاح ١٦: القيامة: المسيح لا يزال يخدم

الجزء ١: الأصحاحات ١ـ ٥
الخادم النشيط يُعنى بحاجة الناس ومحنتهم
الأصحاح ١
القسم (١)- ١: ١- ١٣
تقديم الخادم

يبدأ مرقس روايته على نحو مفاجئ، إذ يعرّف خادم الله، ثم يخبرنا بكلمات قليلة جداً عن سابق المسيح، ومعمودية يسوع وتجريب (الشيطان) له.

"بَدْءُ إِنْجِيلِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ اللَّهِ: كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي الأَنْبِيَاءِ: «هَا أَنَا أُرْسِلُ أَمَامَ وَجْهِكَ مَلاَكِي الَّذِي يُهَيِّئُ طَرِيقَكَ قُدَّامَكَ. صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ اصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً». كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ فِي الْبَرِّيَّةِ وَيَكْرِزُ بِمَعْمُودِيَّةِ التَّوْبَةِ لِمَغْفِرَةِ الْخَطَايَا. وَخَرَجَ إِلَيْهِ جَمِيعُ كُورَةِ الْيَهُودِيَّةِ وَأَهْلُ أُورُشَلِيمَ وَاعْتَمَدُوا جَمِيعُهُمْ مِنْهُ فِي نَهْرِ الأُرْدُنِّ مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ. وَكَانَ يُوحَنَّا يَلْبَسُ وَبَرَ الإِبِلِ وَمِنْطَقَةً مِنْ جِلْدٍ عَلَى حَقَوَيْهِ وَيَأْكُلُ جَرَاداً وَعَسَلاً بَرِّيّاً. وَكَانَ يَكْرِزُ قَائِلاً: «يَأْتِي بَعْدِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَنْحَنِيَ وَأَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. أَنَا عَمَّدْتُكُمْ بِالْمَاءِ وَأَمَّا هُوَ فَسَيُعَمِّدُكُمْ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ». وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ جَاءَ يَسُوعُ مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ وَاعْتَمَدَ مِنْ يُوحَنَّا فِي الأُرْدُنِّ. وَلِلْوَقْتِ وَهُوَ صَاعِدٌ مِنَ الْمَاءِ رَأَى السَّمَاوَاتِ قَدِ انْشَقَّتْ وَالرُّوحَ مِثْلَ حَمَامَةٍ نَازِلاً عَلَيْهِ. وَكَانَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاوَاتِ: «أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ!». وَلِلْوَقْتِ أَخْرَجَهُ الرُّوحُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ وَكَانَ هُنَاكَ فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْماً يُجَرَّبُ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَكَانَ مَعَ الْوُحُوشِ. وَصَارَتِ الْمَلاَئِكَةُ تَخْدِمُهُ" (١: ١– ١٣).

"إِنْجِيلِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ" هو بشرى الله السارة المتعلقة بابنه المبارك الذي أتى إلى هذا العالم ليكشف مكنونات قلبه للبشر وليقدّم نفسَه ذبيحة خطيئة عظيمة لأجل فدائنا.

كان ملاخي قد تنبّأ عن مجيء رسول[١] يسبق الرب ويهيئ الناس لمجيئه. هذا الرسول (الملاك) كان الصوت الصارخ في البرية الذي تنبأ عنه أشعياء (٤٠: ٣)[٢]، الذي سيدعو إسرائيل إلى أن يعدّوا طريق الرب ويجعلوا سبله مستقيمة. الكلمة تُرجمت هنا إلى "الرب" بينما هي "يهوه"[٣] في النص العبراني للعهد القديم. وفي هذا تأكيد واضح على ألوهية ربنا يسوع المسيح[٤]. فذاك الذي جاء في وداعة واتضاع كان السرمدي الذي تنازل إلى حدِّ توحيد ألوهيته ببشريتنا بمعزل عن خطيئتها، لكيما يصير مخلِّصَنا الفادي ويشتري انعتاقَنا من عبودية الخطيئة والدينونة التي كنا عُرضةً لها.

جاء يوحنا يعمّد في برية الْيَهُودِيَّةِ، فيغطّس في نَهْرِ الأُرْدُنِّ– ذاك النهر الذي كان يرمز إلى الموت– أولئك الذين كانوا يعترفون بخطاياهم ويتوبون. وخرج كثيرون إليه من كل الكورة المجاورة والمحيطة واعتمدوا تجاوباً مع رسالته. هذه المعمودية لم تكن بذات أهمية كبيرة، ولكن كانت إقراراً بأنهم قبلوا الرسالة واعترفوا

[١] ـ تُرجمت الكلمة إلى "ملاك" في الترجمة العربية (سميث وفانديك-البستاني): (مرقس ١: ١). [فريق الترجمة].

[٢] ـ (أشعياء ٤٠: ٣): " صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. قَوِّمُوا فِي الْقَفْرِ سَبِيلاً لإِلَهِنَا".

[٣] ـ "يهوه" هو أحد الأسماء التي عرّف بها الله عن نفسه للشعب في العهد القديم. هكذا قال الله لموسى في (خروج ٦: ٣): "انَا ظَهَرْتُ لابْرَاهِيمَ وَاسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ بِانِّي الالَهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَامَّا بِاسْمِي «يَهْوَهْ» فَلَمْ اعْرَفْ عِنْدَهُمْ"، والكلمة تعني "الكائن". [فريق الترجمة].

[٤] ـ بمعنى أن الرب يسوع المسيح هو الله "يهوه" نفسه. [فريق الترجمة].

بحاجتهم إلى التطهير والمغفرة. ونعلم من (يوحنا ١: ٢٩) أن هؤلاء التائبين كانوا يتجهون إلى حَمَل الله على أنه الوحيد الذي كان في مقدوره أن يرفع خطيئة العالم، ويتيح الفرصة للخطأة الآثمين لأن يتصالحوا مع الله.

لقد كان يوحنا شخصاً يشبه إيليا: رجلاً صارماً وجدياً يقطن البرية ويعيش حياة زاهد ناسك، يقتات على الجراد والعسل البري. لم يسعَ لجذب الانتباه إليه بل كان يُعلن قائلاً: "يَأْتِي بَعْدِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي الَّذِي لَسْتُ أَهْلاً أَنْ أَنْحَنِيَ وَأَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ".

عندما سيظهر هذا الشخص الذي يشير إليه يوحنا سوف يعمّد بالروح القدس أولئك الذين اقتبلوه. ونعلم أن هذا تحقق في العنصرة وبعد ذلك عندما "سكب" المسيح القائم تلك العطية التي صاروا يبصرونها ويعرفونها آنذاك– ألا وهي عطية الروح القدس الذي يعمّد المؤمنين إلى جسد واحد ويكرسهم للخدمة.

بعد ذلك نقرأ أن يَسُوع قد جاء مِنْ نَاصِرَةِ الْجَلِيلِ وَاعْتَمَدَ مِنْ يُوحَنَّا فِي الأُرْدُنِّ. لا نعلم من هذا المقطع هنا عن اعتراض يوحنا (على تعميده ليسوع)، وكيف أن تعليل الرب قد غلب في النهاية. فهذه القصة نقرأها في كتابات أخرى من الكتاب المقدس. تلك المعمودية كانت عربون عهد ربنا على أن ينجز حتى التمام العمل الذي جاء من السماء لكي يقوم به. وهذه صادقت عليها السماء، وكان يسوع قد تكرس علانية لهذه الخدمة عندما جاء صوت من الأعالي يقول: "«أَنْتَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرِرْتُ!»". ذاك الذي اعتمد مطابقاً نفسه مع الخطأة المعترفين كان يعلن بذلك أنه المعصوم عن الخطيئة.

ليس لدينا تفاصيل هنا عن الإغواء أو التجارب التي يتعرض لها عبد يهوه[٥] (يسوع). ونعرف، من ثم، أنه "لِلْوَقْتِ" (لاحظ استخدام هذه الكلمة في مقدمة الإنجيل كما في أماكن كثيرة منه)، للوقتِ أَخْرَجَهُ الرُّوحُ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، وكَانَ هُنَاكَ أَرْبَعِينَ يَوْماً يُجَرَّبُ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَكَانَ مَعَ الْوُحُوشِ. وعندما تركه الشيطان جاءت الْمَلاَئِكَةُ وصارت تَخْدِمُهُ. لقد كان خالقَها وكان ليسرها أن تخدمه في اتضاعه. أفهم من ذلك أن الروح القدس هو الذي دفع يسوع أو قاده لأن يذهب إلى البرية لكيما يُجرّب على هذا النحو. كإنسان على الأرض، اختار أن يكون تحت إرشاد الروح القدس في كل الأشياء. كان من الملائم أن يُجرّب قبل أن يبدأ خدمته الكريمة. ولم تكن تجربته هي بغاية معرفة إذا ما كان من المحتمل أن يخفق ويزِل ويقع في الخطيئة في ساعة الشدة، بل أن يبرهن أنه لن يخفق أو يزل، ذلك لأنه الوحيد المعصوم عن الخطأ بالمطلق. يرتكبُ خطأً فادحاً كلُّ من ينسب إليه طبيعةً خاطئة أو إمكانيةَ الوقوع في الخطيئة. إن الكتاب المقدس يحذرنا من أي مفاهيم مغلوطة كهذه عندما يخبرنا أنه قد جُرِّبَ في كل شيء مثلنا، ومع ذلك لم يُخطئ– أو، بمعنى حرفي، هو في منأى عن الخطيئة. لم تكن لديه أية نية أو نزعة داخلية للخطيئة. والإغواءات كانت كلها من الخارج ولم تجد لديه استجابة من أي نوع في قلبه.

---

[٥] - "عبد يهوه" أو "عبد الرب" هو لقب شرف في الكتاب المقدس. فهكذا يُسمّي الله "عبده" الذي سيتمم قصده الإلهي من خلال رسالته الفدائية. هذه التسمية ترد في الكتاب في مواضع كثيرة. انظر (أشعياء ٤٢: ١٩) بشكل خاص. [فريق الترجمة].

القسم (٢)- ١: ١٤- ٥: ٤٣
العمل العظيم للخادم الإلهي

في هذا القسم نحن مدعوون إلى أن نتأمل في تجاوب مختلف الأشخاص مع دعوة الرب وشهادته خلال خدمة رسالته على الأرض. لقد سمع البعض بسرور دعوته الكريمة ليكونوا معه تلاميذ ورسلاً، وتخلوا حالاً وعن طيب نفس عن انشغالاتهم وأعمالهم العادية جميعاً محبة به. وآخرون كانوا مترددين وخائفين لئلا يحملوا نيره. كان البعض يطلبونه بسبب حاجتهم الشخصية، سواء كانت جسدية أم روحية؛ وتبعه آخرون إيماناً منهم بأنه كان المسيا الموعود ورغبة منهم في أن يكونوا شركاء له في ملكوته. ولكن أياً كان الدافع الذي قادهم لأن يتعلقوا به فإنه اقتبلهم وكان يعلّمهم بصبر وأناة، كاشفاً لهم المعنى الحقيقي لرسالته وما يتعلق بملكوت الله ذاك الذي "سُرَّ الآب أَنْ يُعْطِيه" لهم (لوقا ١٢: ٣٢). إن الآب هو من اجتذب الناس إلى الرب يسوع، ولذلك كان هناك ترحيب بجميع الذين جاؤوا إليه (يوحنا ٦: ٤٤). إنه نفس الأمر تماماً اليوم. قد يأتي أحدهم إليه بقلب محطم إذ يعلم أن يسوع المسيح يشفي القلوب المنكسرة، ويأتي آخر إليه بسبب اشتياقٍ وتوقٍ لديه لم يستطع أن يشبعه في هذا العالم البائس؛ ويأتي هذا منكس الرأس بسبب الخجل والخزي والحزن من جراء حياة رديئة شريرة مبددة؛ وذاك آخر يأتي لأنه سمع أن هناك سروراً وسعادة وفرحاً في المسيح. ولكن جميع الذين يأتون ينالون نعمة واستقبالاً فخماً ملكياً. على الجميع أن يأتوا كخطأة، إذ هؤلاء فقط من جاء يدعوهم (متى ٩: ١٣).

لم يضع ربنا قالباً لطريقة تعامله مع النفوس. إنه يكشف عن ذاته بطرق وأعمال عديدة مختلفة، بحسب الحاجات الخاصة لكل فرد. الأمر العظيم والذي يهمه هو أن يصل إلى كل الضمائر وأن يجتذب كل القلوب. أياً كان السبب الذي يأتي لأجله المرء إلى يسوع، يمكنه أن يكون متأكداً أنه لن يُخزَ أو يُرذل أو يُرد خائباً. إن الرب يقدّر عالياً التكرس المحب له. وبهذه الطريقة نتجاوب مع تضرعاته الكريمة ومطالبه الرقيقة.

"وَبَعْدَ مَا أُسْلِمَ يُوحَنَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى الْجَلِيلِ يَكْرِزُ بِبِشَارَةِ مَلَكُوتِ اللَّهِ وَيَقُولُ: «قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ وَاقْتَرَبَ مَلَكُوتُ اللَّهِ فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِالإِنْجِيلِ»" (الآيات ١٤، ١٥).

بعد وَضْعِ يوحنا المعمدان مقيداً في سجن مكايروس (إذا اعتمدنا كتابات المسيحيين الأوائل وشهادة يوسيفوس) كان صعود يسوع إلى الجليل، وذلك عقب فترة مكوث صغيرة في اليهودية، كما يدون إنجيل يوحنا؛ وهناك بدأ خدمته العلنية في الكرازة بالنبأ السار بأن ملكوت الله قريب. إشارة منه، وبلا شك، إلى النبوة المتعلقة بالزمان التي ترد في (دانيال ٩) أعلن قائلاً: "قَدْ كَمَلَ الزَّمَانُ"؛ ودعا الجميع إلى التوبة– أي ليدينوا أنفسهم أمام الله، وليؤمنوا بالبشرى الحسنة.

"وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي عِنْدَ بَحْرِ الْجَلِيلِ أَبْصَرَ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِ فَإِنَّهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا تَصِيرَانِ صَيَّادَيِ النَّاسِ». فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا شِبَاكَهُمَا وَتَبِعَاهُ. ثُمَّ اجْتَازَ مِنْ هُنَاكَ قَلِيلاً فَرَأَى يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ وَهُمَا فِي السَّفِينَةِ يُصْلِحَانِ الشِّبَاكَ. فَدَعَاهُمَا لِلْوَقْتِ. فَتَرَكَا أَبَاهُمَا زَبْدِي فِي السَّفِينَةِ مَعَ الأَجْرَى وَذَهَبَا وَرَاءَهُ" (الآيات ١٦– ٢٠).

لقد "أَبْصَرَ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ.... يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي الْبَحْرِ". هذان الأخوان كانا قد التقيا بيسوع قبل برهة، ولكنهما ما كانا قد دُعيا بعد ليتركا كل شيء ويتبعاه. والآن وصلا إلى مرحلة حاسمة في حياتهما، إذ عليهما أن يتخذا قراراً مصيرياً. لاحظ أن الرب يسوع، وليسوا هم، من أخذ المبادرة (يوحنا ١٥: ١٦).

"«هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا تَصِيرَانِ صَيَّادَيِ النَّاسِ»". من الخطأ أن نحاول تطبيق هذه الكلمات على جميع تلاميذ الرب يسوع. بطريقة خاصة اختار هذين التلميذين، والآخرين فيما بعد، لأجل خدمة عظيمة في ربح النفوس. ولكن يمكننا أن نكون على يقين بأن كل من يتبعه بإخلاص سيستخدمه الرب بطريقة ما وإلا لا يكون إخلاصه حقيقياً.

لقد دعا الرب صيادي السمك الأربعة ليصيروا صيادين للناس. لقد رأى أنهم كانوا يؤدون عملهم في بحر الجليل بخبرة وإتقان، فدعاهم وأعدهم لخدمة أسمى وأعظم، ألا وهي ربح النفوس له. علينا ألا نستنتج من ذلك أن كل من يتبعون الرب يسوع المسيح سيصبحون رابحي نفوس عظماء. البعض يُدعون للخدمة بإمكانيات وطاقات أكثر تواضعاً بكثير. والبعض ليس لديه القدرة على أن يكرز أو يعظ، أو حتى أن يقوم بأي عمل شخصي فعال. ولكن كل واحد مدعو ليخدم في أية وظيفة أو مهمة يوكله الرب بها، حتى ولو كانت مجرد أن يعاني من أجله. يمكن للجميع أن يشاركوا في خدمة الصلاة وبذلك يكونون عوناً حقيقياً لأولئك الذين عُهد إليهم أمر الكرازة بالكلمة.

"فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا شِبَاكَهُمَا وَتَبِعَاهُ". لقد انجذبَتْ قلوبُهم في الحال إليه ورُبحت له. والآن، وقد جاءت الدعوة إلى خدمة علنية كامل الوقت، فلم يكن هناك تردد. صحيح أنه لم يكن لديهم الكثير ليتخلوا عنه، ولكنهم لأجل اسمه تركوا كل ما كان لديهم من الناحية الدنيوية، وجعلهم فَعَلَةً شجعان ومقتدرين في عملهم العظيم بربح النفوس له.

"رَأَى يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ". هذان أيضاً كانا صيادي سمك، وعلى الأقل يوحنا كان قد عرف يسوع قبلاً، وربما يعقوب أيضاً. من الواضح أن الرب يسوع المسيح قد ميّز فيهما اتقاد الروح وتكرس قلبهما المحب.

"فَدَعَاهُمَا لِلْوَقْتِ. فَتَرَكَا أَبَاهُمَا ... وَذَهَبَا وَرَاءَهُ". لقد كان هذا امتحاناً حقيقياً لقد كانا بلا شك يحبان والدهما زبدي بشدة. ولكنهما وضعا المسيح ودعوته بالدرجة الأولى، ولذلك تركا المنزل وشؤون عملهم لأجله. تخيلوا ما كان ليفوت بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب لو خذلوا المسيح أو لم يبالوا بمطلبه منهم بأن يتركوا كل شيء من أجله. لقد تخلوا عن عملهم في الصيد لينكبوا على أعظم عمل أُوْكِلَ لإنسان– ألا وهو ربح النفوس للمسيح.

أما عن الزمن الذي انقضى بين دعوته للتلاميذ الصيادين الأربعة وتلبيتهم للدعوة، فلا يمكننا إلا أن نخمنه. يبدو أن كل الأحداث قد جرت خلال بضعة أيام. وفي الواقع، لعل ذلك السبت الذي جرت فيه كل هذه الأعمال العظيمة المقتدرة قد تلا مباشرة اليوم الذي اصطادوا فيه ذلك المقدار الكبير العجائبي من السمك.

إن خدمة الرب يسوع المسيح في التعليم والشفاء مترابطتين على نحو وثيق دائماً وأبداً. والأخيرة تكمل الأولى، بمعنى أنها تصادق عليها وتثبت صحتها. الأعمال التي تُظهر قدرته أثبتت أنه ابن الله، المسيا المُنْتَظَر من قِبَل بني اسرائيل ومخلص العالم. لم يقم بأية معجزة عديمة الجدوى، أو أعمال أعاجيبية دراماتيكية مذهلة

لإثارة العجب والدهشة. لم يكن ساحراً يسعى لإدهاش الناس بقدرته الخفية على العناصر أو على عقول الناس. في كل ما فعل كان أمام ناظريه تمجيد الآب ومباركة البشر. يوم السبت هذا في كفرناحوم لم يكن سوى حدث عابر من حياته الحافلة بالخدمة التي أُرسل لأجلها من قبل الآب الذي مسحه بالروح القدس لكي يَصْنَعَ خَيْراً وَيَشْفِي جَمِيعَ الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ (أعمال ١٠: ٣٨). لقد أدرك أن كل الأمراض، وكل سقم ونقص جسدي، على أنها، في المقام الأول، عمل عدو الله والإنسان، إذ ما كان ليوجد مرض في العالم لو لم تدخل الخطيئة لتشوه خليقة الله الجميلة. لقد كان توقُه المميز هو لإبطال عمل الشيطان وتحرير الذين يعانون من آثار الخطيئة، روحياً وجسدياً أيضاً. ومن هنا فقد أعطى لإسرائيل أن يتذوق مبدئياً البركة التي ستصبح عامة كونية عندما يتأسس ملكوت الله وينعتق البشر من عبودية الفساد (رومية ٨: ٢٠، ٢١).

"ثُمَّ دَخَلُوا كَفْرَنَاحُومَ وَلِلْوَقْتِ دَخَلَ الْمَجْمَعَ فِي السَّبْتِ وَصَارَ يُعَلِّمُ. فَبُهِتُوا مِنْ تَعْلِيمِهِ لأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَالْكَتَبَةِ. وَكَانَ فِي مَجْمَعِهِمْ رَجُلٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ فَصَرَخَ قَائِلاً: «آهِ! مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ! أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ قُدُّوسُ اللَّهِ!» فَانْتَهَرَهُ يَسُوعُ قَائِلاً: «اخْرَسْ وَاخْرُجْ مِنْهُ!» فَصَرَعَهُ الرُّوحُ النَّجِسُ وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَخَرَجَ مِنْهُ. فَتَحَيَّرُوا كُلُّهُمْ حَتَّى سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً قَائِلِينَ: «مَا هَذَا؟ مَا هُوَ هَذَا التَّعْلِيمُ الْجَدِيدُ؟ لأَنَّهُ بِسُلْطَانٍ يَأْمُرُ حَتَّى الأَرْوَاحَ النَّجِسَةَ فَتُطِيعُهُ!» فَخَرَجَ خَبَرُهُ لِلْوَقْتِ فِي كُلِّ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ بِالْجَلِيلِ. وَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ الْمَجْمَعِ جَاءُوا لِلْوَقْتِ إِلَى بَيْتِ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ مَعَ يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا وَكَانَتْ حَمَاةُ سِمْعَانَ مُضْطَجِعَةً مَحْمُومَةً فَلِلْوَقْتِ أَخْبَرُوهُ عَنْهَا. فَتَقَدَّمَ وَأَقَامَهَا مَاسِكاً بِيَدِهَا فَتَرَكَتْهَا الْحُمَّى حَالاً وَصَارَتْ تَخْدِمُهُمْ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ إِذْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ قَدَّمُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ السُّقَمَاءِ وَالْمَجَانِينَ. وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةً عَلَى الْبَابِ. فَشَفَى كَثِيرِينَ كَانُوا مَرْضَى بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ وَأَخْرَجَ شَيَاطِينَ كَثِيرَةً وَلَمْ يَدَعِ الشَّيَاطِينَ يَتَكَلَّمُونَ لأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ" (٢١– ٣٤).

"دَخَلُوا كَفْرَنَاحُومَ". إلى هذه المدينة انتقل ربنا وأمه وإخوته بعد أن تركوا الناصرة. ولذلك كانت هذه المدينة موطناً ليسوع (متى ٤: ١٣؛ يوحنا ٢: ١٢). إنها تُدعى "مَدِينَتِهِ" (متى ٩: ١). وهنا كان كثيراً ما يعلّم ويصنع العجائب. لقد كانت مدينة نالت حظوة أكثر من أي مدينة أخرى في الجليل؛ ومع ذلك فقد رفضت شهادته وألقى عليها إحدى أشد الويلات (متى ١١: ٢٣). "لِلْوَقْتِ دَخَلَ الْمَجْمَعَ فِي السَّبْتِ". لقد حفظ يسوع السبت بدقة كما شاء الله، ولكنه أبى الاعتراف بكل تلك التقاليد والإضافات والملحقات الناموسية والتشريعية التي ألحقها الربانيون (الربابنة) بالكتابات المقدسة، فجعلوا أمراً ثقيلاً مرهقاً مما كان يفترض أن يكون بركة. لقد كان المجمع مفتوحاً أمامه كمعلم، فدخل إليه وصار يعلّم.

المجمع في إسرائيل:

إن أول ذكر للمجمع هو في المزمور ٧٤: ٨. وآخر ذكر له هو في رؤيا ٣: ٩، حيث نقرأ عن مجمع الشيطان. إن الكلمة بحد ذاتها تعني مجرد مكان اجتماع أو تجمع. خلافاً للهيكل الذي كان مكرساً لله، كان المجمع مكاناً يدل على الولاء الطوعي لناموس الله. لقد كان اليهود يشعرون بالحاجة إلى هكذا أماكن يستطيعون فيها التجمع لتلقي التعاليم وحياة الشركة. لم يكن هناك سوى هيكل واحد معترف به في أي زمن، وكان هذا في أورشليم. كانت هناك مجامع في كل مكان تواجدت فيه عائلات يهودية كافية لتحافظ عليها وتساعد على استمرارها، وغالباً ما كانت عديدة في المدينة الواحدة.

إذ كان طفلاً، اعتاد يسوع على أن يحضر إلى المجمع. وبدأ باكراً بالمشاركة في الخدمة فيه (لوقا ٤: ١٦). لاحظ هنا (في إنجيل لوقا ٤: ١٦) الكلمات "حَسَبَ عَادَتِهِ". لقد أعطى كرامةً وتقديراً للمكان الذي كانت كلمة الله تُعلَّم وتُفسَّر فيه، وأوصى الآخرين بأن يفعلوا المثل، رغم أن أولئك الذين كانوا يعلّمون ما كانت حياتهم تتوافق مع التعليم الذي يُلقون (متى ٢٣: ٢). أفلا نتعلم من ذلك أن نحترم المكان الذي يُعترف فيه باسم الله وتُقرأ فيه كلمته، حتى ولو لم نكن نسلم أو نصادق أو نؤيد كل ما يجري هناك، بسبب الضعف البشري؟ إننا ميالون لأن نذهب إلى حد التطرف، إما في إظهار اللامبالاة الكاملة لعقيدة الشر أو السلوك الشرير، أو بأن نتخذ موقفاً متشامخاً متكبراً مع البر الذاتي نحو أولئك الذين لا يرون كما نرى نحن أو نفعل ولا يسلكون بحسب معاييرنا. من المهم أن ندرك ذلك في حين أننا مدعوون، كأفراد، أن "كُفُّوا عَنْ فِعْلِ الشَّرِّ. تَعَلَّمُوا فِعْلَ الْخَيْرِ" (أشعياء ١: ١٦، ١٧). فلسنا مدعوين لأن نعتلي كرسي الدينونة وننتقد الآخرين الذين يكونون مخلصين مثلنا، ولكن لم يتعلموا أن ينظروا إلى كل شيء مثلنا بنفس طريقتنا.

"كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَالْكَتَبَةِ". هؤلاء الناس كانوا معتادين على أن يفسروا التعاليم التي تلقوها من معلميهم الذين سبقوهم، وما كانوا يحاولون أن يعطوا أية تعاليم موثوقة مقبولة من تلقاء ذاتهم. أما يسوع فكان يتكلم كمُرسَلٍ من الله ليس لديه حاجة لأن يدعم تعاليمه بشهادات من سلطات بشرية، بل كرز بالكلمة كناطق باسم الآب، والذي كان هو نفسه ممثلاً له. كان هذا تعليماً لم يعهده الناس من قبل أبداً على الإطلاق.

"رَجُلٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ". يخبرنا الكتاب المقدس بوضوح عن حقيقة أن يكون امرؤ ممسوساً من الشيطان. لم تكن هذه مجرد إيمان خرافي عند اليهود. ففي هذه الحادثة يتم قطع الخدمة بظهور رجل تسيطر عليه روح نجسة شريرة.

"أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ قُدُّوسُ اللَّهِ". الروح الذي يتملّك الرجل عرف يسوع واعترف به وبسلطته، وخشي أن يلقي دينونة على الأرواح الشريرة، فيقيدهم في السجن الأبدي المعد للملعونين المحكوم عليهم بالهلاك إلى أبد الدهر. قد يتلقى البشر تعاليم المسيح وتصريحاته بشك، ولكن الأرواح الساقطة يعرفون من يكون يسوع.

"فَانْتَهَرَهُ يَسُوعُ". لم يكن يسوع في حاجة إلى شهادة من الأرواح الشريرة. لقد أمر الروح النجس أن يصمت وأن يخرج من ذاك الرجل المسعور.

"فَصَرَعَهُ الرُّوحُ النَّجِسُ .... وَخَرَجَ مِنْهُ". كما لو كانت محاولة أخيرة حاقدة يائسة، ألقى الروح النجس عذاباً أكبر على هذه الضحية البائسة، ثم في إطاعة كارهة للأمر الذي ما كان ليمكنه أن يعصاه، خرج من الرجل وهو لا حول له ولا قوة. كان هذا التحرر من الروح النجس على مرأى من كل الحاضرين.

"مَا هَذَا؟ مَا هُوَ هَذَا التَّعْلِيمُ الْجَدِيدُ؟" أولئك الذين اكتظ بهم المجمع اهتزوا عندما أدركوا قوة المسيح وسلطته على الأرواح الشريرة، وسأل بعضهم الآخر عن معناه كله وعن مصدر سلطته. لم يحدث معهم أبداً، عندما كانوا يصغون إلى مفسري الناموس العاديين، أن عرفوا مثل هكذا تجلٍّ للتأييد الإلهي.

"فَخَرَجَ خَبَرُهُ لِلْوَقْتِ". راح كل واحد يخبر الآخرين عن الأمر اللافت الذي حدث في مجمع كفرناحوم حتى انتشر النبأ في كل المنطقة الجليلية تلك. ولكن، وكما أثبتت الأحداث فيما بعد، أن ترى في يسوع معلماً عظيماً أمر، وأن تنحني في توبة أمام الله وتقتبل المخلص الذي أرسله، كفادٍ للخطيئة، هو أمر آخر.

"جَاءُوا لِلْوَقْتِ إِلَى بَيْتِ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ". تعامل الرب مع هذين أصلاً في بيت صيدا. ولعل سمعان قد انتقل إلى كفرناحوم بعد زواجه، على الأرجح ليشاطر زوجته بيت والدتها.

"وَكَانَتْ حَمَاةُ سِمْعَانَ مُضْطَجِعَةً مَحْمُومَةً". أينما حل يسوع كان هناك أدلة على الخراب والدمار الذي كانت الخطيئة قد عملته في بني اسرائيل. لو أن هذا الشعب كان مخلصاً لله، لكان (الله) أزال كل مرض من بينهم (خروج ١٥: ٢٦). ولكنهم أخفقوا كشعب في إطاعة كلمته. وبالتالي كان المرض والوباء سائداً منتشراً في كل مكان. إذ رأى التلاميذ حالة هذه المرأة المتألمة، فإنهم لفتوا انتباه يسوع إليها، وهم على ثقة بأنه سيريحها من هذا الوضع الذي ترزح تحته.

"فَتَقَدَّمَ وَأَقَامَهَا مَاسِكاً بِيَدِهَا فَتَرَكَتْهَا الْحُمَّى حَالاً". لقد كان هناك شفاء في لمسته. ففي اعتبار حانٍ وشخصي تجاه المرأة المسكينة المتألمة، أنهضها "فَتَرَكَتْهَا الْحُمَّى حَالاً". لقد هدَّأتْها يده وخففت ألمها وحررتها من نار الحمى التي كانت تسري في عروقها. وفي موقف من الامتنان قامت تلك التي كانت مضطجعة هناك عاجزة وهرعت لخدمة الآخرين.

"وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ إِذْ غَرَبَتِ الشَّمْسُ". لّما قارب النهار على الانتهاء، أمكن رؤية حشد ممتزج مختلط قادماً من كل صوب، وقد جاؤوا بالمرضى المصابين بالأوبئة والمتلبسين بالأرواح لكيما يُظهر يسوع قدرته على شفائهم كرمى لهم.

"كَانَتِ الْمَدِينَةُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةً عَلَى الْبَابِ". لم تكن هذه مجرد مغالاة. لم تكن كفرناحوم مدينة كبيرة. من كل حدب وصوب فيها ذهب السكان إلى بيت سمعان وأندراوس، يدفعهم إلى ذلك الفضول أو الإحساس بالحاجة. للأسف أن الغالبية العظمى الساحقة منهم لم يفكروا جدياً بمسؤوليتهم تجاهه ذاك الذي جاء بينهم خلال عمل نعمته، ليس فقط ليشفي أجسادهم، بل أيضاً ليعلن الخلاص لنفوسهم.

"لَمْ يَدَعِ الشَّيَاطِينَ يَتَكَلَّمُونَ لأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ". لقد شفى كثيرين من الأمراض والأسقام الجسدية، معتقاً إياهم من العبودية الروحية لقوة الشيطان، بل وحتى رفض أن يسمح للأرواح الشريرة بأن تعرِّف عن هويته، لأنه لن يرضَ بشهادة تأتي من مضيفي الشرير.

لقد كانت حياة ربنا على الأرض خدمة متواصلة مطردة بلا توقف. هذا لا يعني أنه كان على الدوام منشغلاً بالتعليم والشفاء. لقد وجد متسعاً من الوقت لمشاركة هادئة مع الآب. ورغم ذلك فلم يكن أحد من تلاميذه منشغلاً كما هو. إن رواية هذا السبت في كفرناحوم ما هي إلا مثال عن أيام كثيرة أمضاها في إعلان إنجيل الملكوت وسد حاجات الرجال والنساء، شهادة على اهتمامه الإلهي بهموم وشؤون البشر. وفي هذه كلها ترك لنا مثالاً نحتذي به. إننا نهدر وقتاً طويلاً على أشياء لا تنفع. لقد سخَّر كل لحظة لمجد الله. في حياتنا أشياء كثيرة ليست لها قيمة حقيقية أو دائمة. أما هو فكل ما قاله أو فعله كان قيّماً ويفيد إلى الأبدية.

"وَفِي الصُّبْحِ بَاكِراً جِدّاً قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ فَتَبِعَهُ سِمْعَانُ وَالَّذِينَ مَعَهُ. وَلَمَّا وَجَدُوهُ قَالُوا لَهُ: «إِنَّ الْجَمِيعَ يَطْلُبُونَكَ». فَقَالَ لَهُمْ: «لِنَذْهَبْ إِلَى الْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ لأَكْرِزَ هُنَاكَ

أَيْضاً لأَنِّي لِهَذَا خَرَجْتُ». فَكَانَ يَكْرِزُ فِي مَجَامِعِهِمْ فِي كُلِّ الْجَلِيلِ وَيُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ. فَأَتَى إِلَيْهِ أَبْرَصُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ جَاثِياً وَقَائِلاً لَهُ: «إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي!» فَتَحَنَّنَ يَسُوعُ وَمَدَّ يَدَهُ وَلَمَسَهُ وَقَالَ لَهُ: «أُرِيدُ فَاطْهُرْ». فَلِلْوَقْتِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ ذَهَبَ عَنْهُ الْبَرَصُ وَطَهَرَ. فَانْتَهَرَهُ وَأَرْسَلَهُ لِلْوَقْتِ وَقَالَ لَهُ: «انْظُرْ لاَ تَقُلْ لأَحَدٍ شَيْئاً بَلِ اذْهَبْ أَرِ نَفْسَكَ لِلْكَاهِنِ وَقَدِّمْ عَنْ تَطْهِيرِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى شَهَادَةً لَهُمْ». وَأَمَّا هُوَ فَخَرَجَ وَابْتَدَأَ يُنَادِي كَثِيراً وَيُذِيعُ الْخَبَرَ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَدِينَةً ظَاهِراً بَلْ كَانَ خَارِجاً فِي مَوَاضِعَ خَالِيَةٍ وَكَانُوا يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ" (٣٥– ٤٥).

بعد ذلك السبت الحافل في كفرناحوم اختلى المخلص الخادم بنفسه باكراً جداً في الصباح في مكان منعزل، وأمضى هناك بضعة ساعات في مشاركة مكرسة مقدسة مع أبيه. كانت الصلاة بالنسبة له، كإنسان كامل، مسرة روحه المقدسة وهو يناجي في كل الأشياء ذاك الذي أرسله.

مع طلوع الفجر جاء سمعان والآخرون يطلبونه، وعندما وجدوه أخبروه أنه كان هناك آخرون كثيرون يبحثون عنه ويرغبون في رؤيته والاستماع إليه. من الواضح أنهم كانوا يفكرون بالاعتراف به ملكاً وأن يحاولوا أن يفرضوا فكرة القطيعة مع الحكومة الرومانية. أما بالنسبة له فلم يكن هناك ملكوت بدون الصليب. ولذلك، وبدلاً من أن يذهب ليرحّب بأولئك الذين كانوا يطلبونه على هذا النحو، قال في هدوء: "لِنَذْهَبْ إِلَى الْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ". لقد أشار إلى أنه كانت لديه خدمة لهؤلاء، لأنه أُرسل ليكرز بإنجيل الملكوت لهم أيضاً. ولذلك، فإن المجموعة الصغيرة تابعت طريقها من قرية إلى قرية في كل أرجاء الجليل، ووعظ في المجامع وكان يخرج الشياطين.

وفي إحدى هذه الأماكن، وبينما كان يكرز، تقدم إليه أبرص نجس، وجثا على ركبته أمامه طالباً منه أن يشفيه من ذاك الداء المخيف. لقد كان على يقين بأن يسوع لديه القدرة على فعل ذلك، ولكن هل سيرغب بأن يفعل ذلك لشخص واقع، من دون ريب، تحت لعنة الله؟ إذ كانت هذه هي الفكرة المتعلقة بالبرص السائدة في اسرائيل. فصرخ ذاك: "«إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي!»". بقلبٍ مليء بالحنو انعطف يسوع نحوه بنعمة، دون أن يخشى احتمال أن يتلوث أو يتنجس من جراء احتكاكه بنجس، فمد يده ولمس الأبرص قائلاً له: "«أُرِيدُ فَاطْهُرْ»". وفي الحال جرت المعجزة. فمضى البرص بأمر يسوع، وانصرف ذاك الذي كان سابقاً ضحية لذلك المرض المريع الفظيع وهو مبتهج فرح. وطلب إليه يسوع، الذي لم تكن لديه رغبة بأن يهتف له الناس كصانع معجزات قدير، طلب من ذلك الرجل الذي شُفي ألا يخبر أحداً بما حدث، بل أن يذهب أولاً إلى الكاهن في هيكل أورشليم ليُري نفسه لهم على سبيل الفحص، وأن يقدم الطيرين والقرابين الأخرى التي كان موسى قد أمر بها، كما ورد في (لاويين ١٤) "شَهَادَةً لَهُمْ". يمكن للمرء أن يتخيل اندهاش وانذهال الكاهن عندما رأى هذا الرجل يتقدم من أجل التطهير الطقسي، لأن ذلك كان شيئاً لم يكن أحد قد سمع به في اسرائيل ولقرون.

نعلم من الإنجيل أنه ذهب، ولكنه لم يستطع أن يمسك نفسه عن أن يعلن في كل مكان عما اختبره؛ وبنتيجة ذلك احتشد عدد كبير جداً ليروا يسوع لدرجة أنه اضطر ليترك المدينة ويبقى خارجاً في الريف. لم يكن شفاء البرص بقدرة بشرية، وما أنجزه يسوع بلمسة أو بكلمة ما كان لطبيب على الأرض أبداً أن يحققه. لقد كان البرص مرضاً متعلقاً ببنية الإنسان. لقد كان يظهر تأثيره في الخارج بينما هو ينبع من الداخل. وبسبب بذاءة وقذارة هذا المرض استخدمه الله كصورة عن النجاسة التي في الخطيئة.

إن كل نفس غير مخلصة هي مصابة بهذا الداء المخيف وهي خاطئ آثم نجس في نظر الله. لم يكن الإنسان يصاب بالبرص أو الجذام لأن لديه تقرحات مريعة على جسده. بل كانت هذه علائم تدل على المرض الذي في داخله. وليس الإنسان خاطئاً لأنه يرتكب الخطيئة: بل إنه يخطئ لأنه خاطئ، ولذلك فهو منفسد في جسده. وقدرة الرب وحدها يمكن أن تعتقه من هذا الداء.

الأصحاح ٢

لقد لاحظنا لتونا أن المعجزات قد عملها ربنا ليريح البشر من بؤسهم وتعاستهم وليثبت مسيانيته. سنركّز أيضاً على الحقيقة الثمينة بأن هذه المعجزات قد عُني بها أن تعلنَ للبشر نعمة الله ومحبته الحانية، التي تبدت في المسيح، فكشفت على نحو كامل عمق اهتمامه بأولئك الذين استجلبوا على أنفسهم ذلك المرض الرهيب والبلوى بسبب أنهم أداروا ظهرهم له. إن الجنس البشري برمته كان يعاني بسبب الخطيئة. لقد كان إسرائيل بشكل خاص قد وُعد بمناعة من المرض إذا ما أطاعوا ناموس الله (خروج ٢٣: ٢٥). وكل أعمى أو أصم أو مشلول أو مصاب بالمرض من بينهم كان شاهداً على إخفاقهم في هذه الناحية (تثنية ٢٨: ١٥– ٢٣). بشفائه لذاك المريض، كان يسوع يبطل عمل الشيطان (أعمال ١٠: ٣٨). وبقيامه بذلك فإنه كان يحقق ما سبق أن جاء في النبوءة عن "عبد يهوه"، ملك اسرائيل المسيا المنتظر الموعود (أشعياء ٣٥: ٤– ٦). شفاء الأجساد وغفران الخطايا كانا مرتبطان على نحو وثيق في العهد القديم (مزمور ١٠٣: ٣؛ ٦٧: ٢؛ أشعياء ٥٨: ٨). وكان الأمر يصح أيضاً على نفس المنوال فيما يخص خدمة الرب على الأرض كما سيوضح هذا القسم الذي سنتناوله الآن. وهناك منطق لا يزال صحيحاً حتى ولو كانت بركاتنا الآن روحية (أفسس ١:٣) أكثر منها مؤقتة زائلة. ولكن يوحنا يصلي من أجل غايس لكي ينال صحة الجسد وانتعاش الروح معاً يداً بيد (٣ يوحنا ١: ٢). وكما في مكان آخر يمكننا أن نتيقن أن سبب ذلك هو أن الله أبانا له هدف خفي معين من البركة. إلا أن لنا الحرية في أن نصلّي على الدوام أحدنا للآخر من أجل الشفاء (يعقوب ٥: ١٦). عندما كان يسوع يعلنُ على الأرض إنجيل الملكوت، كان من الملائم أن تتجلى بركات الدهر الآتي، وهكذا يحصل الناس على مثالٍ عما يمكن لإسرائيل والكون بأكمله أن يتمتع به بامتلائه عندما يسود مُلْكُ الله على جبل صهيون وتعم البركةُ جميعَ الأرض.

إن كل شكل من أشكال شفاء المرض قام به ربنا يسوع يبدو وكأنه يرسم جانباً من الخطيئة، التي تشبه الحمى المتقدة في النفس، فتكون مثل برص يدنس الكيان كله، أو شلل يجعل المرء عاجزاً كلياً عن أن يخطو خطوة تجاه الله، أو كمثل ذراعٍ ذاويةٍ عاجزة عن القيام بخدمة حقيقيةٍ. أياً كان الشكل الذي تأخذه الخطيئة، فإن يسوع يستطيع أن يقدم انعتاقاً كاملاً منه.

كل شفاء هو إلهي، سواء أكان قد تم بقوة أو قدرة معجزية، أو بعادات جسدية منضبطة على نحو صحيح، أو حمية أو تدريب، أو بمعالجة طبية مدروسة. الله وحده هو الذي يستطيع أن يقدم صحة و قوة متجددتين. فذاك الذي بقدرته أتينا إلى الوجود، وقد أعطانا كل تلك الأجساد المدهشة، بوظائفها الرائعة، هو الوحيد الذي يستطيع أن يحفظنا على نحو سليم معافى أو يشفينا من المرض.

"ثُمَّ دَخَلَ كَفَرْنَاحُومَ أَيْضاً بَعْدَ أَيَّامٍ فَسُمِعَ أَنَّهُ فِي بَيْتٍ. وَلِلْوَقْتِ اجْتَمَعَ كَثِيرُونَ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَسَعُ وَلاَ مَا حَوْلَ الْبَاب. فَكَانَ يُخَاطِبُهُمْ بِالْكَلِمَةِ. وَجَاءُوا إِلَيْهِ مُقَدِّمِينَ مَفْلُوجاً يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةٌ. وَإِذْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْتَرِبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ الْجَمْعِ كَشَفُوا السَّقْفَ حَيْثُ كَانَ. وَبَعْدَ مَا نَقَبُوهُ دَلَّوُا السَّرِيرَ الَّذِي كَانَ الْمَفْلُوجُ مُضْطَجِعاً عَلَيْهِ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «يَا بُنَيَّ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ». وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ هُنَاكَ جَالِسِينَ يُفَكِّرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ: «لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ هَذَا هَكَذَا بِتَجَادِيفَ؟ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ؟» فَلِلْوَقْتِ شَعَرَ يَسُوعُ بِرُوحِهِ أَنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ هَكَذَا فِي أَنْفُسِهِمْ فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِهَذَا فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيُّمَا

أَيْسَرُ: أَنْ يُقَالَ لِلْمَفْلُوجِ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ؟ وَلَكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِابْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَاناً عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا» – قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «لَكَ أَقُولُ قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ وَاذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ». فَقَامَ لِلْوَقْتِ وَحَمَلَ السَّرِيرَ وَخَرَجَ قُدَّامَ الْكُلِّ حَتَّى بُهِتَ الْجَمِيعُ وَمَجَّدُوا اللَّهَ قَائِلِينَ: «مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا قَطُّ!»" (٢: ١– ١٢).

خدمة الرب المبكرة في الجليل لا تزال مستمرة مطردة، والأحداث التي ترد في هذا المقطع تلي مباشرة تلك التي مرت في المشهد السابق. كانت كفرناحوم المركز الذي انطلق منه يسوع إلى بقية نواحي الجليل، في أوائل الصيف أو أواخر الربيع من العالم ٢٨ م.

"سُمِعَ أَنَّهُ فِي بَيْتٍ". حضور يسوع في أي مكان كان سرعان ما يصبح معروفاً، كما في هذه المناسبة عندما انتشر خبر أن الشافي العظيم هو من جديد في المدينة التي اختارها موطناً له.

"فَكَانَ يُخَاطِبُهُمْ بِالْكَلِمَةِ". لقد كان يعلن لتلك الحشود التي ملأت المنزل واكتظت عند الباب الرسالة التي جاء من السماء لكي ينقلها، ألا وهي إنجيل الملكوت. لقد كانت هذه مهمته الرئيسية خلال فترة خدمته التي استمرت ثلاث سنوات ونصف. وكان شفاء المرضى أمراً ثانوياً بالنسبة له، رغم أن ذلك كان الأمر الأهم بالنسبة للناس بلا شك. ولكن مرض النفس أشد خطراً من مرض الجسد، وأن ينقل للبشر رسالة الحياة أهم بكثير من تخليصهم من الأمراض أو العلل الجسدية.

"وَجَاءُوا إِلَيْهِ مُقَدِّمِينَ مَفْلُوجاً يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةٌ". هذا المشلول البائس العاجز لم يكن ليستطيع أن يشق طريقه بدون مساعدة ليصل إلى حيث كان يسوع، ولكن كان له أربعة أصدقاء كانوا مقتنعين بشدة على ما يبدو بأن الرب سيعطي قوة لأوصال ذلك المريض المشلولة.

"كَشَفُوا السَّقْفَ حَيْثُ كَانَ. وَ... دَلَّوُا السَّرِيرَ الَّذِي كَانَ الْمَفْلُوجُ مُضْطَجِعاً عَلَيْهِ". إذ وجدوا أن كل الطرق العادية المؤدية إلى يسوع كانت مغلقة بسبب الحشد المتدافع عند الباب، فإن هؤلاء الأصدقاء النشطين، وإذ كانوا عازمين على ألا يخفقوا في محاولتهم لإحضار المتألم المصاب مباشرة إلى المخلص المحب صانع المعجزات، فإنهم حملوه إلى أعلى السطح (والذي يمكن الوصول إليه عن طريق سلم خارجي) وهناك، وإذ نزعوا القرميد والقش على السقف، صنعوا فتحة كبيرة بما يكفي ليُنزلوا المريض منها، بأن ربطوا حبالاً إلى السقالة التي كان يضطجع عليها المريض فأوصلوه إلى حيث كان يسوع يعلّم. يمكن للمرء أن يتخيل مدى الاهتياج والإثارة عند الناس وقد رأوا ذلك الرجل المضطجع وهو يُنزل إلى عند قدمي يسوع. بالنسبة له لم يكن في هذا أي تطفل أو اقتحام وقح لا مبرر له، أو مقاطعة، بل دليل صامت على إيمان الخمسة، الذين وثقوا به على أنه قادر على استخدام قدرته لشفاء المريض.

"فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ". إنما الإيمانُ تبرهنه الأعمال. إصرار ومثابرة ونشاط هؤلاء الرجال أظهر حقيقية إيمانهم باستعداده لأن يسد حاجتهم. هذا ما أدركه، وإذ رأى أن المفلوج كان في حاجة إلى ما هو أعظم من شفاء الجسد– أي مغفرة خطاياه، "قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: «يَا بُنَيَّ مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ»". لقد كانت هذه لحظة درامية مؤثرة، ولا بد أن كلماته قد أذهلت المستمعين، إذ لم يسبق لهم أبداً أن عرفوا رجلاً يتحدث على هذا الشكل.

كان المشلول حرفياً "ضعيفاً (لا قوة له)" (رومية ٥: ٦). وبهذه كان يمثل صورة لكل الناس في خطاياهم. لقد أدخلت كلمة المسيح القوة إلى أطرافه المشلولة، كما أن تلك الكلمة ذاتها تعطي حياة جديدة لمن يقتبله بإيمان.

أظهر الأصدقاء الأربعة لذلك الرجل العاجز إيمانهم من خلال أعمالهم. وإذ كانوا متيقنين بأن صديقهم المريض كان في حاجة إلى يسوع، فإنهم كانوا مصممين على ألا يسمحوا لأي شيء بأن يمنعهم من إحضاره إلى مكان وجود المخلص. هل نهتم نحن على تلك الدرجة بأصدقائنا غير المهتدين إلى يسوع كما فعلوا؟ لقد كان مما يبهج المسيح رؤيتُه لإيمان هؤلاء الرجال، لأن الإيمان دائماً يمجد الله. إنه يميز حضوره في كل نفس صادقة ساعية وراءه، وهو سريع الاستجابة في تلبية رغبة القلب المؤمن.

"وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ هُنَاكَ جَالِسِينَ يُفَكِّرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ". هؤلاء كانوا ناموسيين لم يعرفوا شيئاً عن النعمة وكانوا ينكرون ادعاءات يسوع بأنه ابن الآب. إنهم لا يلتجئون إلى الكتابات المقدسة سعياً وراء الاستنارة، بل إنما يفكرون في أنفسهم عن معنى كل ما يجري. وإذ كانوا ممتلئين بالتحامل والإجحاف ومصممين على ألا يؤمنوا بيسوع، فإنهم تشاجروا معه في الحال.

"مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ؟" بالنسبة لهم، كان أسوأ شكل من أشكال التجديف هو أن يدّعي أحدهم، أياً كان، أن لديه سلطة على مغفرة الخطايا. هذا الامتياز كان وقفاً على الله وحده. لم يعرفوا أن الله المتجلي في الجسد كان حاضراً في وسطهم.

"شَعَرَ يَسُوعُ بِرُوحِهِ أَنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ هَكَذَا فِي أَنْفُسِهِمْ". لم يتكلموا بصوت مرتفع، أو بشكل مسموع معبّرين عن نقمتهم أو اعتراضهم على كلماته، بل إن يسوع عرف أفكارهم (مزمور ٩٤: ١١)، وأجابهم بناء على ذلك. "لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِهَذَا فِي قُلُوبِكُمْ؟" أن يكون قادراً هكذا على قراءة أعمق الأسرار في تفكيرهم وحياتهم كان دليلاً آخر على ألوهيته، ذلك أن الله وحده هو الذي يعرف أفكارنا من بعيد (مزمور ١٣٩: ٢).

"أَيُّمَا أَيْسَرُ؟": بالنسبة لهم، كانوا عاجزين عن شفاء المريض كما كانوا عاجزين عن الصفح عن الخاطئ. أما يسوع فقد كان قادراً على أن يفعل كلا الأمرين. لقد اختار أن يفعل أولاً الأمر الأهم.

"لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لاِبْنِ الإِنْسَانِ سُلْطَاناً عَلَى الأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا". كان لينجز معجزة لكي يوضح سلطته وقدرته على تحرير الناس من الخطيئة ومضاعفاتها بآن معاً.

"قُمْ وَاحْمِلْ سَرِيرَكَ". لذلك التفت إلى ذلك المشلول الذي كان لا يزال عاجزاً وأمره أن ينهض ويحمل سريره– وهو عبارة عن نقالة يمكن طيّها بسهولة– فعاد صحيحاً معافى إلى منزله. لقد كانت هناك قوة في كلمته. فعندما تكلّم حلّت قوة في تلك الأوصال وقام الرجل، لدهشة جميع من كانوا يتابعون المشهد.

"مَجَّدُوا اللَّهَ". عندما رأى الناس ذلك الرجل الذي كان مفلوجاً في السابق يقف على قدميه يمضي حاملاً سريره، استجابة لأمر من يسوع، أدركوا أن طاقة إلهية كانت فعالة في وسطهم، فأعطوا الله المجد لقيامه بهذه الأعاجيب عن طريق خادمه (وعبده) يسوع. لا شك أن كثيرين تساءلوا فيما إذا لم يكن ذاك هو بالفعل هو المسيا المنتظر، ومن هنا جاء كلامهم أن: "«مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا قَطُّ!» ". لقد كان في هذا تجلٍّ مذهل وجديد لنعمة وقدرة الله.

وإذ غادر يسوع المنزل، "خَرَجَ أَيْضاً إِلَى الْبَحْرِ"، وهناك علّمَ الجموعَ التي تبعَتْه، كاشفاً لهم الحقائق العظيمة المتعلقة بملكوت الله الآتي والذي طالما انتظره بنو اسرائيل طويلاً.

"وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى لاَوِيَ بْنَ حَلْفَى جَالِساً عِنْدَ مَكَانِ الْجِبَايَةِ فَقَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي». فَقَامَ وَتَبِعَهُ. وَفِيمَا هُوَ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِهِ كَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ يَتَّكِئُونَ مَعَ يَسُوعَ وَتَلاَمِيذِهِ لأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرِينَ وَتَبِعُوهُ. وَأَمَّا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ يَأْكُلُ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ قَالُوا لِتَلاَمِيذِهِ: «مَا بَالُهُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ؟» فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ لَهُمْ: «لاَ يَحْتَاجُ الأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى. لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَاراً بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ»" (٢: ١٤– ١٧).

ليس المسيح مخلصنا فحسب، بل هو ربنا أيضاً. والفداء يشتمل على أكثر من الخلاص من إثم الخطيئة والدينونة المستحقة من جرائها. إنه يشمل أيضاً على تحريرنا من قوة وسلطة الشيطان، معبود هذا العالم، وخضوعنا السار لذاك الذي اشترانا بدمه الثمين. ونقرأ: "إِنَّكُمْ لَسْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ.... لأَنَّكُمْ قَدِ اشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ" (١ كورنثوس ٦: ١٩، ٢٠). بسبب ذلك فإن علينا أن نتمسك بالرب يسوع كمعلّم وسيّد أسمى على حياتنا. وإن الامتنان له على كل ما فعلت نعمته لنا، بحد ذاته، يتطلب منا الإقرار من كل القلب بسيادته علينا. فلسنا مُخَلَّصين بـــ "إتّباع يسوع"، بل إننا مطالبون بإتّباع يسوع لأننا مُخَلَّصون. ويتطلّب الولاء للمسيح أن نسلم إرادتنا له وأن نسعى لتمجيده في كل طرقنا. غالباً ما نسمع هذا القول أن إرادتنا يجب أن تُكسر أو تُقهر، ولكن ذلك ما هو إلا أسوأ علم نفس وأسوأ علم لاهوت. الإنسان ذو الإرادة المقهورة أو المكسورة لا يعود قادراً على اتخاذ قرارات محددة. أنشد تينسون يقول:

"إراداتُنا ملكُنا،

وإننا إنما نجعلها لك".

وهذا ما يؤكد عليه الكتاب المقدس. علينا أن نسلم إرادتنا طوعياً لذاك الذي بذل نفسه لأجلنا، لكي تكون خدمتنا هكذا مرضية سارة، وطاعتنا مقبولة نحن الذين نبتهج بإرادة الله فوق كل شيء آخر. إننا في حاجة لأن نحترس من أن ندعو يسوع "رباً" إن كنا نستخفّ بوصاياه وأوامره. فبالطاعة نبرهن على محبتنا له (يوحنا ١٤: ١٥). إننا نرى في الطاعة الكاملة عند لاوي العشار، الذي يدعى متى في مكان آخر (متى ٩: ٩– ١٣)، مثالاً عن الصفة التي يجب أن تتميز بها قلبُ كل من رُبحوا إلى المسيح.

"رَأَى لاَوِيَ بْنَ حَلْفَى جَالِساً عِنْدَ مَكَانِ الْجِبَايَةِ". لاوي أو متى، كاتب الإنجيل الأول، كان عضواً في طبقة العشّارين المكروهة المرذولة. لقد كان جابي ضرائب في خدمة روما. وهؤلاء كان اليهود يبغضونهم لأنهم كانوا يقتطعون الضرائب ويسحقون إخوتهم لكي يغتنوا هم أنفسهم. كان هناك مكان جباية ضرائب في كفرناحوم، حيث كان يجب على جميع الصيادين أن يحضروا صيدهم وأن يدفعوا نسبة معينة كضريبة عنه. ولعل لاوي كان مرتبطاً بهذا المنصب. من الواضح أنه كان قد سمع يسوع من قبل واقتنع في قلبه بأنه كان المسيا؛ ولذلك فعندما سمع يسوع يقول له: "«اتْبَعْنِي». قَامَ وَتَبِعَهُ". لقد كانت لديه استجابة سريعة لطلب المسيح.

"وَفِيمَا هُوَ (يسوع) مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِهِ". إذ بدأ لاوي مهنة جديدة أقام وليمةً، دعا إليها الكثير من أصدقائه القدامى، "العشارين والخطاة"، وأيضاً "يسوع وتلاميذه". لقد كانت تلك هي طريقته ليدلي بشهادة تنم عن الولاء الجديد لديه، ولا بد أنها تركت انطباعاً كبيراً لدى زملائه القدامى.

"وَأَمَّا الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ يَأْكُلُ مَعَ الْعَشَّارِينَ وَالْخُطَاةِ". في نظر أولئك المتدينين المتعصبين الشكليين، كان ذلك جريمة وإساءة كبيرة. ولكن أظهر هذا كم كان فهمهم ضعيفاً لطبيعة رسالة يسوع.

"لَمْ آتِ لأَدْعُوَ أَبْرَاراً بَلْ خُطَاةً إِلَى التَّوْبَةِ". كما أن الطبيب يخدم المرضى أكثر من الأصحاء، كذا المسيح جاء ليقدم رسالة النعمة للخطأة المحتاجين أكثر من سعيه وراء أولئك الذين كانوا يتخيلون أنهم صالحون بما فيه الكفاية أمام الله. وفي الواقع، ليس من أحد بارّ (رومية ٣: ١٠)، ولكن كان هناك كثيرون يفتخرون في أنفسهم ببرّ لم يمتلكوه أبداً. ليس من بركة لهؤلاء. الخاطئ المعترف هو من يجد الرحمة.

ثم طُرِح سؤال يتعلق بالصوم. استغل يسوع المناسبة ليكشف حقيقة هامة في هذا الخصوص.

"وَكَانَ تَلاَمِيذُ يُوحَنَّا وَالْفَرِّيسِيِّينَ يَصُومُونَ، فَجَاءُوا وَقَالُوا لَهُ: «لِمَاذَا يَصُومُ تَلاَمِيذُ يُوحَنَّا وَالْفَرِّيسِيِّينَ وَأَمَّا تَلاَمِيذُكَ فَلاَ يَصُومُونَ؟» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «هَلْ يَسْتَطِيعُ بَنُو الْعُرْسِ أَنْ يَصُومُوا وَالْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟ مَا دَامَ الْعَرِيسُ مَعَهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصُومُوا. وَلَكِنْ سَتَأْتِي أَيَّامٌ حِينَ يُرْفَعُ الْعَرِيسُ عَنْهُمْ فَحِينَئِذٍ يَصُومُونَ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. لَيْسَ أَحَدٌ يَخِيطُ رُقْعَةً مِنْ قِطْعَةٍ جَدِيدَةٍ عَلَى ثَوْبٍ عَتِيقٍ وَإِلاَّ فَالْمِلْءُ الْجَدِيدُ يَأْخُذُ مِنَ الْعَتِيقِ فَيَصِيرُ الْخَرْقُ أَرْدَأَ. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَجْعَلُ خَمْراً جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ عَتِيقَةٍ لِئَلاَّ تَشُقَّ الْخَمْرُ الْجَدِيدَةُ الزِّقَاقَ فَالْخَمْرُ تَنْصَبُّ وَالزِّقَاقُ تَتْلَفُ. بَلْ يَجْعَلُونَ خَمْراً جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ جَدِيدَةٍ»" (٢: ١٨– ٢٢).

لقد كان تلاميذ يوحنا وأولئك الفريسيون، الفئة التقليدية المتزمتة من اليهودية، هم الذين أثاروا هذا السؤال عن سبب عدم إتباع تلاميذ يسوع لنمطهم في الصوم. لقد كانت تلكما الجماعتين تفكران بالإمساك عن الطعام في أوقات معينة على أنها أمر يستحق المكافأة والتقدير، أو على الأقل أمر يفيد في الوصول إلى قداسة القلب والحياة. لذلك بدا لهم أن تلاميذ يسوع، من هذه الناحية على الأقل، قد نزلوا إلى مستوى أدنى منهم؛ لكن يسوع أجابهم بأن طرح سؤالاً: "«هَلْ يَسْتَطِيعُ بَنُو الْعُرْسِ أَنْ يَصُومُوا وَالْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟ مَا دَامَ الْعَرِيسُ مَعَهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصُومُوا". والمغزى أنه لم يكن مناسباً لأتباعه أن يتفجّعوا ويندبوا أمام الله وأن يحزنوا في نفوسهم طالما أنه هو نفسه، منبع كل البركة، كان معهم. ولكن يسوع، وقد شبه نفسه بالعريس، أخبر مسبقاً متنبئاً بالوقت الذي سيؤخذ فيه عنهم، فعندها سيصومون بالمعنى الحقيقي للكلمة، إمساكاً عن حماقات وجهالات العالم– ذلك العالم الذي كان سيحتشد ضدهم في معارضة مريرة لتعاليم معلمهم.

علاوة على ذلك، فإن أولئك الذين أثاروا المسألة حول الصوم لم يدركوا أن يسوع كان قد جاء ليقدم نظاماً جديداً بالكلية. ويخبرنا الإنجيل في موضع آخر أن الناموس كان قد أُعطي بموسى، وأنه كانت هناك أشياء كثيرة في الناموس تتعلق بالصوم. ولكن النعمة والحق جاءا بيسوع المسيح. ولم يكن في مخططه أن يدعو الرجال والنساء للخضوع لمبادئ ناموسية تشريعية. فأن يفعل ذلك كان كمن يخيط قطعة قماش جديدة على رداء بالٍ. فهذا سيجعل الشق أسوأ وحسب. أو سيكون كمن يضع خمراً جديدة في زقاق عتيقة. فعندما يبدأ الخمر بالتخمر ستنفجر الزجاجات ويُتلف الخمر. فمن غير الممكن وضع خمر النعمة الجديدة في قوالب وقوانين وتشريعات ناموسية: فأحدهما يبطل الآخر، كما نقرأ في (رومية ١١: ٦): "فَإِنْ كَانَ بِالنِّعْمَةِ فَلَيْسَ بَعْدُ بِالأَعْمَالِ وَإِلاَّ فَلَيْسَتِ النِّعْمَةُ بَعْدُ نِعْمَةً. وَإِنْ كَانَ بِالأَعْمَالِ فَلَيْسَ بَعْدُ نِعْمَةً وَإِلاَّ فَالْعَمَلُ لاَ يَكُونُ بَعْدُ عَمَلاً". بجوابه هذا، ميز ربنا بين ناموسية الماضي والنعمة التي جاء ليكشفها أو ليعلنها. وكان هذا من خلال المقياس الذي أوضحه الحادث الذي تلا ذلك.

"وَٱجْتَازَ فِي السَّبْتِ بَيْنَ الزُّرُوعِ فَابْتَدَأَ تَلاَمِيذُهُ يَقْطِفُونَ السَّنَابِلَ وَهُمْ سَائِرُونَ. فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «ٱنْظُرْ. لِمَاذَا يَفْعَلُونَ فِي السَّبْتِ مَا لاَ يَحِلُّ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ احْتَاجَ وَجَاعَ هُوَ وَالَّذِينَ مَعَهُ كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ اللَّهِ فِي أَيَّامِ أَبِيَاثَارَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَأَكَلَ خُبْزَ التَّقْدِمَةِ الَّذِي لاَ يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلاَّ لِلْكَهَنَةِ وَأَعْطَى الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَيْضاً؟» ثُمَّ قَالَ لَهُمُ: «ٱلسَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ لاَ الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ. إِذاً ابْنُ الإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضاً»" (٢: ٢٣– ٢٨).

بينما كان التلاميذ يسيرون في حقل ذرة في يوم سبت ابتدأوا يقطفون بعض السنابل ويفركونها بأيديهم ويأكلون الحبوب. وكان هذا يتوافق تماماً مع التدبير الذي وضعه الناموس، لأن الله كان قد قال لموسى: "إِذَا دَخَلتَ زَرْعَ صَاحِبِكَ فَاقْطِفْ سَنَابِلَ بِيَدِكَ وَلكِنْ مِنْجَلاً لا تَرْفَعْ عَلى زَرْعِ صَاحِبِكَ»" (تثنية ٢٣: ٢٥). ولكن الفريسيين ما لبثوا أن رأوا خطأً في سلوك التلاميذ لأنهم كانوا يستفيدون من هذا التدبير في يوم السبت، ولذلك اعترضوا في الحال، قائلين: "ٱنْظُرْ. لِمَاذَا يَفْعَلُونَ فِي السَّبْتِ مَا لاَ يَحِلُّ؟" لم يكن في الناموس أي شيء يعلن أن هذا التصرف يتناقض مع أي شيء أمر به الله، ولكنهم كانوا قد أضافوا تقاليد كثيرة جداً إلى الناموس حتى أن التلاميذ بدوا وكأنهم يخالفون وصية أو مبدأ إلهياً. رداً عليهم، لفت يسوع انتباههم إلى ما فعله داود عندما كان هو ورجاله جياعاً وجاؤوا إلى بَيْتَ اللَّهِ فِي أَيَّامِ أَبِيَاثَارَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ. فقد طلب داود طعاماً له ولأتباعه. فأجاب أَخِيمَالِكَ الكاهن، والد أَبِيَاثَارَ، أنه ما كان لديهم خبزٌ سوى خبز التقدمة الذي أُخِذَ من المائدة المُقَدَّسة وكان مخصصاً لإطعام الكهنة (لاويين ٢٤: ٩؛ ١ صموئيل ٢١: ٦). ونزولاً عند طلب داود، على كل حال، أُعطيَ هذا الخبز للرجال الجياع، ولم تحل عليهم أية دينونة من جراء ذلك. عندما رُفِضَ خادم الله الممسوح كان من المهم أن يُصار إلى خدمته وخدمة حاجات أتباعه أكثر من الحفاظ الدقيق والشكلي على نظام خيمة الاجتماع، لأن البشر في نظر الله هم، أولاً وأخيراً، أهم من الطقوس. وكانت هذه هي الحالة هنا. فأعلن يسوع أن "ٱلسَّبْت إِنَّمَا جُعِلَ لأَجْلِ الإِنْسَانِ لاَ الإِنْسَانُ لأَجْلِ السَّبْتِ؛ و"إِذاً ابْنُ الإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ السَّبْتِ أَيْضاً". بهذه الكلمات، إن كانت لهم أذنان للسمع، كانوا ليفهمون أنه إنما يعلن ألوهيته، إذ مراراً وتكراراً يُقال عن السبت أنه "سبت الرب"، وبما أن يسوع يعلن نفسَه رباً لذاك اليوم (السبت) فهو بالتأكيد يقر بأنه إله اسرائيل المتجلي في الجسد.

لا أريد هنا أن أدخل في الموضوع الحاسم المتعلق بالعبارة "فِي أَيَّامِ أَبِيَاثَارَ". لقد كان هذا مثار جدل وموضع نقاش كبير، ولعلنا لن نفهمه بشكل كامل إلى أن نعرف كما نُعرف. ولكن علينا أن نتذكر أنه كان من الممكن ببساطة لبعض النساخ والكتبة أن يخلطوا بالخطأ بين "أَبِيَاثَار" و"أَخِيمَالِكَ". من جهة أخرى، لعل هناك تعليل إلهي يفسر تنحية الأب جانباً في حين يتم التعريف بالابن على أنه رئيس الكهنة البار في تلك الأيام.

الأصحاح ٣

من جديد نرى الرب في خلاف مع الفريسيين فيما يتعلق بمسألة السبت. إن إعلانه بأن السبت كان تدبيراً مُنعماً من الله لأجل راحة الإنسان ولم يكن يُعنى به أن يزيد من الأثقال عليه بل أن يريحه، لم يأخذ بعين الاعتبار الانطباع الذي سيخلفه هذا عند أولئك الناموسيين التشريعيين الصارمين المتزمتين والماكرين.

"ثُمَّ دَخَلَ أَيْضاً إِلَى الْمَجْمَعِ وَكَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ يَدُهُ يَابِسَةٌ. فَصَارُوا يُرَاقِبُونَهُ: هَلْ يَشْفِيهِ فِي السَّبْتِ؟ لِكَيْ يَشْتَكُوا عَلَيْهِ. فَقَالَ لِلرَّجُلِ الَّذِي لَهُ الْيَدُ الْيَابِسَةُ: «قُمْ فِي الْوَسَطِ!» ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ يَحِلُّ فِي السَّبْتِ فِعْلُ الْخَيْرِ أَوْ فِعْلُ الشَّرِّ؟ تَخْلِيصُ نَفْسٍ أَوْ قَتْلٌ؟». فَسَكَتُوا. فَنَظَرَ حَوْلَهُ إِلَيْهِمْ بِغَضَبٍ حَزِيناً عَلَى غِلاَظَةِ قُلُوبِهِمْ وَقَالَ لِلرَّجُلِ: «مُدَّ يَدَكَ». فَمَدَّهَا فَعَادَتْ يَدُهُ صَحِيحَةً كَالأُخْرَى" (٣: ١– ٥).

كان من بين الحضور في خدمة المجمع في ذلك السبت المعين رجلٌ بائس عاجز بيدٍ يابسة– أي يد صارت مشلولة وعلقة إلى جنبه بدون فائدة.

وإذ كانوا يعرفون قلب يسوع الحنون، عرف منتقدوه أنه من المسلم به أن سيهتم لأمر هذا الرجل؛ وبدلاً من أن يبتهجوا بهذا الدليل على المحبة الإلهية والمراعاة، راحوا يراقبونه بعيون مليئة بالغيرة والحسد ليروا إن كان سيستخدم قدرته الشفائية في يوم السبت، وفي دخيلة أنفسهم كانوا يودون لو يفعل ذلك ليستطيعوا أن يكيلوا له تهمة انتهاك تقليد الشيوخ. هكذا هو قلب الإنسان، يكون خارجياً أو ظاهرياً تقياً ومتديناً، عندما يكون غريباً عن نعمة الله.

يسوع، الذي لم يكن من شيء خفي عليه والذي كان يقرأ أفكارهم ككتاب مفتوح، أمر الرجل المشلول جزئياً بأن "«قُمْ فِي الْوَسَطِ!»". يمكن للمرء أن يتخيل كم كان هذا الرجل ليطيع بتوق ولهفة ورجاء، وهو ينظر إلى يسوع مرتقباً شفاء عجزه.

وهنا طرح الرب السؤال: "«هَلْ يَحِلُّ فِي السَّبْتِ فِعْلُ الْخَيْرِ أَوْ فِعْلُ الشَّرِّ؟ تَخْلِيصُ نَفْسٍ أَوْ قَتْلٌ؟»". ولم يُجبْ أحدٌ. وإذ كان عارفاً بريائهم، نظر حوله إليهم بغضب. لقد كان غضباً مقدساً بسبب ادّعائهم تكريم الله ولا مبالاتهم بحاجات الناس. لقد أحزنت غلاظةُ قلوبهم روحَ يسوع الحانية. ثم أمر الرجل أن يبسط يده. وفي الحال، وإذ نظر بإيمان إلى يسوع، شعر بحياة جديدة تدب في ذلك الطرف المشلول، ومدّها ووجد أنها صارت سليمة وقوية مثل اليد الأخرى.

لعل المرء يفكر أن هكذا إظهار للنعمة والقوة التي كانت في المسيح كانت لتملأ كل قلب بالسرور وتؤدي إلى مديح الله وشكره لافتقاده شعبه على ذلك النحو الرائع؛ ولكن كان لهذا تأثير معاكس على هؤلاء المدافعين الغيورين عن التقاليد البشرية إزاء الإعلان الإلهي.

"فَخَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ لِلْوَقْتِ مَعَ الْهِيرُودُسِيِّينَ وَتَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ. فَانْصَرَفَ يَسُوعُ مَعَ تَلاَمِيذِهِ إِلَى الْبَحْرِ وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْجَلِيلِ وَمِنَ الْيَهُودِيَّةِ وَمِنْ أُورُشَلِيمَ وَمِنْ أَدُومِيَّةَ وَمِنْ عَبْرِ الأُرْدُنِّ. وَالَّذِينَ حَوْلَ صُورَ وَصَيْدَاءَ جَمْعٌ كَثِيرٌ إِذْ سَمِعُوا كَمْ صَنَعَ أَتَوْا إِلَيْهِ. فَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ أَنْ تُلاَزِمَهُ سَفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لِسَبَبِ الْجَمْعِ كَيْ لاَ يَزْحَمُوهُ لأَنَّهُ كَانَ قَدْ شَفَى كَثِيرِينَ حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهِ لِيَلْمِسَهُ كُلُّ مَنْ فِيهِ دَاءٌ. وَالأَرْوَاحُ النَّجِسَةُ حِينَمَا نَظَرَتْهُ خَرَّتْ لَهُ وَصَرَخَتْ قَائِلَةً: «إِنَّكَ أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ!» وَأَوْصَاهُمْ كَثِيراً أَنْ لاَ يُظْهِرُوهُ" (٣: ٦– ١٢).

مظهرين انعدام الضمائر نحو الله، ومع أنهم حريصون جداً على الشكليات المتعلقة بحفظ تقاليدهم ومفاهيمهم المغلوطة عن مشيئة الله فيما يتعلق بحفظ يوم السبت من كل أسبوع، فإن الفريسيين، أنصار التقليد القويم المتزمتين الصارمين، تحالفوا مع الهيرودوسيين، السياسيين الفاسدين في عصرهم، في كيفية القبض على يسوع وإزاحته من الطريق. فهذان الفريقان اللذان هما على طرفي نقيض، التقوا هناك، كما يحدث غالباً عند البشر ذوي وجهات النظر المختلفة، فاتفقوا كلياً في رفضهم للمسيح وتشاوروا فيما بينهم على إهلاكه. هذا هو الشر المحتوم ومقاومة الله في القلب الطبيعي.

ونعلم أن يسوع انصرف من تلقاء ذاته، ومضى مع تلاميذه إلى شاطئ بحر الجليل. وإذ علم الناس بوجوده احتشد جمعٌ غفير، ليس فقط في الجليل نفسها، بل أيضاً من اليهودية ومن مناطق جنوبية شرقية كأدومية، أرض أدوم، وآخرون من الشمال الغربي من مناطق صور وصيداء. لقد انتشرت سمعة يسوع على نطاق واسع. لقد كان أوان ترقب واهتياج تحزري وسط الشعب اليهودي في كل مكان، الذين كانوا يبحثون بثقة عن الظهور الذي سبق التنبؤ به لابن داود الذي طال انتظاره والذي كان ليأتي بالانعتاق والخلاص لإسرائيل. من الواضح أن الأمل بأن يكون يسوع النبي الذي من الناصرة هو المسيا في قلب الحشود الوافرة العدد التي أتت من القريب والبعيد لتسمع كلماته وتعاين أعمال قوته.

لقد كان الحشد الذين ازدحموا حول يسوع وهو واقف على شاطئ ضيق كثيفاً جداً. ولذلك طلب من أحد تلاميذه (نعلم من روايات أخرى أنه بطرس) أن يمنحه الإذن باستخدام قارب الصيد خاصته، الذي كان قد ثبت مرساته بعيداً عن الشاطئ، كمنبر. وإذ وقف في هذه السفينة الصغيرة راح يخاطب الشعب الذين كانوا مشدودين بتوق إلى كلماته. ارتفعت التلال عند الشاطئ في ذلك الجزء من الساحل ذي البحر الصغير الداخل إلى اليابسة كمدرج كبير واسع وهكذا أمكن لصوت المتكلم أن يُسمع بيسر وسهولة لآلاف الناس.

كان هناك كثير من المرضى وسط تلك الجموع، وبع إنهاء خطبته شفى يسوع جميع الذين أتوا إليه. لقد كان إيمانهم كبيراً جداً في قدرته على الشفاء لدرجة أنهم كانوا يمدون أيديهم بلهفة إليه مؤمنين أن لمسة من ردائه ستجلب لهم الانعتاق الذي كانوا يتوقون إليه. ولم يخب أمل أحد. وحتى أولئك الممسوسين بالأرواح النجسة كانوا يتحررون من عبوديتهم، وكانت الأرواح الشريرة تعلن حقيقة ألوهيته. "«إِنَّكَ أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ!»". ولكنه ما كان يستحسن الاعتراف المسموع من تلك القوى الشريرة، ولذلك كان يأمرها أن تكف عن الاعتراف به على ذلك النحو.

"ثُمَّ صَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ وَدَعَا الَّذِينَ أَرَادَهُمْ فَذَهَبُوا إِلَيْهِ. وَأَقَامَ اثْنَيْ عَشَرَ لِيَكُونُوا مَعَهُ وَلْيُرْسِلَهُمْ لِيَكْرِزُوا وَيَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى شِفَاءِ الأَمْرَاضِ وَإِخْرَاجِ الشَّيَاطِينِ. وَجَعَلَ لِسِمْعَانَ اسْمَ بُطْرُسَ. وَيَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ وَجَعَلَ لَهُمَا اسْمَ بُوَانَرْجِسَ (أَيِ ابْنَيِ الرَّعْدِ). وَأَنْدَرَاوُسَ وَفِيلُبُّسَ وَبَرْثُولَمَاوُسَ وَمَتَّى وَتُومَا وَيَعْقُوبَ بْنَ حَلْفَى وَتَدَّاوُسَ وَسِمْعَانَ الْقَانَوِيَّ وَيَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ الَّذِي أَسْلَمَهُ. ثُمَّ أَتَوْا إِلَى بَيْتٍ" (٣: ١٣–١٩).

من بين الكثيرين الذين صاروا تلاميذ ليسوع اختار اثني عشر كانوا على صلة وثيقة به، وكانوا، مع استثناء وحيد، قد قُدِّرَ لهم أن يكونوا شهوداً له بعد موته وقيامته.

"وَأَقَامَ اثْنَيْ عَشَرَ لِيَكُونُوا مَعَهُ وَلِيُرْسِلَهُمْ لِيَكْرِزُوا" (الآية ١٤). ليس الناس هم من يختارون أنفسهم أو يقيمون أنفسهم خداماً للمسيح. هو الذي يختار ويعيّن خاصته (يوحنا ١٥: ١٦). يمكننا القول أن جميع الرسل الاثني عشر هم "أناسٌ قد اختيروا بعناية" (حتى يهوذا)، لأنهم موضع اهتمام الله الخاص. "سُلْطَانٌ عَلَى شِفَاءِ الأَمْرَاضِ وَإِخْرَاجِ الشَّيَاطِينِ" (الأرواح النجسة). لقد كان الاثنا عشر عاجزين بأنفسهم، ولكن الرب قوّاهم ليصنعوا أعمالاً مقتدرة ليثبتوا مصداقية الرسالة التي كانوا سيحملونها إلى إسرائيل.

يظهر اسم سمعان، الذي أعطاه الرب لبطرس، متمايزاً وحده في الآية ١٦.لقد كان بشكل من الأشكال رئيساً للرسل. طبيعة شخصيته المتقدة النشطة وتوهج روحه أهّلته بطريقة خاصة للزعامة والقيادة بعد أن مُنحوا الروح القدس في العنصرة. وكما نعلم، فقد كانت خدمته لليهود بشكل خاص، رغم أنه هو الذي فتح باب الإيمان أمام الأمميين بكرازته بالإنجيل في بيت كورنيليوس. لقد أعطاه يسوع لقب "الصخرة".

يليه في الترتيب "يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ وَجَعَلَ (يسوع) لَهُمَا اسْمَ بُوَانَرْجِسَ (أَيِ ابْنَيِ الرَّعْدِ)". عندما كان يسوع اسماً جديداً لأي شخص، فإنه كان يشير إلى صفة معينة مميزة كان يراها فيه أو كان على وشك أن يخلقها فيه في الأيام اللاحقة. "بُوَانَرْجِسَ" ترجمتها "ابْنَيِ الرَّعْدِ". من الواضح أن هذين الشابين كانا ذوي مزاج انفعالي، تسهل إثارتهما إلى أحكان انفعالية متسرعة، وعلى الأرجح أنهما كانا سرعان ما يلتزمان بقرارات قاطعة حاسمة. كان يعقوب أول واحد بين الاثني عشر الذي وقّع شهادته بدمه. وأما يوحنا، الذي من الواضح أنه كان أصغر واحد في المجموعة، قد عمّر طويلاً بعدهم جميعاً، وبعد معاناة لا تصدق، مات ميتة طبيعية في أفسس في العقد الأخير من القرن الأول في التاريخ المسيحي.

وكان أندراوس شقيق بطرس، وهو الذي أرشد الأخير إلى المسيح، كما نعلم من يوحنا ١: ٤٠–٤٢. الأسماء فَيلُبُّسَ وَبَرْثُولَمَاوُسَ (الذي يُدعى نثنائيل أيضاً) مرتبطين معاً. لقد كانا صديقين قبل أن يلتقيا بيسوع، وفيلبس هو من عرّف الآخر على المخلص. ومتى، المعروف أيضاً باسم لاوي، كان جابي ضرائب في دار جباية الضرائب للرومان في كفرناحوم، ولكنه ترك كل شيء ليتبع المسيح. ولا نعرف شيئاً عن حياة توما الباكرة. أنه معروف كثيراً في ذاكرتنا بسبب إعلانه الذي صرّح به عن شكّه في هوية ذاك الذي قال الآخرون أنه المسيح القائم، ولكن– مع ذلك– اعترف به وعبده رباً وإلهاً عندما ظهر يسوع لهم بعد أسبوع. يَعْقُوب وَتَدَّاوُس (أو يهوذا، غير الإِسْخَرْيُوطِيِّ)، كانا أخوين، وهما ابنا حَلْفَى، ومن الواضح أنهما كانا من أقارب يسوع بحسب الجسد. وسِمْعَانَ الْقَانَوِيَّ، الذي يُعرف في مكان آخر باسم "الغيور"، كان ينتمي إلى جماعة يهودية متطرفة مخرِّبة كانت تعمل بشكل سري، وأحياناً بشكل علني، لأجل تحرير فلسطين من نير الرومان.

آخر تلميذ في القائمة هو يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيّ (الذي من خريوط) الذي حُكِمَ عليه بالخزي إلى الأبد. لقد بدا على أنه "الجنتلمان" من بين التلاميذ الاثني عشر، رجل ثقافة، وقد عُيّنَ ليكون مؤتمناً على صندوق الجماعة الصغيرة، ويكون هكذا، بالتالي، موضع تقدير خاص من قِبَلِ الآخرين، ولكنه، بالحري، كان كاذباً ومنافقاً من البداية. وهو من قال يسوع عنه فيما بعد: "وَاحِدٌ مِنْكُمْ شَيْطَانٌ!".

بعد أن يعطينا مرقس لائحة الأسماء تلك يُسارع إلى إخبارنا عن المزيد من نشاطات وأعمال خادم الله الممسوح.

"فَاجْتَمَعَ أَيْضاً جَمْعٌ حَتَّى لَمْ يَقْدِرُوا وَلاَ عَلَى أَكْلِ خُبْزٍ. وَلَمَّا سَمِعَ أَقْرِبَاؤُهُ خَرَجُوا لِيُمْسِكُوهُ لأَنَّهُمْ قَالُوا: «إِنَّهُ مُخْتَلٌّ!»" (٣: ٢٠، ٢١).

كثيرون أتوا إلى يسوع من أجل الشفاء والتعليم لدرجة أنه بالكاد كان يتسنى ليسوع فرصة للراحة الجسدية. لقد كان مشغولاً جداً طوال الوقت حتى أنه لم يحظ بوقت فراغ أو استراحة هو أو التلاميذ حتى ليتناولوا وجبات طعامهم العادية بهدوء وراحة. وكان أقرباؤه– ويقصد بهم أقرباءه المباشرين– كانوا يخافون حقاً على سلامة قواه العقلية وحاولوا أن يثنوه عن المزيد من الخدمة للوقت الحاضر على الأقل، معتبرين أنه مُخَبّلٌ. ولكنه لم يسمح لأحد بأن يتدخّل في العمل الذي كان قد جاء لينجزه.

"وَأَمَّا الْكَتَبَةُ الَّذِينَ نَزَلُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ فَقَالُوا: «إِنَّ مَعَهُ بَعْلَزَبُولَ وَإِنَّهُ بِرَئِيسِ الشَّيَاطِينِ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ». فَدَعَاهُمْ وَقَالَ لَهُمْ بِأَمْثَالٍ: «كَيْفَ يَقْدِرُ شَيْطَانٌ أَنْ يُخْرِجَ شَيْطَاناً؟ وَإِنِ انْقَسَمَتْ مَمْلَكَةٌ عَلَى ذَاتِهَا لاَ تَقْدِرُ تِلْكَ الْمَمْلَكَةُ أَنْ تَثْبُتَ. وَإِنِ انْقَسَمَ بَيْتٌ عَلَى ذَاتِهِ لاَ يَقْدِرُ ذَلِكَ الْبَيْتُ أَنْ يَثْبُتَ. وَإِنْ قَامَ الشَّيْطَانُ عَلَى ذَاتِهِ وَانْقَسَمَ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَثْبُتَ بَلْ يَكُونُ لَهُ انْقِضَاءٌ. لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَ قَوِيٍّ وَيَنْهَبَ أَمْتِعَتَهُ إِنْ لَمْ يَرْبِطِ الْقَوِيَّ أَوَّلاً وَحِينَئِذٍ يَنْهَبُ بَيْتَهُ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ جَمِيعَ الْخَطَايَا تُغْفَرُ لِبَنِي الْبَشَرِ وَالتَّجَادِيفَ الَّتِي يُجَدِّفُونَهَا. وَلَكِنْ مَنْ جَدَّفَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَيْسَ لَهُ مَغْفِرَةٌ إِلَى الأَبَدِ بَلْ هُوَ مُسْتَوْجِبٌ دَيْنُونَةً أَبَدِيَّةً». لأَنَّهُمْ قَالُوا: «إِنَّ مَعَهُ رُوحاً نَجِساً»" (٣: ٢٢– ٣٠).

إذ عاين بعض الكتبة المعجزات التي اجترحها، وهم قادة للدين كانوا قد نزلوا من أورشليم، راحوا يرقبون ما يجري بعين الحسد والغيرة. وإذ لاحظوا تعاظم تأثيره على عقول الجماهير خشيوا على هيبتهم وسلطتهم. وحتى عندما كانت الأرواح الشريرة تغادر ضحاياها، إذ تطردهم كلمتُه، كان الكتبة والفريسيون يأبون الإيمان بأن روح الله كانت تعمل في ومن خلال يسوع فيشهد له بذلك على أنه المسيا الموعود. فأعلنوا عامدين متعمدين: "«إِنَّ مَعَهُ بَعْلَزَبُولَ وَإِنَّهُ بِرَئِيسِ الشَّيَاطِينِ يُخْرِجُ الشَّيَاطِينَ»". لقد كان هذا دليلاً على مدى قسوة قلوبهم ورفضهم الكامل الكلي لشهادته. وباعتبارهم عمل الروح القدس بأنه عمل رئيس الشياطين فإنهم كانوا يتجاوزون كل الحدود. لقد كانت قلوبهم مُقسّاةً، وفات أوان التوبة بالنسبة لهم.

هذا ما سمّاه البعضُ "الخطيئة التي لا تُغتفر". في الواقع، ما من خطيئة لا تُغفر إن تاب الناس عنها والتجأوا إلى المسيح بالإيمان. ولكن من الممكن أن يخطئ المرء لدرجة يتحجر معها الضمير كالحديد المحمى، وعندها يفقد الإنسان كل رغبة في التوبة ويستسلم إلى وهم وضلال قوي يجعلهم يصدقون الكذبة ويصيرون إلى الهلاك الأبدي. هكذا كان الحال مع هؤلاء الكتبة. لقد رفضوا كل شهادة أعطاها الله على الحق كما تبدّى في يسوع.

لقد كشف الرب كل الشر والحماقة التي في اقتراحهم بأنه كان يطرد الأرواح النجسة بمعونة رئيس الشياطين عندما قال: "كَيْفَ يَقْدِرُ شَيْطَانٌ أَنْ يُخْرِجَ شَيْطَاناً؟" وأوضح قائلاً: "إِنِ انْقَسَمَتْ مَمْلَكَةٌ عَلَى ذَاتِهَا لاَ تَقْدِرُ تِلْكَ الْمَمْلَكَةُ أَنْ تَثْبُتَ". ولا يمكن لبيتٍ منقسمٍ عَلَى ذَاتِهِ أن يَثْبُتَ. كما وأنه لا يمكن الاعتقاد بأن الشَّيْطَان يمكن أن يقوم عَلَى ذَاتِهِ ويسعى لتدمير مملكته. فقيامه بذلك إنما فيه نهاية سلطته على البشر.

لقد كان الشيطان قد وضع يده، كمثل رجل قوي، على هذه الضحايا البائسة المسكينة مستعبداً إياها لسنين إلى أن جاء من هو أقوى منه ليقيّدَه بكلمته ويتلف بيته بذلك. رفض شهادة الروح القدس من قِبَلِ أي شخص كانت تدل على تحالف هذا الشخص كلياً مع الشيطان في هذا الصراع الكبير.

ولذلك أضاف يسوع قائلاً في جلال: "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ جَمِيعَ الْخَطَايَا تُغْفَرُ لِبَنِي الْبَشَرِ وَالتَّجَادِيفَ الَّتِي يُجَدِّفُونَهَا. وَلَكِنْ مَنْ جَدَّفَ عَلَى الرُّوحِ الْقُدُسِ فَلَيْسَ لَهُ مَغْفِرَةٌ إِلَى الأَبَدِ بَلْ هُوَ مُسْتَوْجِبٌ دَيْنُونَةً أَبَدِيَّةً»". وتعليل هذه الخطيئة يأتي في الآية التالية: "لأَنَّهُمْ قَالُوا: «إِنَّ مَعَهُ رُوحاً نَجِساً»".

لم تكن هذه الكلمات بغاية تعذيب النفوس القلقة التي كانت ترغب بصدق في معرفة المسيح، بل هي بمثابة منارة متوهّجة تحذّر من خطر التعنت والإصرار على رفض شهادة الروح للمسيح، إلى أن يصل الوجدان المتقسّي إلى مرحلة لا يعود قادراً معها إلى التجاوب مع رسالة الإنجيل.

"فَجَاءَتْ حِينَئِذٍ إِخْوَتُهُ وَأُمُّهُ وَوَقَفُوا خَارِجاً وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَدْعُونَهُ. وَكَانَ الْجَمْعُ جَالِساً حَوْلَهُ فَقَالُوا لَهُ: «هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ خَارِجاً يَطْلُبُونَكَ». فَأَجَابَهُمْ قَائِلاً: «مَنْ أُمِّي وَإِخْوَتِي؟» ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى الْجَالِسِينَ وَقَالَ: «هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللَّهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي»" (٣: ٣١– ٣٥).

أقرباء يسوع، بمن فيهم أمه التي من الواضح أنها ما كانت قد فهمت بعد بشكل كامل طبيعة ومصير ابنها الذي حبلت به بأعجوبة، أرسلوا رسولاً يطلب منه أن يأتي إليهم، في حين وقفوا على الأرجح على طرف الحشد. وفي جوابه أظهر الرب كيف أن كل العلاقات الطبيعية المجردة كان يجب أن تحل محلها علاقات ذات طابع روحي. لقد سأل: "«مَنْ أُمِّي وَإِخْوَتِي؟»". ثم، وإذ راح ينظر إلى الوجوه التواقة المحيطة به والذين كانوا يصغون إلى كلماته بكل جوارحهم، قال: "«هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي لأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ اللَّهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي»". وهكذا أكّد على الحقيقة العظيمة التي كشفها لنيقوديموس: "اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ" (يوحنا ٣: ٦). إنها ولادة جديدة تتجلى في إطاعة الكلمة التي تأتي بالمرء إلى علاقة أبدية مع ربنا يسوع المسيح.

يجدر بنا أن نلاحظ أن مرقس، وبتوجيه الروح القدس، لم يُرشَد لأن يدوّن الأحداث في حياة وخدمة يسوع بحسب ترتيبها الزمني الكرونولوجي، بل بالأحرى بترتيب أدبي جميل، فيه يربط معاً حقائق وتعاليم معينة تركز على مبادئ بارزة رائعة.

الأصحاح الرابع

لقد كان استخدام الرب للأمثال له هدف مضاعف. لقد أوضح عدة حقائق عميقة وهامة بهذا الشكل لكي يختبر صدق واهتمام سامعيه. فإن كانوا فعلاً مهتمين سيسعون ليحصلوا على معنى القصة، وهكذا يصبحون باحثين جديين عن الحقيقة. وإن كانوا لا مبالين فإنهم سوف لن يُبدوا المزيد من الانتباه، وهكذا سيستمرون في حياتهم اللا مبالية المهملة، مقسّين قلوبهم ضد الحق (متى ١٣: ١١– ١٥؛ لوقا ٨: ١٠). ولكن عندما تقلق أو تتحرك ضمائر مستمعيه فإنها ستجد أن هذه الأمثلة التوضيحية الحيوية قد ثبَّتت في أذهانهم الحقائقَ العظيمة التي كان يسوع يعلّمها، تاركةً انطباعاً يتعذّر محوه عليهم (متى ١٣: ١٦، ١٧). لقد كان ربنا أمير الكارزين والوعّاظ، ونعلم أنه "بِدُونِ مَثَلٍ لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُهُمْ" (متى ١٣: ٣٤). إن الفكر البشري مركب بطريقة تجعله يتلقى التعليم بيسر أكثر إذا كان من خلال أمثلة توضيحية ملائمة أكثر منها من مجرد بسط للفرضيات والجدليات والتعاريف. لقد أحسن سبيرجن القول بأن "العظة هي البيت؛ والأمثلة التوضيحية هي النوافذ التي تجعل النور يدخل". أولئك الذين يعتمدون كلياً على الحقيقة المجردة أو النظرية لكي يصلوا إلى قلوب مستمعيهم ويحركوا ضمائرهم هم على الأرجح سيخفقون في تحقيق رغباتهم الجدية أكثر من أولئك الذين يجعلون أحاديثهم وخطبهم تشرق أو تسطع من خلال استخدامهم لحوادث ملائمة منيرة تترع إلى إيضاح العقائد التي يحاولون إيضاحها أو إرسائها. وفي هذا السياق، كما في كل مكان آخر، نرى أن يسوع المسيح هو المثال الأعظم لنا؛ وأتباعه الأوائل، الذين دُوِّنَت أقوالهم ورسائلهم في العهد الجديد استخدموا نفس الطريقة.

إن أمثال الرب يسوع المسيح كانت لافتة بسبب دقتها وأمانتها إلى الطبيعة والواقع والحياة البشرية. لقد استمد أمثلته التوضيحية من تلك الأشياء التي كان مستمعوه على أُلفة بها بشكل كامل، وبهذا أمكنهم أن يتبعوه بكل طيب خاطر، والحوادث المروية ستثبت وترسخ في أذهانهم مع العبر التي يوضحها طالما أن هناك رغبة حقيقية في معرفة ذلك الحق الذي يحرر (يوحنا ٨: ٣٢).

"وَٱبْتَدَأَ أَيْضاً يُعَلِّمُ عِنْدَ الْبَحْرِ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمْعٌ كَثِيرٌ حَتَّى إِنَّهُ دَخَلَ السَّفِينَةَ وَجَلَسَ عَلَى الْبَحْرِ وَالْجَمْعُ كُلُّهُ كَانَ عِنْدَ الْبَحْرِ عَلَى الأَرْضِ. فَكَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَثِيراً بِأَمْثَالٍ. وَقَالَ لَهُمْ فِي تَعْلِيمِهِ: «ٱسْمَعُوا. هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيقِ فَجَاءَتْ طُيُورُ السَّمَاءِ وَأَكَلَتْهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى مَكَانٍ مُحْجِرٍ حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ فَنَبَتَ حَالاً إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمْقُ أَرْضٍ. وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ احْتَرَقَ وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي الشَّوْكِ فَطَلَعَ الشَّوْكُ وَخَنَقَهُ فَلَمْ يُعْطِ ثَمَراً. وَسَقَطَ آخَرُ فِي الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَأَعْطَى ثَمَراً يَصْعَدُ وَيَنْمُو فَأَتَى وَاحِدٌ بِثَلاَثِينَ وَآخَرُ بِسِتِّينَ وَآخَرُ بِمِئَةٍ». ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ!»" (٤: ١– ٩).

كما لاحظنا سابقاً، لا يتبع مرقس نظام تسلسل زمني مباشر في سرده للأعمال والتعاليم التي أعطاها الرب يسوع أو قام بها. هذا الجزء، الذي يرتبط بـ متى ١٣ يعطينا وصفاً للتعليم بالمثل الذي أعطاه يسوع على شاطئ بحر الجليل في صيف عام ٢٨ م تقريباً بحسب أحدث التقديرات التاريخية.

"دَخَلَ السَّفِينَةَ وَجَلَسَ عَلَى الْبَحْرِ". كانت الأرض مرتفعة قليلاً في مكان معين من شاطئ بحر الجليل حيث جرى هذا الحادث؛ وهكذا أمكن للرب يسوع أن يجلس في قارب صيادي السمك ويواجه الجمهور أو

الحشد الواقف أمامه والذين كانوا يجلسون بشكل مريح أو يقفون وكأنهم في مدرج طبيعي، وهكذا يتمكن الجميع من سماع صوت المعلم، الذي اجتذبتهم فيه رسالته وشخصيته.

"كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَثِيراً بِأَمْثَالٍ". هذه الأمثال كانت صورة توضيحية مستمدة من الأشياء التي كان يألفها المستمعون بشكل كامل، وقد استخدمها لكي يستطيعوا أن يتبعوه بيسر وعن طيب نفس إن استمالهم إليه على هذا النحو.

"اسْمَعُوا. هُوَذَا الزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ". من المحتمل أن الجمهور كان بمقدورهم أن يروا شخصاً مثل هذا الزارع الذي يتحدث عنه يسوع على مقربة منهم أو ربما كانوا يرونه في تلك اللحظة أمام أعينهم. إن الزارع يرسم صورة المسيح نفسه في المقام الأول، رغم أن التطبيق يصح على كل كارز بالكلمة.

"سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى الطَّرِيقِ فَجَاءَتْ طُيُورُ السَّمَاءِ وَأَكَلَتْهُ". لا حاجة لأن نُثبِّط أو نُخيِّب إذا ما كان الكثير من البذار يبدو ضائعاً، إذ حتى عندما كان أعظم الزارعين هنا، كان هناك عديدون لم ينتبهوا إلى كلمات النعمة التي تلفظت بها شفاهه المقدسة. لقد كانت قلوبهم قاسية كلياً وفاقدة الإحساس مثلها مثل قارعة الدروب المطروقة بكثرة.

"وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى مَكَانٍ مُحْجِرٍ حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ". إن التربة في هذا المثال قد تبدو مواتية في الظاهر، ولكن لم يكن لها عمق كبير في الأرض. فثمة طبقة من تربة طينية صلبة كانت هناك مما يدل على النقص أو الحاجة إلى التوبة والتمرس في الخبرة أمام الله.

"وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ". حيث لا يكون هناك إيمان راسخ بالله لن يكون هناك تأثيرات دائمة تتبع أو تلي استثارة العواطف المؤقتة.

"وَسَقَطَ آخَرُ فِي الشَّوْكِ .... فَلَمْ يُعْطِ ثَمَراً". على المزارع الحريص أن يتبع النصيحة التي تقول: "احْرُثُوا لأَنْفُسِكُمْ حَرْثاً وَلاَ تَزْرَعُوا فِي الأَشْوَاكِ" (إرميا ٤: ٣؛ هوشع ١٠: ١٢). هذا يتحقق على أفضل وجه في التعامل مع نفوس الأفراد. عند مخاطبة الناس في الجماعة بالضرورة سيكون هناك كثيرون منشغلين جداً بالقضايا الدنيوية ولذلك لن تجد البذرة الجيدة مكاناً ولو صغيراً لتستقر فيه عندهم.

"وَسَقَطَ آخَرُ فِي الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ فَأَعْطَى ثَمَراً يَصْعَدُ وَيَنْمُو". إن الأرض الجيدة تدل على القلوب التي أعدها الله لتتلقى بذرة الإنجيل، رغم أن النفوس لم تكن جميعاً لتثمر على نفس النحو. الكثير يعتمد على كلٍّ من عُمق عمل الروح في الإقناع وزرع الإيمان قبل الاهتداء والزمن الذي تستغرقه حراثة النفس فيما بعد.

"«مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ!»". وهكذا بهذه الطريقة الجليلة، يسترعي الرب انتباهنا. من السهل أن نصغي فقط بآذاننا الظاهرة الخارجية وهكذا نخفق في أن إيصال الرسالة إلى القلب. بالنسبة لأولئك الذين لديهم آذان للسمع ويرغبون أن يفهموا مثال يسوع بيسر وسهولة أعطى الرب نفسه شرحاً كاملاً لما قاله.

"وَلَمَّا كَانَ وَحْدَهُ سَأَلَهُ الَّذِينَ حَوْلَهُ مَعَ الاِثْنَيْ عَشَرَ عَنِ الْمَثَلِ فَقَالَ لَهُمْ: «قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا سِرَّ مَلَكُوتِ اللَّهِ. وَأَمَّا الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ فَبِالأَمْثَالِ يَكُونُ لَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ لِكَيْ يُبْصِرُوا مُبْصِرِينَ وَلاَ يَنْظُرُوا وَيَسْمَعُوا سَامِعِينَ وَلاَ يَفْهَمُوا لِئَلاَّ يَرْجِعُوا فَتُغْفَرَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ». ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «أَمَا تَعْلَمُونَ هَذَا الْمَثَلَ؟ فَكَيْفَ تَعْرِفُونَ جَمِيعَ الأَمْثَالِ؟ اَلزَّارِعُ يَزْرَعُ الْكَلِمَةَ. وَهَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ عَلَى الطَّرِيقِ: حَيْثُ تُزْرَعُ الْكَلِمَةُ وَحِينَمَا يَسْمَعُونَ يَأْتِي الشَّيْطَانُ لِلْوَقْتِ وَيَنْزِعُ الْكَلِمَةَ الْمَزْرُوعَةَ فِي قُلُوبِهِمْ. وَهَؤُلاَءِ كَذَلِكَ هُمُ الَّذِينَ زُرِعُوا عَلَى

الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ: الَّذِينَ حِينَمَا يَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ يَقْبَلُونَهَا لِلْوَقْتِ بِفَرَحٍ وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ أَصْلٌ فِي ذَوَاتِهِمْ بَلْ هُمْ إِلَى حِينٍ. فَبَعْدَ ذَلِكَ إِذَا حَدَثَ ضِيقٌ أَوِ اضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ الْكَلِمَةِ فَلِلْوَقْتِ يَعْثُرُونَ. وَهَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ زُرِعُوا بَيْنَ الشَّوْكِ: هَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ وَهُمُومُ هَذَا الْعَالَمِ وَغُرُورُ الْغِنَى وَشَهَوَاتُ سَائِرِ الأَشْيَاءِ تَدْخُلُ وَتَخْنُقُ الْكَلِمَةَ فَتَصِيرُ بِلاَ ثَمَرٍ. وَهَؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ زُرِعُوا عَلَى الأَرْضِ الْجَيِّدَةِ: الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْكَلِمَةَ وَيَقْبَلُونَهَا وَيُثْمِرُونَ وَاحِدٌ ثَلاَثِينَ وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ مِئَةً»" (٤: ١٠– ٢٠).

على الأرجح أكثر أن ذلك كان في المساء الهادئ بعد انتهاء نشاطات النهار، حيث أن التلاميذ وبعضاً من الآخرين الذين كانوا يتفكرون في قلوبهم بقصة الزارع جاؤوا إلى يسوع على انفراد وسألوه أن يُعطيهم بصيصَ ضوء على معناه. فشرح لهم في الحال المثل مؤكداً لهم أن الرسالة التي كان ليعلنها لم تكن محتجبة عن أولئك الذين أُعطي لهم أن يعرفوا أسرار ملكوت الله؛ أما بالنسبة لأولئك الذين كانوا راضين وقانعين بأن يبقوا في جهل فهو سيعلّمهم بالأمثال دونما شرح لمعناها لعلهم بذلك يمضون في الطريق الذي اختاروه بأنفسهم من العمى واللامبالاة بالحقائق الروحية. فإن لم تكن لديهم رغبة بالتعليم سوف يُتركون في جهلهم. كانت هذه هي دينونة الله العادلة على أولئك الذين يرفضون أن يتحولوا إليه ويجدون بذلك غفراناً لخطاياهم.

من التعبير "سِرَّ مَلَكُوتِ اللَّهِ" يجب أن نفهم الأسرار المتعلقة بالأيام الآتية عندما سيعود الملك المرفوض إلى السماء، ولكن بما أن مبادئ مُلكه قد انتشرت في كل أصقاع الأرض فسوف يكون هناك نظام أرضي حيث سيتعرف الجميع على المسيح على أنه الملك الشرعي الحق، وسيتم الإقرار بكلمته على أنها دستور ملكوته. هذا هو عالم الاعتراف أو الإقرار الذي يدعى عامة باسم العالم المسيحي، والذي يعني، حرفياً، ملكوت المسيح. وفيه يوجد أولئك المؤمنون الحقيقيون وغير الحقيقيين، الذين يقرون بالخضوع لسلطته، سواء أكانوا مولدين حقاً من الله أم لا.

إنه يشرح المثل فيقول أن حبة الحنطة تشير إلى الكلمة– أي الحق الذي جاء ليعلنه. المستمعون على قارعة الطريق هم أولئك الذين لم يختبروا أبداً الأمور الروحية. إنهم يسمعون الكلمة بأذنهم الخارجية، ولكنهم تحت سيطرة الشيطان لدرجة أنه يزيلُ كلَّ اعتبار للحبة المزروعة في قلوبهم. أما المستمعون في الأرض الصخرية فيبدو أنهم أظهروا برهاناً على إيمان حقيقي ولكنهم مثل السيد "بليابل" في كتابات "بنيان"، اقتنعوا بسهولة بأن يقدموا اعترافاً مسيحياً ثم تخلوا عن ذلك بسهولة عندما نشأت الصعوبات أمامهم. إنهم يزلون ويتعثرون لأنهم ليس لديهم أصل في أنفسهم.

المستمعون في الأرض ذات الأشواك هم الذين يتلقّون ظاهرياً الكلمة ولو بسرور وفرح، ولكن السعي إلى الثروة والرغبة بالأشياء المادية الدنيوية تخنق الكلمة فتصبح عقيمة الثمر.

المستمعون في الأرض الجيدة هم ليس فقط أولئك الذين يسمعون الكلمة بل أيضاً يتلقونها بإيمان في قلوبهم؛ وهؤلاء يأتون بثمر لله، وبذلك يُظهرون حقيقية اعترافهم. صحيح أنهم ليسوا جميعاً يُثمرون بنفس الدرجة؛ ولكن الجميع يحملون ثمراً إلى حد ما: وَاحِدٌ ثَلاَثِينَ وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ مِئَةً.

في تأملنا لعمل الكرازة بالإنجيل علينا أن نأخذ بعين الاعتبار هدف الله المبارك في النعمة وحالة قلوب الناس الذين تأتي إليهم الرسالة. بالنسبة للبعض إنها مسألة ليست في محلها. فهم لا مبالين بها من البداية ولن يهتموا بالمسألة أبداً. والبعض يهتمون لفترة من الزمن. فتتحرك عواطفهم ولكن ليس من عمقِ اختبارٍ لديهم.

آخرون أيضاً لديهم درجة من الاهتمام، ولكنهم أناس ذوي فكر مزدوج. إنهم يودون أن يستفيدوا على أكمل وجه من كلا العالمين، ولذلك فإنهم لا يعطون الأمور الروحية الأهمية الأولى. آخرون، وقد أعدهم الروح القدس بعلمه الإقناعي الإيماني، يتشوقون لمعرفة طريق الحياة، وبذلك يقتبلون "بِوَدَاعَةٍ الْكَلِمَةَ الْمَغْرُوسَةَ" (يعقوب ١: ٢١)، ويثمرون لله.

بعد هذا الشرح الذي يقدمه الرب يسوع فإنه يقدم مزيداً من التعليم مؤكداً على ضرورة وأهمية الصدق وحقيقية الإيمان.

"ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «هَلْ يُؤْتَى بِسِرَاجٍ لِيُوضَعَ تَحْتَ الْمِكْيَالِ أَوْ تَحْتَ السَّرِيرِ؟ أَلَيْسَ لِيُوضَعَ عَلَى الْمَنَارَةِ؟ لأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ خَفِيٌّ لاَ يُظْهَرُ وَلاَ صَارَ مَكْتُوماً إِلاَّ لِيُعْلَنَ. إِنْ كَانَ لأَحَدٍ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ!». وَقَالَ لَهُمُ: «انْظُرُوا مَا تَسْمَعُونَ! بِالْكَيْلِ الَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ وَيُزَادُ لَكُمْ أَيُّهَا السَّامِعُونَ. لأَنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ فَالَّذِي عِنْدَهُ سَيُؤْخَذُ مِنْهُ»" (٤: ٢١– ٢٥).

لعلنا نجد في هذه الآيات جزءاً من العظة على الجبل، ولكننا من جهة أخرى قد نفترض أن يسوع قد استخدم مراراً وتكراراً هذه الاستعارات نفسها ليشدد على الحقيقة في رسائله.

إن الشمعة أو السراج لا تُخفى تحت المكيال (وعلى هذا دلالة على الانشغال بالعمل)، ولا تحت السرير (وهذا يدل على محبة الراحة والطمأنينة)، ولكنها تُوضع على منارة لكي تضيء على كل من في المترل. المعنى واضح. إن كنا نعترف بانتمائنا وولائنا للمسيح فإننا لا ينبغي أن نسمح لمتطلبات العمل أو الرغبات الأنانية من أي نوع كانت من أن تعرقل أو تعيق شهادتنا الصادقة له ذاك الذي نقر بأنه مخلصنا وربنا.

ما هو غير حقيقي وصادق سيظهر عاجلاً أم آجلاً. ما من شيء يمكن أن يخفى عن عين الرب المقدسة تلك التي ترى كل الأشياء، ولا تبقى سراً عنه ذاك الذي يعرف أعمق أفكارنا ونوايا قلبنا. كل شيء سينكشف تحت ضوء كرسي دينونته أو قضاءه الواضح. فيالسعادتنا إن كنا من بين أولئك الذين لهم آذان للسمع، فنبدي التفاتة إلى كلماته.

هنا يُوجّه إلينا تحذير لأن نكون حريصين ومهتمين بما نسمع وكيف ندين ونحكم ونعقل الأمور، لأننا نحن سوف نُعامل كما نعامِل الآخرين؛ وكما نسمع بالإيمان حق الله، فإن معرفتنا سوف تزداد. إنها شريعة ذلك الملكوت بأنه من يستخدم ما لديه على نحو حسن يُزاد له الكثير وذاك الذي ليس له سوى إقرار فارغ سوف يجرد حتى من ذلك في نهاية الأمر.

ثم نجد تدويناً لمثلين آخرين نجدهما في متى ١٣ ولكن ليس بنفس الترتيب، إلا أنهما مرتبطان ببعضهما من ناحية المغزى أو المعنى.

"وَقَالَ: «هَكَذَا مَلَكُوتُ اللَّهِ: كَأَنَّ إِنْسَاناً يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْضِ وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلاً وَنَهَاراً وَالْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ لأَنَّ الأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلاً نَبَاتاً ثُمَّ سُنْبُلاً ثُمَّ قَمْحاً مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ. وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرُ فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ». وَقَالَ: «بِمَاذَا نُشَبِّهُ مَلَكُوتَ اللَّهِ أَوْ بِأَيِّ مَثَلٍ نُمَثِّلُهُ؟ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مَتَى زُرِعَتْ فِي الأَرْضِ فَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُورِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ. وَلَكِنْ مَتَى زُرِعَتْ تَطْلُعُ وَتَصِيرُ أَكْبَرَ جَمِيعِ الْبُقُولِ وَتَصْنَعُ أَغْصَاناً كَبِيرَةً حَتَّى تَسْتَطِيعَ طُيُورُ السَّمَاءِ أَنْ تَتَآوَى تَحْتَ ظِلِّهَا»" (٤: ٢٦– ٣٢).

"هَكَذَا مَلَكُوتُ اللَّهِ: كَأَنَّ إِنْسَاناً يُلْقِي الْبِذَارَ عَلَى الأَرْضِ". إن الكرازة بالكلمة هي زرع البذار، التي بها ينتشر ملكوت الله، بمعناه الروحي، في كل العالم. "اسْتَحْسَنَ اللهُ أَنْ يُخَلِّصَ الْمُؤْمِنِينَ بِجَهَالَةِ الْكِرَازَةِ" (١ كورنثوس ١: ٢١).

"الْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو وَهُوَ لاَ يَعْلَمُ كَيْفَ". كما أن سر الحياة في البذرة متعذرٌ فهمه، والذي يؤدي إلى نمو النبات، كذا تماماً هي أعجوبة الولادة الجديدة (يوحنا ٣: ٦– ٨).

"أَوَّلاً نَبَاتاً ثُمَّ سُنْبُلاً ثُمَّ قَمْحاً مَلآنَ فِي السُّنْبُلِ". إن قانون النمو في العالم الطبيعي يشكل صورة عن النمو بالنعمة وفي فهم الحقائق الروحية. إن الناس لا يصبحون فجأة قديسين ناضجين. بينما نَخْلص في لحظةٍ عندما نؤمن بالرب يسوع، يأخذ نمونا مدة سنوات. وبمقدار ما نتمثل الحق بدراسة الكلمة، والصلاة، والتكرس للمسيح نأتي بثمار للكمال. "وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ الثَّمَرُ فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ الْمِنْجَلَ لأَنَّ الْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ". فالمزارع العظيم إذاً يُعنى بحقوله المحروثة (١كورنثوس ٣: ٩) إلى أن يصير المحصول على أفضل حال– فعندها يجني الثمار التي طالما انتظرها بصبر وأناة (يعقوب ٥: ٧).

"بِمَاذَا نُشَبِّهُ مَلَكُوتَ اللَّهِ أَوْ بِأَيِّ مَثَلٍ نُمَثِّلُهُ؟" هنا كان الرب يسوع يوشك على أن يستخدم مثلاً توضيحياً مختلفاً تماماً ليصور وجهة أو مظهراً من الملكوت كما سيكون عليه عندما يكون قد مضى إلى الآب– هذا الجانب المختلف تماماً في الواقع عن الصورة الأولى لحقل الحنطة.

"مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مَتَى زُرِعَتْ فِي الأَرْضِ فَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ الْبُزُورِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ". ليس الواقع أنه ليس هناك بذور أصغر من حبة الخردل، ولكن في بستانٍ مليءٍ بالأعشاب تكون بذرة الخردل هي الأصغر حجماً على الإطلاق. هذه تصور لنا البداية الصغيرة والتي تبدو ضئيلة وغير هامة لملكوت الله في العالم الذي سيلي صعود ابن الإنسان إلى يمين الآب.

"تَصْنَعُ أَغْصَاناً كَبِيرَةً". إن شجرة الخردل هي أكبر جميع البقول، وتمثّل على نحو ملائم الملكوت كقوة ينبغي أن يُحسب حسابها على الأرض. بمعنى آخر، إنها تؤسس لذاك الذي رآه الرب مسبقاً على أنه العالم المسيحي الذي سيأتي– ألا وهو مجتمع واسع يشتمل على الجميع حيث "طيور السماء"، كما يخبرنا النص، هي ممثلة لإبليس وزبانيته (متى ١٣: ١٩؛ مرقس ٤: ١٥؛ لوقا ٨: ١٢)، طيور السماء هذه التي تجد فيها ملجأً تختبئ فيه. إن طيور السماء، التي كانت منشغلة جداً في تبديد البذار الجيدة في المثل الأول، هي الآن محتجبة مختبئة في أغصان شجرة الخردل. كم كان الرب عارفاً بالمسار الذي ستسير عليه الأحداث! إن نمو شجرة الخردل التي تمثل الكنيسة المعترفة يبدو حسناً لبعض الوقت، ولكن الطابع السريع الزوال سرعان ما سيظهر أو يتجلى.

آراء متغايرة في الملكوت:

بالكاد يمكن أن يوجد فارق كبير في النظر إلى ملكوت الله في حالته السرية الحالية عنه في التمييز الذي يوضحه ربنا في هذين المثلين. حقل الحنطة فيه آلاف مؤلفة من السيقان، وهي تتشابه مع بعضها بشكل أو بآخر، وتختلف عن بعضها في ثقل رأس البقول. هذا هو ما ينبغي أن تكون عليه كنيسة الله في العالم. شجرة الخردل هنا هي، بمعنى من المعاني، محاكاة لشجرة الأرز في لبنان (حزقيال ٣١: ٣– ٦) أو شجرة بابل العظيمة، نَبُوخَذْنَصَّرُ (دانيال ٤: ١٠– ١٢). في كلا المثلين، كما في المثلين التوضيحيين الذين أوردهما يسوع،

طيور السماء– أي زبانية الشيطان– تجد مسكناً لها في الأغصان. قد يبدو أنه من غير الممكن للملكوت الله أن يصبح على هذا الشكل. ومع ذلك فإن هذا هو ما تنبأ به الرب يسوع وهذا ما تبين أنه كان على مر العصور جميعها منذ ذلك الحين. "وَبِأَمْثَالٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ هَذِهِ كَانَ يُكَلِّمُهُمْ حَسْبَمَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا وَبِدُونِ مَثَلٍ لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُهُمْ. وَأَمَّا عَلَى انْفِرَادٍ فَكَانَ يُفَسِّرُ لِتَلاَمِيذِهِ كُلَّ شَيْءٍ" (٤: ٣٣، ٣٤). لقد كان يسوع يأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الأخلاقية والروحية لمستمعيه ويعطي الكلمة المناسبة لكل مجموعة. لقد كان يستخدم أمثلةً توضيحية ذات طابع بسيط وعلى أكبر درجة من الوضوح الممكن. "بِدُونِ مَثَلٍ لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُهُمْ". إن أظهروا مزيداً من الاهتمام كان سيسره أن يشرح معنى أي تشبيه رمزي يمكن لمستمعيه أن يستوعبوه. لقد كان يخدم بما فيه حاجات الناس. لم يسعَ أبداً إلى أن يفتن الآخرين أو يبهرهم بـ "كلمات طنانة رنانة"، كما يفعل بعض ممثلي عالم الشر، بل كان يستخدم لغة سهلة للفهم، وكان دائماً على أهبة الاستعداد لأن يعلم أية نفس ساعية وراء المعرفة. وفي كل هذا كان كارزاً ضليعاً، مثالاً عن كل الذين يسعون لخدمته بإعلان كلمته.

"وَقَالَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ: «لِنَجْتَزْ إِلَى الْعَبْرِ». فَصَرَفُوا الْجَمْعَ وَأَخَذُوهُ كَمَا كَانَ فِي السَّفِينَةِ. وَكَانَتْ مَعَهُ أَيْضاً سُفُنٌ أُخْرَى صَغِيرَةٌ. فَحَدَثَ نَوْءُ رِيحٍ عَظِيمٌ فَكَانَتِ الأَمْوَاجُ تَضْرِبُ إِلَى السَّفِينَةِ حَتَّى صَارَتْ تَمْتَلِئُ. وَكَانَ هُوَ فِي الْمُؤَخَّرِ عَلَى وِسَادَةٍ نَائِماً. فَأَيْقَظُوهُ وَقَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ أَمَا يَهُمُّكَ أَنَّنَا نَهْلِكُ؟» فَقَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيحَ وَقَالَ لِلْبَحْرِ: «اسْكُتْ. ابْكَمْ». فَسَكَنَتِ الرِّيحُ وَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ: «مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ هَكَذَا؟ كَيْفَ لاَ إِيمَانَ لَكُمْ؟» فَخَافُوا خَوْفاً عَظِيماً وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ هَذَا؟ فَإِنَّ الرِّيحَ أَيْضاً وَالْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ!»" (٤: ٣٥– ٤١).

"«لِنَجْتَزْ إِلَى الْعَبْرِ»". كل شيء كان مستقراً في ذهنه. لم يقترح أن يحاولوا أن يصلوا إلى الطرف الآخر من البحيرة، التي كانت كُورَةِ الْجَدَرِيِّينَ (٥: ١)، بل قال بأن يجتازوا إلى الأمام وحسب. لو تذكّروا هذه الكلمات فيما بعد لأدركوا أنه ما من ريح كانت لتغير مخططاته لهم وله.

"وَأَخَذُوهُ كَمَا كَانَ فِي السَّفِينَةِ". لقد كان يشفي ويعلم طوال النهار. ولا شك أنه كان متعباً جداً جسدياً عندما استقبلوه في القارب الذي كان سيُقلّه عبر البحيرة. لاحظ القول أنه كَانَتْ مَعَهُ أَيْضاً "سُفُنٌ أُخْرَى صَغِيرَةٌ". "فَحَدَثَ نَوْءُ رِيحٍ عَظِيمٌ فَكَانَتِ الأَمْوَاجُ تَضْرِبُ إِلَى السَّفِينَةِ". بالنسبة للعين الطبيعية، كانت الأوضاع قد صارت خطيرة جداً. ولكن الرب يسوع المسيح كان نائماً في سلام في حين أن العاصفة كانت هائجة. "«يَا مُعَلِّمُ أَمَا يَهُمُّكَ أَنَّنَا نَهْلِكُ؟»". في خوفهم التفت التلاميذ غريزياً إلى الرب يسوع وأيقظوه من نومه الخفيف بصراخ قلقهم وانزعاجهم. بالطبع كان يهتم لأمرهم، ولكنهم لو عرفوا ذلك لكانوا سيشعرون بالأمان في العاصفة تماماً كما في الجو الصحو عندما كان في السفينة معهم.

"فَقَامَ وَانْتَهَرَ الرِّيحَ وَقَالَ لِلْبَحْرِ: «اسْكُتْ. ابْكَمْ»". في كل عرضه لسلطته الخالقة وبهدوء، أمر الريح بأن تهدأ، والأمواج الغاضبة المتلاطمة، التي كانت ترتطم بالمركب ككلاب هائجة، أن "تبكم"، كما ورد في الترجمة، وما لبثت العناصر أن أطاعت سيدها، وخمدت العاصفة. إنه لا يزال يتكلم على هذا النحو إلى القلوب المضطربة والنفوس القلقة المتزعزعة.

"«مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ هَكَذَا؟ كَيْفَ لاَ إِيمَانَ لَكُمْ؟»". لقد كان الأمر وكأنه كان يود أن يذكّرهم بكلماته قبل أن بدأوا رحلته. لقد قال لهم أن يجتازوا إلى العبر– ولم يقصد أن يغرقوا وسط البحر. كان من المفترض أن يكون هذا كافياً ليُهدّئ مخاوفهم، وكان هذا الواقع، لو أنهم كانوا على إيمان حقيقي بكلماته.

"فَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ هَذَا؟ فَإِنَّ الرِّيحَ أَيْضاً وَالْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ!»". ومع ذلك لم يفهموا بعد سرَّ شخصه، ولذلك تساءلوا فيما بينهم في حيرة وارتباك عن حقيقة هويته. فكل الطبيعة كانت تعترف بقدرته. أكان من المعقول أن لا يكون هو الله متجسداً؟

من أثار العاصفة؟ هل كان هبوب العاصفة ذلك المساء على بحر الجليل مجرد ظاهرة طبيعية، أم كانت بفعل الشيطان؟ يبدو أنها كانت محاولة من قبل العدو (الشيطان) ليُهلك الرب يسوع المسيح قبل أن يحقق الرسالة التي جاء لأجلها إلى الأرض. ولكن تماماً، وكما حدث عندما حاول سكان الناصرة أن يلقوا به من فوق الجرف ويقتلوه ولكن عجزوا عن أن يحققوا هدفه (لوقا ٤: ٢٨، ٢٩)، هكذا، في هذه الحادثة أيضاً، هُزم الشيطان ثانية. لم تكن لديه قوة أو قدرة على أن يُنهي حياة ابن الله. فتلك الحياة كانت لتُبذل فقط طواعية بإرادة المسيح نفسه بما يتوافق مع مشيئة الآب (يوحنا ١٠: ١٧، ١٨).

الجانب الأعجوبي من حياة وشهادة يسوع المسيح:

العقلانيون ومعلمو المسيحية المتعقلون جميعهم مولعون بمحاولة تفسير الأشياء اللافتة المنسوبة إلى الرب يسوع في الأناجيل على أسس طبيعية مجردة. ومثال عن هذا النوع من التفكير والتحاجج نجده في الكتاب الواسع الانتشار بين القراء، "الناصري". ولكن هدف الروح القدس الواضح من تدوين هذه الأعمال المعجزية هو أن يُظهر لنا أن ذاك الذي كان يعمل على ذلك النحو المعجزي ليشفي وليساعد البشرية المتألمة التي تعاني إنما كان هو الله نفسه وقد نزل إلى الأرض كإنسان. لا حاجة لتفسيرات وتأويلات بعيدة الاحتمال إذا فكّرنا في من كان ذاك الذي قام بهذه الأشياء. إن كل ذلك هو تجليات عادية طبيعية كاملة للقدرة الإلهية التي عملت استجابة لحاجات الناس. فأن ننكر المعجزات يعني أن نقلل من شأن ذاك الذي اجترحها.

يسوع المسيح ربنا هو سيد كل الظروف وهو كفؤٌ ومؤهل لكل حالة طارئة. الرياح والأمواج تطيعه؛ والأرواح الشريرة تهرب أمامه؛ الوباء والمرض والموت تتبدد عندما يظهر. ما من شيء يمكن أن يصمد أمام قدرته. إن له كل السلطة في السماء وعلى الأرض. والأمر العجيب الذي لنا أن نعرفه هو أنه مخلصنا وفادينا. نحن الذين آمنّا به يُطلب إلينا الآن أن نلقي عليه كل همومنا واهتماماتنا لأنه يُعنى بنا. إن الصعوبات ما هي إلا فرص أمامه ليُظهر قدرته. والحالات الطارئة التي تصيبنا تعطينا الامتياز للبرهان على اهتمامه المحب بنا ونحن نثق بنعمته ونتكل على قدرته.

الأصحاح الخامس

يأتي القسم الأول من هذا الإنجيل إلى خاتمته مع هذا الأصحاح الخامس. طوال هذا الإصحاح نجد عبد يهوه يخدم بالنعمة حاجات البشر، كاشفاً عن محبة ذاك الذي أرسله، ولكنه كان يلاقي معارضة مطّردة ورفضاً متزايداً باستمرار من جهة رؤساء اسرائيل رغم أن عامة الشعب كانوا يصغون إليه بسرور. ولكن حتى بين أولئك لم يكن هناك كثيرون ممن اقتبلوا الرب بالإيمان واعترفوا بيسوع رباً حقاً لهم.

في هذا الإصحاح نراه يُظهر قدرته وقوته على الأرواح الشريرة، والأمراض، والموت. نراه أولاً في كُورَةِ الْجَدَرِيِّينَ على الضفة الغربية من البحيرة، أو بحر الجليل.

"وَجَاءُوا إِلَى عَبْرِ الْبَحْرِ إِلَى كُورَةِ الْجَدَرِيِّينَ. وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ اسْتَقْبَلَهُ مِنَ الْقُبُورِ إِنْسَانٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ كَانَ مَسْكَنُهُ فِي الْقُبُورِ وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَرْبِطَهُ وَلاَ بِسَلاَسِلَ لأَنَّهُ قَدْ رُبِطَ كَثِيراً بِقُيُودٍ وَسَلاَسِلَ فَقَطَّعَ السَّلاَسِلَ وَكَسَّرَ الْقُيُودَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُذَلِّلَهُ. وَكَانَ دَائِماً لَيْلاً وَنَهَاراً فِي الْجِبَالِ وَفِي الْقُبُورِ يَصِيحُ وَيُجَرِّحُ نَفْسَهُ بِالْحِجَارَةِ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ مِنْ بَعِيدٍ رَكَضَ وَسَجَدَ لَهُ وَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: «مَا لِي وَلَكَ يَا يَسُوعُ ابْنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ! أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ أَنْ لاَ تُعَذِّبَنِي!» لأَنَّهُ قَالَ لَهُ: «اُخْرُجْ مِنَ الإِنْسَانِ يَا أَيُّهَا الرُّوحُ النَّجِسُ». وَسَأَلَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَأَجَابَ قَائِلاً: «اسْمِي لَجِئُونُ لأَنَّنَا كَثِيرُونَ». وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيراً أَنْ لاَ يُرْسِلَهُمْ إِلَى خَارِجِ الْكُورَةِ. وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ الْجَبَلِ قَطِيعٌ كَبِيرٌ مِنَ الْخَنَازِيرِ يَرْعَى فَطَلَبَ إِلَيْهِ كُلُّ الشَّيَاطِينِ قَائِلِينَ: «أَرْسِلْنَا إِلَى الْخَنَازِيرِ لِنَدْخُلَ فِيهَا». فَأَذِنَ لَهُمْ يَسُوعُ لِلْوَقْتِ. فَخَرَجَتِ الأَرْوَاحُ النَّجِسَةُ وَدَخَلَتْ فِي الْخَنَازِيرِ فَانْدَفَعَ الْقَطِيعُ مِنْ عَلَى الْجُرْفِ إِلَى الْبَحْرِ – وَكَانَ نَحْوَ أَلْفَيْنِ فَاخْتَنَقَ فِي الْبَحْرِ. وَأَمَّا رُعَاةُ الْخَنَازِيرِ فَهَرَبُوا وَأَخْبَرُوا فِي الْمَدِينَةِ وَفِي الضِّيَاعِ فَخَرَجُوا لِيَرَوْا مَا جَرَى. وَجَاءُوا إِلَى يَسُوعَ فَنَظَرُوا الْمَجْنُونَ الَّذِي كَانَ فِيهِ اللَّجِئُونُ جَالِساً وَلاَبِساً وَعَاقِلاً فَخَافُوا. فَحَدَّثَهُمُ الَّذِينَ رَأَوْا كَيْفَ جَرَى لِلْمَجْنُونِ وَعَنِ الْخَنَازِيرِ. فَابْتَدَأُوا يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْضِيَ مِنْ تُخُومِهِمْ" (٥: ١– ١٧).

بعبوره البحر، دخل يسوع وتلاميذه إلى منطقة جدارة المحظورة، حيث يعيش عدد وفير مختلط من الناس؛ الكثيرون منهم كانوا منشغلين بما كان اليهود المتزمتون يعتبرونه عملاً غير شرعي أو ناموسي، ألا وهو تربية الخنازير لولائم الأمميين.

قرب المكان الذي أرسى فيه القارب، وعلى النجد المرتفع أعلى الشاطئ، كانت هناك مقبرة، أو مكان فيه قبور عديدة محفورة في الصخر. في هذه المقبرة وبين القبور كان يعيش شخص تلبَّسَه شيطان وكان ذا شخصية عنيفة، بربرية، لا يمكن ترويضها، قد جعلتْها قوى الشيطان التي تملَّكتهُ هكذا. لقد كان يرعب كل منطقة الريف لفترة طويلة؛ ورغم أنه كان غالباً ما يُمسك ويُقيد بالقيود والأغلال إلا أنه كان يكسر قيوده كما لو بقوة فائقة الطبيعة والبشر، وهكذا كان يحرّر نفسه من كل ضبطٍ. نهاراً وليلاً كانت صرخته الغريبة وغير الاعتيادية تُسمع بينما كان يزأر على الجبال مجرّحاً نفسه بالحجارة وهو يصرخ في نوباته المخيفة. إنها صورة مرعبة لإنسان سيطر عليه الشيطان بشكل كامل.

ولكنه سرعان ما عرف قوة يسوع التي تحرر. فعندما رأى الرب وعلى بعدٍ كبير جاء إليه راكضاً وطرح نفسه أمامه، صارخاً بصوت مرتفع: "«مَا لِي وَلَكَ يَا يَسُوعُ ابْنَ اللَّهِ الْعَلِيِّ! أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ أَنْ لاَ تُعَذِّبَنِي!»" رغم أن شفتي الرجل هما اللتان تلفظتا بهذه الكلمات لكن الصوت كان صوت الشياطين التي فيه.

هذه الأرواح الشريرة عرفت يسوع في الحال وما كانت في حاجة لأن تعرف سر طبيعته. لقد أَمَرَ الـــربُّ أن تخرج الروحُ النجسة من الرجل. ثم أمره بأن يعترف باسمه. وكان الجواب مدهشاً: "«اسْـــمِي لَجِئُـــونُ لأَنَّنَـــا كَثِيرُونَ»". كان في هذا إشارة إلى أنه لم يكن هناك روح شريرة واحدة فقط بل عدد كبير من الأرواح تسكن هذا الإنسان البائس المسكين الذي كان قد أرعب الحي لدرجة كبيرة.

ثم يأتي الطلب الغريب من الروح النجسة واستجابة الرب لهذا المطلب، هذا الأمر الذي كان أكثـــر غرابة. فالأرواح النجسة (التي كانت تخشى أن تتحرر من الأجساد بشكل كامل)، هذه الأرواح النجسة طلبت أن تدخل إلى قطيع من الخنازير التي كانت ترعى على مقربة. وإذ تركت جسد الرجل دخلت إلى الخنـــازير. وهذه المخلوقات المرتعبة، وقد جُنت وفقدت السيطرة، اندفعت بعنف من على تلة عالية شديدة الانحـــدار إلى البحر وغرقت. لسنا في حاجة لأن نحاول أن نشرح هذه الظاهرة الغريبة، ولكن لا يمكننـــا إلا أن نفكـــر في إمكانيات الشر عندما ندرك أن شخصاً واحداً كان فيه أرواح شريرة أكثر من ألفي خنزير نجس.

أما الرجل وقد تحرّر، وبعد أن كان متوحشاً وعنيفاً، أصبح الآن لطيفاً وهادئاً. وإذ اهتدى فقد غطى جسده العاري سابقاً وأخذ مكانته في المحبة المتعبدة والامتنان عند أقدام يسوع: لم يعد مخبولاً مجنوناً بل صـــار هادئاً ساكناً الآن وفي كامل قدراته العقلية.

أما وقد أُعلموا من الرعاة (رعاة القطيع) بما حدث، فإن أصحاب الخنازير خرجوا ليروا مـــا جـــرى بأنفسهم. وبدلاً من أن يبتهجوا بشفاء الرجل الممسوس بالروح، كانوا غاضبين بسبب خسارتهم للحيوانـــات النجسة التي كانت تشكل ثروة بالنسبة لهم. وإذ نظروا إلى يسوع على أنه سبب هذه الكارثة، التمسوا منه أن يغادر شواطئهم.

"وَلَمَّا دَخَلَ السَّفِينَةَ طَلَبَ إِلَيْهِ الَّذِي كَانَ مَجْنُوناً أَنْ يَكُونَ مَعَهُ فَلَمْ يَدَعْهُ يَسُوعُ بَلْ قَالَ لَهُ: «اذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ وَإِلَى أَهْلِكَ وَأَخْبِرْهُمْ كَمْ صَنَعَ الرَّبُّ بِكَ وَرَحِمَكَ». فَمَضَى وَابْتَدَأَ يُنَادِي فِي الْعَشْرِ الْمُدُنِ كَمْ صَنَعَ بِهِ يَسُوعُ. فَتَعَجَّبَ الْجَمِيعُ" (٥: ١٨– ٢٠).

"طَلَبَ إِلَيْهِ الَّذِي كَانَ مَجْنُوناً أَنْ يَكُونَ مَعَهُ". ذاك الذي تحرر بطريقة رائعة عجيبة من حالة العبودية والمحنة، في موقف امتنان صادر من قلبه تطلع إلى أن يترك كل شيء ويمضي مع الرب يسوع كما فعل الآخرون. لقد كان هو من أخذ المبادرة.

"فَلَمْ يَدَعْهُ يَسُوعُ بَلْ قَالَ لَهُ: «اذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ وَإِلَى أَهْلِكَ وَأَخْبِرْهُمْ كَمْ صَنَعَ الرَّبُّ بِكَ وَرَحِمَكَ»". لم تكن مشيئة الرب أن يُحصى هذا الرجل من بين الاثني عشر أو حتى السبعين، لقد كان مجال خدمته هو أن يكون في موطنه في المكان حيث كان معروفاً جداً فشهادته للمسيح هناك سوف يكون لها أثر أكبر مما لو سافر خارج دياره.

"فَمَضَى وَابْتَدَأَ يُنَادِي فِي الْعَشْرِ الْمُدُنِ كَمْ صَنَعَ بِهِ يَسُوعُ". إن "الْعَشْرِ الْمُدُنِ" هي اسم كان يُطلق على مجموعة من القرى على الجانب الشرقي من بحر الجليل، وهي نفس المنطقة التي خرج منها أولئك القوم الذين رجوا يسوع أن يغادر شواطيهم. بفضل شهادة هذا الرجل تغير موقف أولئك الناس عندما زار يسوع تلك المنطقة مرة ثانية. لقد استُقبل عندئذ بحفاوة بالغة مميزة (٧: ٣١).

"وَلَمَّا اجْتَازَ يَسُوعُ فِي السَّفِينَةِ أَيْضاً إِلَى الْعَبْرِ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَكَانَ عِنْدَ الْبَحْرِ. وَإِذَا وَاحِدٌ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمَجْمَعِ اسْمُهُ يَايِرُسُ جَاءَ. وَلَمَّا رَآهُ خَرَّ عِنْدَ قَدَمَيْهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيراً قَائِلاً: «اِبْنَتِي الصَّغِيرَةُ عَلَى آخِرِ نَسَمَةٍ. لَيْتَكَ تَأْتِي وَتَضَعُ يَدَكَ عَلَيْهَا لِتُشْفَى فَتَحْيَا». فَمَضَى مَعَهُ وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَكَانُوا يَزْحَمُونَهُ. وَامْرَأَةٌ بِنَزْفِ دَمٍ مُنْذُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وَقَدْ تَأَلَّمَتْ كَثِيراً مِنْ أَطِبَّاءَ كَثِيرِينَ وَأَنْفَقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا وَلَمْ تَنْتَفِعْ شَيْئاً بَلْ صَارَتْ إِلَى حَالٍ أَرْدَأَ – لَمَّا سَمِعَتْ بِيَسُوعَ جَاءَتْ فِي الْجَمْعِ مِنْ وَرَاءٍ وَمَسَّتْ ثَوْبَهُ أَنَّهَا قَالَتْ: «إِنْ مَسَسْتُ وَلَوْ ثِيَابَهُ شُفِيتُ». لِلْوَقْتِ جَفَّ يَنْبُوعُ دَمِهَا وَعَلِمَتْ فِي جِسْمِهَا أَنَّهَا قَدْ بَرِئَتْ مِنَ الدَّاءِ. فَلِلْوَقْتِ الْتَفَتَ يَسُوعُ بَيْنَ الْجَمْعِ شَاعِراً فِي نَفْسِهِ بِالْقُوَّةِ الَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ وَقَالَ: «مَنْ لَمَسَ ثِيَابِي؟» فَقَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: «أَنْتَ تَنْظُرُ الْجَمْعَ يَزْحَمُكَ وَتَقُولُ مَنْ لَمَسَنِي؟» وَكَانَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ لِيَرَى الَّتِي فَعَلَتْ هَذَا. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَجَاءَتْ وَهِيَ خَائِفَةٌ وَمُرْتَعِدَةٌ عَالِمَةً بِمَا حَصَلَ لَهَا فَخَرَّتْ وَقَالَتْ لَهُ الْحَقَّ كُلَّهُ. فَقَالَ لَهَا: «يَا ابْنَةُ إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ. اذْهَبِي بِسَلاَمٍ وَكُونِي صَحِيحَةً مِنْ دَائِكِ»" (٥: ٢١– ٣٤).

عبر الرب وتلاميذه المياه من جدارة إلى كفرناحوم. وكان كثيرون ينتظرونه هنا. ما إن بدأ يعلّمهم حتى تقدم إليه وَاحِدٌ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمَجْمَعِ، اسْمُهُ يَايِرُسُ، وخَرَّ عِنْدَ قَدَمَيْ يسوع، وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيراً أن يأتي معه إلى منزله ليشفي ابنته الصغيرة التي تكاد تفارق الحياة. ونزولاً عند مطلب الأب المضطرب القلق رافقه الرب إلى بيته حيث تبعه جمعٌ كثيرٌ في الطريق.

وفيما هم يسيرون التحقت بالجمع امرأةٌ لديها بلوى. لقد كانت تعاني من نزف دم منذ اثنتي عشرة سنة. ويخبرنا مرقس أنها عانت الأمرّين من أَطِبَّاءَ كَثِيرِينَ، وَأَنْفَقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا لتحصل على الشفاء، وَلَمْ تَنْتَفِعْ شَيْئاً، بَلْ صَارَتْ إِلَى حَالٍ أَرْدَأَ. من يعرف جيداً القيمة الباهظة للعقاقير الدوائية لمعالجة هكذا حالةٍ مَرَضية يفهم تماماً عبارة مرقس المليئة بالتهكم. ما كان أحدٌ ليستطيع أن يستخدم تلك العقاقير المستخلصة المقيتة دون أن يتألم، ومع ذلك لم تكن لها قدرة على أن تشفي أو حتى أن تقدم ولو بعض الارتياح المؤقت للمريض.

إذ سمعت بيسوع، انبعث الأمل في قلب تلك المرأة المريضة، فقالت: "«إِنْ مَسَسْتُ وَلَوْ ثِيَابَهُ شُفِيتُ»". لقد جَاءَتْ فِي الْجَمْعِ ومدّتْ يداً تواقة مرتجفة مِنْ وَرَاءٍ، وفي اللحظة التي مَسَّتْ هدبَ ثَوْبَه الأزرق أدركت أن الأمر قد تمّ. فقد عَلِمَتْ فِي جِسْمِهَا أَنَّهَا قَدْ بَرِئَتْ مِنَ الدَّاءِ.

وللحال وقف يَسُوعُ، والْتَفَتَ بَيْنَ الْجَمْعِ، وَسأَلَ: "«مَنْ لَمَسَ ثِيَابِي؟»" لقد كان يرغب أن تعترف تلك المرأة أمام الجميع بالأعجوبة التي صُنعت لأجل إيمانها. فانبرى التلاميذ لاستنكار سؤال معلمهم مُذكِّرين إياه بأن حشداً كبيراً كان يزحمه؛ فلماذا يسأل عمن لمسه؟ لم يميزوا الفرق بين أن يزحمه الناس وأن يلمسه أحدهم في إيمان.

وإذ شعرت أنه ليس في مقدورها أن تحتجب، تقدمت المرأة إليه وخَرَّتْ أمامه، وأخبرته عن سبب ما فعلته بجرأة كبيرة وعن نتيجة ما حدث. وإذ ابتهج من إيمانها بنعمته وقدرته، فإنه قال لها معزياً ومشدداً: "«يَا ابْنَةُ إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ. اذْهَبِي بِسَلاَمٍ وَكُونِي صَحِيحَةً مِنْ دَائِكِ»". ثم تابع طريقه إلى منزل رئيس المجمع.

"وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ جَاءُوا مِنْ دَارِ رَئِيسِ الْمَجْمَعِ قَائِلِينَ: «اِبْنَتُكَ مَاتَتْ. لِمَاذَا تُتْعِبُ الْمُعَلِّمَ بَعْدُ؟» فَسَمِعَ يَسُوعُ لِوَقْتِهِ الْكَلِمَةَ الَّتِي قِيلَتْ فَقَالَ لِرَئِيسِ الْمَجْمَعِ: «لاَ تَخَفْ. آمِنْ فَقَطْ». وَلَمْ يَدَعْ أَحَداً يَتْبَعُهُ إِلاَّ

بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ. فَجَاءَ إِلَى بَيْتِ رَئِيسِ الْمَجْمَعِ وَرَأَى ضَجِيجاً. يَبْكُونَ وَيُوَلْوِلُونَ كَثِيراً. فَدَخَلَ وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تَضِجُّونَ وَتَبْكُونَ؟ لَمْ تَمُتِ الصَّبِيَّةُ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ». فَضَحِكُوا عَلَيْهِ. أَمَّا هُوَ فَأَخْرَجَ الْجَمِيعَ وَأَخَذَ أَبَا الصَّبِيَّةِ وَأُمَّهَا وَالَّذِينَ مَعَهُ وَدَخَلَ حَيْثُ كَانَتِ الصَّبِيَّةُ مُضْطَجِعَةً وَأَمْسَكَ بِيَدِ الصَّبِيَّةِ وَقَالَ لَهَا: «طَلِيثَا قُومِي». (اَلَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا صَبِيَّةُ لَكِ أَقُولُ قُومِي). وَلِلْوَقْتِ قَامَتِ الصَّبِيَّةُ وَمَشَتْ لأَنَّهَا كَانَتِ ابْنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً. فَبُهِتُوا بَهَتاً عَظِيماً. فَأَوْصَاهُمْ كَثِيراً أَنْ لاَ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِذَلِكَ. وَقَالَ أَنْ تُعْطَى لِتَأْكُلَ" (٥: ٣٥–٤٣).

قبل وصولهم إلى البيت جاء رسولٌ يطلب من يايرس أن يكفَّ عن إزعاج المعلّم. قالوا أنه قد فات الأوان على شفاء الصبية، لأنها توفيت لتوها. ولكن يسوع طمأن قلب الوالد الجزع قائلاً: "«لاَ تَخَفْ. آمِنْ فَقَطْ»". يا لها من كلمات معزية جاءت في وقتها آنذاك! من كان ليمكنه، سواه نفسه، رب الحياة، أن ينطق بهكذا كلمات في وقت بات فيه الأمل مفقوداً وقد تدخل الموت؟ عندما تنضب كل الموارد الطبيعية من بين أيدينا تدخل هذه الكلمات المباركة نفسها إلى أعماق قلبنا فتعطينا حتى في يومنا هذا السلام والطمأنينة والثقة.

"وَلَمْ يَدَعْ أَحَداً يَتْبَعُهُ إِلاَّ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ". هؤلاء الثلاثة يشكلون الحلقة الداخلية من بين مختاريه. سنراهم لاحقاً معه على الجبل، عندما سيتجلى أمامهم (٩: ٢)، ونراهم ثانيةً في بستان الجَثْسَيْمَانِي (١٤: ٣٢، ٣٣).

"فَجَاءَ إِلَى بَيْتِ رَئِيسِ الْمَجْمَعِ وَرَأَى ضَجِيجاً يَبْكُونَ وَيُوَلْوِلُونَ كَثِيراً". لقد لاحظ الرب يسوع المسيح كل ذلك. إن الكثير من الندب والنحيب كان احترافياً رياءً ونفاقاً وتزلّفاً، وهذا ما يزدريه الرب. أما حزن قلب الوالدين فهذا ما كان له وقع شديد على مشاعر يسوع الحانية، وسرعان ما حوَّل حزنَهم إلى فرح.

"لِمَاذَا تَضِجُّونَ وَتَبْكُونَ؟" قال ذلك تقريعاً وتوبيخاً للنادبين المأجورين، الذين ما كانت صرخاتهم وعويلهم يدل على أي إحساس لديهم بالخسران. وبما أن كل حياة هي له، فقد أمكنه أن يعلن بثقة مطلقة: "لَمْ تَمُتِ الصَّبِيَّةُ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ". وتقدم ليوقظها من رقادها.

"فَضَحِكُوا عَلَيْهِ". بالنسبة لهم، لم يكن سوى دجال مشعوذ يدّعي امتلاك قدرات ليست لديه. ولكنه لا يلبث أن يظهر النقيض. فطرد الجميعَ خارجاً من المنزل ما عدا الوالدين والتلاميذ الثلاثة المختارين، ودخل حجرة الموت لينتشل الضحية من براثنه.

"وَأَمْسَكَ بِيَدِ الصَّبِيَّةِ وَقَالَ لَهَا: «طَلِيثَا قُومِي»". لقد تكلم بالآرامية، لغة طفولته في الناصرة. وقد فُسِّرتْ كلماته لنا بمعنى: "يَا صَبِيَّةُ لَكِ أَقُولُ قُومِي"، وحرفياً: "أيها الحمل الصغير، استيقظي".

"وَلِلْوَقْتِ قَامَتِ الصَّبِيَّةُ وَمَشَتْ". لقد كانت الاستجابة سريعة وفورية. ولدهشة الوالدين وفرحهما، رأيا اللون يعود إلى وجنتيها الشاحبتين، ونهضت ابنتهما الحبيبة من مضجعها وأتت إلى ذراعيهما. لقد كَانَتِ ابْنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وتحررها من قبضة الموت أذهل كل من رآها.

"أَوْصَاهُمْ كَثِيراً أَنْ لاَ يَعْلَمَ أَحَدٌ بِذَلِكَ". ما كان يرغب أن يحيونه كمجترح عجائب عظيم. فما قام به كان كرمى ليايرس وزوجته. لم يكن أمراً غايته أن يُذاع. كانت الفتاة التي نهضت تواً من رقادها بحاجة لانتعاش، ولذلك أمر "أَنْ تُعْطَى لِتَأْكُلَ". ما من شيء كان ليدل أكثر أو يقدم برهاناً أوضح من ذلك على حقيقية المعجزة التي تمت في جسدها.

إن الحوادث الأربع الواضحة المميزة في خدمة ربنا يسوع المباركة والمدونة في الجزء الأخير من الأصحاح ٤ والأصحاح ٥، كلها تحمل شهادة على ألوهيته ذاك الذي تنازل بالنعمة ليأخذ مكانة خادم (عبد). في الحادثة الأولى (٤: ٣٥– ٤١)، نرى قوته وقدرته التي تسود على الطبيعة، منتزعاً صرخة انذهال من تلاميذه، "مَنْ هُوَ هَذَا الإنسان؟" والمشهد الثاني يصور قوته وسلطته التي تفوق الشيطان، التي تبدت في تحريره لذاك الإنسان الممسوس بالشياطين، الذي كان ليبقى بسرور في صحبته، ولكن أُرسل لينقل الشهادة إلى وسط شعبه عن التحرر الذي عمله الرب يسوع المسيح فيه. بينما كان سكان تلك المنطقة في ذاك الوقت مترعجين من خسران خنازيرهم، ورَجَوا الرب يسوع أن يغادر شواطئهم، نعلم في مقطع لاحق أنهم اقتبلوه واستقبلوه بسرور عندما جاء في المرة الثانية إلى تلك المنطقة (قارن ٥: ٢٠ مع ٧: ٣١– ٣٧). لا يمكن لأحد أن يشك في أن شهادة ذلك الرجل الذي افتُدي قد ساعدت على تغيير موقفهم.

إن قصص شفاء المرأة التي كان فيها نزف دم وإحياء ابنة يايروس تردان بالتتالي في الآيات ٢١ إلى ٤٣، وهما تدلان على قوة المخلص وقدرته على المرض والموت. المرأة المسكينة المريضة التي "تَأَلَّمَتْ كَثِيراً مِنْ أَطِبَّاءَ كَثِيرِين"، والتي كانت حالتها بعد العلاج أردأ من ذي قبل، وجدت في هذا الطبيب العظيم شخصاً فهم حالتها كلياً وشفاها في الحال عندما لمست هدب ثوبه الأزرق بإيمان (عدد ١٥: ٣٨). من غير شك، أطاع يسوع، كإسرائيلي حقيقي، حرفية هذه الوصية المخصصة لإظهار الصفة الإلهية عند أولئك الذين لهم علاقة بالرب (يهوه).

الصبيّةُ الفتيةُ الميتة كانت ميئوساً من حالتها وما كان لإنسان أبداً أن يقدر على أن يساعدها، ولكن عندما دخل، ذاك الذي هو القيامة والحياة (يوحنا ١١: ٢٥)، إلى الغرفة حيث كان جسد الصبية مضطجعاً استعداداً لمراسم الدفن، فإن الموت لاذ بالفرار أمامه وأُعيدت الفتاة إلى والديها.

هذا التجلي لقدرة ربنا على الموت سببت اهتياجاً وسط الناس، ولكن يسوع أمرهم ألا يذيعوا ذلك. لقد كانت رسالته أكثر أهمية من المعجزات التي كان يقوم بها، وما كان ليريد أن يُلفت الانتباه إلى هذه المعجزات على حساب الرسالة التي جاء لأجلها.

إن الحوادث الثلاثة المدونة والتي فيها أقام الأموات هي أيضاً موحية. الجميع ميتون في الخطيئة، وهو وحده من يستطيع أن يعطي الحياة. سواء أكان الميت طفلاً ببراءة لا نظير لها، أو شاباً في ريعان الصبا، كما في حالة ابن أرملة نائين، أو إنسان ناضج راشد، مثل لعازر الذي كان قد أقامه من بين الأموات قبل أربعة أيام، والذي كان جسده قد دخل مرحلة الفساد، جميعهم كانوا يحتاجون إلى ما كان المسيح وحده يستطيع أن يعطيه، وقد برهن أنه كُفؤ لكل حالة من هذه الحالات.

الجزء ٢: الأصحاحات ٦: ١ إلى ١٠: ٤٥
الخادم رُفِضَ ولكنه لا يزال يخدم في النعمة
القسم (١)
الأصحاح ٦
الرفض والمعارضة تزداد

في حين تركت أعمال يسوع المقتدرة انطباعاً مميزاً في نفوس عامة الشعب الذين كانوا يسمعونه في توق ولهفة، كانت هناك حفنة ضئيلة من الطبقة المثقفة والمتدينة ظاهرياً الذين كانوا على استعداد للاعتراف به على أنه عبد يهوه الموعود الذي سينقذ إسرائيل. وبدلاً من التصديق على إعلاناته المسيانية صاروا يرتابون فيه معتبرينه دجالاً أفّاكاً وجعلوا أنفسهم في موضع المعارضة المطلقة له لدرجة أنهم كانوا يسعون لإيجاد طريقة ما يهلكونه بها. هذا الموقف يصبح بارزاً ومسيطراً بشكل مطرد في القسم الثاني من هذا السفر. ونرى الموقف يتطور في الأصحاح الحالي (السادس).

"وَخَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَجَاءَ إِلَى وَطَنِهِ وَتَبِعَهُ تَلاَمِيذُهُ. وَلَمَّا كَانَ السَّبْتُ ابْتَدَأَ يُعَلِّمُ فِي الْمَجْمَعِ. وَكَثِيرُونَ إِذْ سَمِعُوا بُهِتُوا قَائِلِينَ: «مِنْ أَيْنَ لِهَذَا هَذِهِ؟ وَمَا هَذِهِ الْحِكْمَةُ الَّتِي أُعْطِيَتْ لَهُ حَتَّى تَجْرِيَ عَلَى يَدَيْهِ قُوَّاتٌ مِثْلُ هَذِهِ؟ أَلَيْسَ هَذَا هُوَ النَّجَّارَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأَخَو يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَيَهُوذَا وَسِمْعَانَ؟ أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ هَهُنَا عِنْدَنَا؟» فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَبَيْنَ أَقْرِبَائِهِ وَفِي بَيْتِهِ». وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلاَ قُوَّةً وَاحِدَةً غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ فَشَفَاهُمْ. وَتَعَجَّبَ مِنْ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ. وَصَارَ يَطُوفُ الْقُرَى الْمُحِيطَةَ يُعَلِّمُ" (٦: ١– ٦).

ينبغي أن نفهم الكلمة "وَطَنِهِ" الواردة في الآية ١ التي تدل على مدينة الناصرة والمنطقة المحيطة بها حيث عاش يسوع في طفولته وفي شبابه.

دخل إلى المجمع حيث كان ولا بد قد التقى بأبناء بلدته في السنوات التي مضت. وهناك علَّم بطريقة أدهشت الناس، الذين كانوا يعرفون أنه لم يكن من تلاميذ أية مدارس ربانية، بل أنه عاش وسطهم كنجار. وكانت عائلته معروفة بالنسبة إليهم. لقد كانوا يتحدثون عنه على اعتباره ابْنَ مَرْيَمَ وَأَخَو يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَيَهُوذَا وَسِمْعَانَ، كما وذكروا "أَخَوَاته". قد يبدو من هذا الحديث أن مريم قد أنجبت أولاداً آخرين بعد ولادة ابنها البكر يسوع (متى ١: ٢٥). يرفض الكاثوليك (كنيسة روما) هذه الفكرة، ويقولون أن مريم "دائمة البتولية". ويصرون على اعتبار أن أخوة يسوع وأخواته المذكورين هنا هم أبناء يوسف من زواج سابق (أي قبل خطوبته لمريم)، أو من الممكن أن يكونوا أبناء عموم يسوع. ولكن يبدو أن هذه مجرد ذريعة لتفادي القول أن مريم قد تزوجت فعلياً من يوسف (بعد ولادة يسوع العذرية).

وردَّ يسوع على الاعتراضات إزاءه بالقول: "«لَيْسَ نَبِيٌّ بِلاَ كَرَامَةٍ إِلاَّ فِي وَطَنِهِ وَبَيْنَ أَقْرِبَائِهِ وَفِي بَيْتِهِ»". لقد كانت الشكوكية وعدم التصديق لديهم شديدة جداً حتى أن يسوع لم يقدر، كما يقول الإنجيل، أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلاَ قُوَّةً وَاحِدَةً، غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ أتوا إليه في بلواهم فَشَفَاهُمْ. إن الله يعمل بحسب تجاوب الإيمان. عدم الإيمان أو التصديق يقيّد يد القدرة الكليّة، إلا في الدينونة، ولم تأتِ ساعة الدينونة بعد.

وَتَعَجَّبَ يسوع من أن أولئك الذين عرفوه حق المعرفة كانوا غير مؤمنين بل وحتى معارضين له. تخبرنا رواية لوقا في إنجيله أنهم حاولوا حتى أن يرموا به من فوق الجرف الذي بُنِيَت عليه المدينة، إلا أنه عبر في وسطهم وجاز، وسار في طريقه، وكان حزيناً لأجل قساوة قلوبهم.

"وَدَعَا الاِثْنَيْ عَشَرَ وَابْتَدَأَ يُرْسِلُهُمُ اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً عَلَى الأَرْوَاحِ النَّجِسَةِ وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يَحْمِلُوا شَيْئاً لِلطَّرِيقِ غَيْرَ عَصاً فَقَطْ لاَ مِزْوَداً وَلاَ خُبْزاً وَلاَ نُحَاساً فِي الْمِنْطَقَةِ. بَلْ يَكُونُوا مَشْدُودِينَ بِنِعَالٍ وَلاَ يَلْبَسُوا ثَوْبَيْنِ. وَقَالَ لَهُمْ: «حَيْثُمَا دَخَلْتُمْ بَيْتاً فَأَقِيمُوا فِيهِ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ. وَكُلُّ مَنْ لاَ يَقْبَلُكُمْ وَلاَ يَسْمَعُ لَكُمْ فَاخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ وَانْفُضُوا التُّرَابَ الَّذِي تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: سَتَكُونُ لأَرْضِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ يَوْمَ الدِّينِ حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً مِمَّا لِتِلْكَ الْمَدِينَةِ». فَخَرَجُوا وَصَارُوا يَكْرِزُونَ أَنْ يَتُوبُوا. وَأَخْرَجُوا شَيَاطِينَ كَثِيرَةً وَدَهَنُوا بِزَيْتٍ مَرْضَى كَثِيرِينَ فَشَفَوْهُمْ" (٦: ٧– ١٣).

فوَّضَ يسوع الآن التلاميذ الاِثْنَيْ عَشَرَ الذين اختارهم "ليكونوا معه" لأن يمضوا إلى قرى الجليل ويعلنوا إنجيل الملكوت ويدعوا الناس إلى التوبة، وهكذا يستعدوا للقاء الملك عندما سيتجلى لهم. أرسلهم يسوع اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ ليعملوا معاً بروح شركة وصداقة وشهادة. وَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً عَلَى شفاء المرضى وطرد الأَرْوَاحِ النَّجِسَةِ، وبذلك يصادق على هؤلاء التلاميذ كممثلين له مندوبين من قِبَلِه.

لأنهم كانوا ذاهبين إلى شعبهم، إسرائيل، ولأن مهمتهم عاجلة، فقد أمرهم ألا يأخذوا معهم سوى عصا الترحال– لا محفظة، ولا حقيبة، ولا مزود، ولا نقود في كيسهم. كان عليهم أن يَكُونُوا مَشْدُودِينَ بِنِعَالٍ وَأَلاَ يَلْبَسُوا ثَوْبَيْنِ.

عندما كانوا يدخلون مدينة أو قرية كان عليهم أن يقبلوا أية ضيافة تُقدم لهم أياً كان من يعرضها عليهم، وكان عليهم أن يمكثوا في ذلك البيت، إذا رُحِّبَ بهم فيه، إلى أن يغادروا البلدة. ولا يفترض فيهم بأي شكل أن يسعوا وراء الراحة الشخصية أو التقدير الخاص. وعندما لا يُقبَلون فإن عليهم والحالة هذه أن ينْفُضُوا التُّرَابَ الَّذِي تَحْتَ أَرْجُلِهِمْ شَهَادَةً عَلَى أولئك الذين لم يقبلوا رسالتهم. إذ أن هؤلاء لن يكون في انتظارهم سوى الدينونة– دينونة أسوأ بكثير من تلك التي وقعت قديماً على سَدُومَ وَعَمُورَةَ.

اتباعاً لتعاليم معلمهم خَرَجُوا وَصَارُوا يَكْرِزُونَ أَنْ يَتُوب الناس– أي أن يغيروا موقفهم تجاه الله– وهذا كان يتطلب بالتالي موقفاً جديداً تجاه الذات وضد الخطيئة.

أَخْرَجَ الاثنا عشر شَيَاطِينَ كَثِيرَةً وَشفوا مَرْضَى كَثِيرِينَ. من المهم أن نلاحظ أنهم دَهَنُوا بِزَيْتٍ أولئك الذين كانوا يأتون إليهم طالبين الشفاء، كما أوصى يعقوب في رسالته. هذا هو الموضع الآخر الوحيد الذي يرد فيه ذكر هذه الطريقة فيما يخص الشفاء الجسدي. اعتقد البعض أن الزيت كان يُستخدم كعلاج أو دواء، ونجد مثالاً عن ذلك في قصة السامري الصالح الذي سكب زيتاً وخمراً على جراح ذاك الذي تركه اللصوص بين حي وميت على طريق أريحا. ولكن الزيت هو رمز الروح القدس، ويبدو على الأرجح أن المسح (بالزيت) عُنِيَ به أن يشير إلى العمل الكريم للروح القدس فيما يخص الشفاء استجابة لصلاة الإيمان.

"فَسَمِعَ هِيرُودُسُ الْمَلِكُ لأَنَّ اسْمَهُ صَارَ مَشْهُوراً. وَقَالَ: «إِنَّ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانَ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ وَلِذَلِكَ تُعْمَلُ بِهِ الْقُوَّاتُ». قَالَ آخَرُونَ: «إِنَّهُ إِيلِيَّا». وَقَالَ آخَرُونَ: «إِنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ كَأَحَدِ الأَنْبِيَاءِ». وَلَكِنْ لَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ قَالَ: «هَذَا هُوَ يُوحَنَّا الَّذِي قَطَعْتُ أَنَا رَأْسَهُ. إِنَّهُ قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ!»، لأَنَّ هِيرُودُسَ نَفْسَهُ كَانَ قَدْ

أَرْسَلَ وَأَمْسَكَ يُوحَنَّا وَأَوْثَقَهُ فِي السِّجْنِ مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا امْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيهِ إِذْ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا. لأَنَّ يُوحَنَّا كَانَ يَقُولُ لِهِيرُودُسَ: «لاَ يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ امْرَأَةُ أَخِيكَ!» فَحَنِقَتْ هِيرُودِيَّا عَلَيْهِ وَأَرَادَتْ أَنْ تَقْتُلَهُ وَلَمْ تَقْدِرْ لأَنَّ هِيرُودُسَ كَانَ يَهَابُ يُوحَنَّا عَالِماً أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقِدِّيسٌ وَكَانَ يَحْفَظُهُ. وَإِذْ سَمِعَهُ فَعَلَ كَثِيراً وَسَمِعَهُ بِسُرُورٍ" (٦: ١٤– ٢٠).

إن رواية معاملة هيرودس الآثم الغادرة ليوحنا، سابق يسوع، كان يُعتقد أنها كانت تهدف إلى زرع الرعب في النفس، ولكنها إنما صورة عن قابلية التحسن في قلب الإنسان الطبيعي.

كان هيرودس مهتماً برسالة يوحنا في البداية، وأرسل في طلبه لكيما يسمع بنفسه من معلم الصحراء. طالما كان يوحنا يتناول موضوع إنجيل الملكوت، فإن مستمعيه في البلاط الملكي، والذين كانوا فاسدين، كانوا يصغون إليه ببعض الانتباه، ولكن عندما تجرأ المعمدان على أن يوبخ الملك الماكر المخادع الفاسق بسبب علاقات سفاح القربى مع زوجة أخيه فيلبس ثار غضب الملك، وسعى إلى إسكات موبخه بأن حبسه في سجن مظلم، على الأرجح أنه سجن مكايروس، الذي يقع على المنحدرات الصخرية المطلة على البحر الميت. وهناك تُرك يوحنا ليَهزُل ويذبل وحتى ليتساءل فيما إذا كان يسوع هو بالفعل المسيا المنتظر الموعود، ما لم نفهم أن اهتمامه كان ترسيخ إيمان تلاميذه.

سكت هيرودس عن قطع رأس يوحنا لكي يُرضي هيروديا، التي كانت تجسد تماماً ما قاله الشاعر بأن "ليس غضب الجحيم الشديد بأشد من غضب امرأة محتقرة". عندما سمع هيرودس بالمعجزات التي قام بها يسوع، فإن ضميره المذنب الشاعر بالإثم استيقظ، وقال أن يوحنا المعمدان قد نهض من بين الأموات، ولذلك فهذه الأعمال المعجزية المقتدرة كانت تتم على يده. ظن آخرون أنه لا بد أن يكون إيليا الموعود الذي، بحسب ملاخي، كان ليأتي ليدعو إسرائيل إلى التوبة قبل اليوم العظيم والرهيب الذي سيأتي فيه الرب. قال آخرون أنه كان نبياً، أو على الأرجح أحد الأنبياء القدماء الذين عادوا إلى الحياة. ولكن هيرودس كان في ذلك الوقت مقتنعاً بأن يسوع لم يكن سوى يوحنا وقد عاد إلى الحياة. لقد تذكر من جديد المشاهد التي تعرض فيها للتوبيخ من أجل هيروديا، والسجن، وأخيراً قطع رأس كارز الصحراء، لأنه عرف أنه كان مذنباً مرتكباً جريمة فظيعة أمام الله والإنسان في معاملته الشائنة التي عمل بها ذاك الذي لا يخاف والذي كان يعلن حاجة الإنسان إلى التوبة.

رواية موت يوحنا تأتي على النحو التالي:

"وَإِذْ كَانَ يَوْمٌ مُوافِقٌ لَمَّا صَنَعَ هِيرُودُسُ فِي مَوْلِدِهِ عَشَاءً لِعُظَمَائِهِ وَقُوَّادِ الأُلُوفِ وَوُجُوهِ الْجَلِيلِ دَخَلَتِ ابْنَةُ هِيرُودِيَّا وَرَقَصَتْ فَسَرَّتْ هِيرُودُسَ وَالْمُتَّكِئِينَ مَعَهُ. فَقَالَ الْمَلِكُ لِلصَّبِيَّةِ: «مَهْمَا أَرَدْتِ اطْلُبِي مِنِّي فَأُعْطِيَكِ». وَأَقْسَمَ لَهَا أَنْ «مَهْمَا طَلَبْتِ مِنِّي لأُعْطِيَنَّكِ حَتَّى نِصْفَ مَمْلَكَتِي». فَخَرَجَتْ وَقَالَتْ لأُمِّهَا: «مَاذَا أَطْلُبُ؟» فَقَالَتْ: «رَأْسَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ». فَدَخَلَتْ لِلْوَقْتِ بِسُرْعَةٍ إِلَى الْمَلِكِ وَطَلَبَتْ قَائِلَةً: «أُرِيدُ أَنْ تُعْطِيَنِي حَالاً رَأْسَ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ عَلَى طَبَقٍ». فَحَزِنَ الْمَلِكُ جِدّاً. وَلأَجْلِ الأَقْسَامِ وَالْمُتَّكِئِينَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَرُدَّهَا. فَلِلْوَقْتِ أَرْسَلَ الْمَلِكُ سَيَّافاً وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِرَأْسِهِ. فَمَضَى وَقَطَعَ رَأْسَهُ فِي السِّجْنِ. وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى طَبَقٍ وَأَعْطَاهُ لِلصَّبِيَّةِ وَالصَّبِيَّةُ أَعْطَتْهُ لأُمِّهَا. وَلَمَّا سَمِعَ تَلاَمِيذُهُ جَاءُوا وَرَفَعُوا جُثَّتَهُ وَوَضَعُوهَا فِي قَبْرٍ" (٦: ٢١– ٢٩).

إن الاحتفال بعيد ميلاد هيرودس كان قد تحول إلى طقس عربدة فاسد لافت مترع بالسكر والفسوق. ومما زاد على التمتع الشهواني بالملذات، الذي كان يمارسه الرؤساء المدنيون والعسكريون وبقية أصحاب المقام الرفيع الذين كانوا حاضرين، فإن ابنة هيروديا كانت قد دُعيت لتشارك في ما كان رقصاً شهوانياً حسياً، من دون ريب، هذا الرقص الذي أبهج الحضور والنظارة حتى أن هيرودس طلب إلى الفتاة بتهور أن تطلب منه أية هدية حتى نصف مملكته كمكافأة لها على أدائها.

متأثرة بأمها الشريرة طلبت رأس يوحنا المعمدان على صحن كبير أو على طبق كبير. صُدِمَ الملك بهذا الطلب وكان ليريد أن يرفضه، ولكن بسبب قسمه الذي أعطاه أمام كل هؤلاء الحاضرين لم يستطع أن يرد طلبها لئلا يفقد ماء وجهه ويصبح موضعَ سخريةٍ أمام أتباعه ومستخدميه. ومهما يكن من أمر، فإنها لم تكن سوى جريمة جديدة أخرى تضاف إلى سجل جرائمه العديدة التي كان قد ارتكبها لتوه. ولذلك فقد أرسل سيّافاً في الحال ليقطع رأس النبي ويحضر رأسه الملطخ بالدم، نزولاً عند طلب الراقصة التي أعطته بدورها إلى أمها.

يمكن للمرء أن يتخيل كيف راحت هيروديا تتأمل في حبور بذلك الشيء المخيف عندما أدركت أن تلك الشفاه الباردة سوف لن تتهمها من بعد بالزنى أو بأية خطيئة أخرى. ولكنها لم تتوقع ما سيحدث عندما سترى يوحنا المعمدان في النهاية. ففي يوم الدينونة سينهض ليدينها بسبب لا مبالاتها المتعنتة إزاء الدعوة إلى التوبة.

عندما علم تلاميذ يوحنا بما حدث جاؤوا وأخذوا جثة معلمهم وقاموا بدفن لائق لها، وكما يورد إنجيل آخر (متى ١٤: ١٢)، فإنهم "مضوا وأخبروا يسوع"، الذي انتابه حزن شديد عميق على يوحنا بدافع تعاطفه الحاني.

بعد ذلك نقرأ عن عودة الاثني عشر من جولتهم الكرازية والتقرير الذي قدموه إلى يسوع.

"وَٱجْتَمَعَ الرُّسُلُ إِلَى يَسُوعَ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ شَيْءٍ كُلِّ مَا فَعَلُوا وَكُلِّ مَا عَلَّمُوا. فَقَالَ لَهُمْ: «تَعَالَوْا أَنْتُمْ مُنْفَرِدِينَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ وَاسْتَرِيحُوا قَلِيلاً». لأَنَّ الْقَادِمِينَ وَالذَّاهِبِينَ كَانُوا كَثِيرِينَ وَلَمْ تَتَيَسَّرْ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِلأَكْلِ. فَمَضَوْا فِي السَّفِينَةِ إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ مُنْفَرِدِينَ. فَرَآهُمُ الْجُمُوعُ مُنْطَلِقِينَ وَعَرَفَهُ كَثِيرُونَ. فَتَرَاكَضُوا إِلَى هُنَاكَ مِنْ جَمِيعِ الْمُدُنِ مُشَاةً وَسَبَقُوهُمْ وَٱجْتَمَعُوا إِلَيْهِ. فَلَمَّا خَرَجَ يَسُوعُ رَأَى جَمْعاً كَثِيراً فَتَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ إِذْ كَانُوا كَخِرَافٍ لاَ رَاعِيَ لَهَا فَٱبْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ كَثِيراً" (٦: ٣٠– ٣٤).

لقد تجمع التلاميذ بروح مليئة بالحيوية والحماس حول (ربهم) وأخبروه بكل ما فعلوه وبكل ما علّموه وهم ينطلقون من قرية إلى أخرى في الجليل. رأى أنهم كانوا مأخوذين جداً بنجاحهم، وعلاوة على ذلك كانوا إلى حد ما منهكين بسبب الجهد والشد الذي كانوا قد عانوه. ولذلك فقد طلب إليهم أن يتركوا الجموع ويختلوا في موضع هادئ في الريف وأن "يستريحوا قليلاً". كم يحتاج خدامه إلى هكذا فترات من الصحبة الهادئة معه!

فَمَضَوْا إِلَى مَوْضِعٍ خَلاَءٍ مُنْفَرِدِينَ– أي إلى مكان في الريف الواسع الطلق بعيداً عن أية مدينة أو بلدة لينالوا بعض الراحة الجسدية وهدوء الفكر الذي كانوا في حاجة ماسة إليه. إن منحنا أنفسنا هكذا فرص، فإن حوادث الانهيار العصبي والجلطات القلبية ستخف كثيراً وسط خدام المسيح.

لا نعلم تماماً كم أمضت تلك الجماعة الصغيرة في صحبةٍ وخِلوة وارتياح مع الرب. ولكن بعضاً ممن رأوا الجهةَ التي كانوا قد ذهبوا إليها نقلوا الخبرَ إلى الآخرين، وسرعانَ ما جاء حشدٌ كبيرٌ من الناس من جميعِ المدن المجاورة وتجمعوا حولَ يسوع. لم يستطع أن يصرِفَهُم ولا أن يرفُضَ أن يعلِمَهُم.
إِذْ كَانُوا كَخِرَافٍ لاَ رَاعِيَ لَهَا. وقلبهُ الكبير تحركت فيهِ عواطفُ الحنو نحوهم، لذلك بدأ حالاً يعلِمَهُم أشياء كثيرةٍ. بحماسةٍ لا تكلُ ولا تَمل، علَمهُم طوالَ الوقت في ذلك اليوم، ساعياً لِيُعَرِفَهُم بالأمور المتعلقةِ بملكوت الله.

"وَبَعْدَ سَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ: «اَلْمَوْضِعُ خَلاَءٌ وَالْوَقْتُ مَضَى. اَصْرِفْهُمْ لِكَيْ يَمْضُوا إِلَى الضِّيَاعِ وَالْقُرَى حَوَالَيْنَا وَيَبْتَاعُوا لَهُمْ خُبْزاً لأَنْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ». فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُم: «أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا». فَقَالُوا لَهُ: «أَنَمْضِي وَنَبْتَاعُ خُبْزاً بِمِئَتَيْ دِينَارٍ وَنُعْطِيهِمْ لِيَأْكُلُوا؟» فَقَالَ لَهُمْ: «كَمْ رَغِيفاً عِنْدَكُمْ؟ اذْهَبُوا وَانْظُرُوا». وَلَمَّا عَلِمُوا قَالُوا: «خَمْسَةٌ وَسَمَكَتَانِ». فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا الْجَمِيعَ يَتَّكِئُونَ رِفَاقاً رِفَاقاً عَلَى الْعُشْبِ الأَخْضَرِ. فَاتَّكَأُوا صُفُوفاً صُفُوفاً: مِئَةً مِئَةً وَخَمْسِينَ خَمْسِينَ. فَأَخَذَ الأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسَّمَكَتَيْنِ وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَبَارَكَ ثُمَّ كَسَّرَ الأَرْغِفَةَ وَأَعْطَى تَلاَمِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا إِلَيْهِمْ وَقَسَّمَ السَّمَكَتَيْنِ لِلْجَمِيعِ فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا ثُمَّ رَفَعُوا مِنَ الْكِسَرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مَمْلُوَّةً وَمِنَ السَّمَكِ. وَكَانَ الَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ الأَرْغِفَةِ نَحْوَ خَمْسَةِ آلاَفِ رَجُلٍ" (٦: ٣٥– ٤٤).

كان قد كُتِبَ عن المسيا المنتظر الموعود قبل قرون من مجيئه إلى العالم: "مَسَاكِينَهَا أُشْبِعُ خُبْزاً" (مز ١٣٢: ١٥)، وأيضاً "كَرَاعٍ يَرْعَى قَطِيعَهُ" (أش ٤٠: ١١). إن إطعام الجموع في مناسبتين منفصلتين لابد أنه قد أعاد إلى ذهن ذلك الشعب تلك النبوءات وجعلهم يتساءلون فيما إذا لم يكن يسوع المسيح هو الذي طالما تم التنبؤ عنه لوقت طويل.

عندما أخرج اللهُ اسرائيلَ من مصر رَتّبَ لهم مَائِدَةً فِي الْبَرِّيَّةِ (مز ٧٨: ١٩). أعطى الرب يسوع الجموع الجائعة، الذين تبعوه وأصغوا إليه طوال النهار، مثلاً عن القدرة الكلية نفسها. إنه لما يُرثى له أن نلاحظ كم من النقاد غير المؤمنين يحاولون أن يُضعفوا ويشوهوا هذه الشهادات عن مجد ربنا الخلاّق بأن يلمّحوا إلى أن هذا (الصنيع الذي قام به الرب) لم يكن سوى حالة مشاركة في الغداء بين الجيران والأقارب الذين كانوا متجمهرين هناك والذين كانوا قد نسوا أو تجاهلوا أن يأتوا بأي طعامٍ معهم– ولذلك أكلوا جميعاً معاً، فبدا لهم كما لو أن الطعام قد تضاعف بطريقةٍ عجيبةٍ مدهشةٍ. يقول الكتاب المقدس: "عَلى فَمِ شَاهِدَيْنِ أَوْ عَلى فَمِ ثَلاثَةِ شُهُودٍ يَقُومُ الأَمْرُ". ومن المدهش أن أولى هذه المعجزات هي إحدى عجائب عديدة قد سجلها كلٌ من الإنجيليين الأربعة. هؤلاء الرجال، التي لا يمكن أن يُشك بأمانتهم والذين كانوا حاضرين للأحداث المرسومة الموصوفة أو علموا عنها من آخرين على نحو دقيقٍ، فجميعهم يصفونها على أنها حدثٌ فائقٌ للطبيعة، ذاك الذي يُكثّر الحِنطةَ على آلاف منحدرات التلال، والأسماكَ في كل البحار، قد أنجز بقدرته الإلهية وحكمته، ما كان ليُنجزَ بشكلٍ عادي خلال أسابيع أو أشهر من الزمان. وهكذا عَرفت الجموع حنو الله وقدرته كما تراءت في يسوع المسيح، والتي تسدُ حاجة كل نفسٍ كما حاجة كلِّ جسدٍ.

"الْوَقْتُ مَضَى". كان التلاميذ قلقينَ ومهتمينَ بخصوص الناس الجياع الذين كانوا مع الرب يسوع طوال النهار، والذي كان كثيرون منهم بعيدين عن منازلهم. وكان الليل على وشك أن يحلَّ، وبدا أنه من اللطفِ وحكمة التدبير أن يحثّوهم على العودة حالاً إلى مساكنهم المختلفة.

"اِصْرِفْهُمْ لِكَيْ يَمْضُوا .... وَيَبْتَاعُوا لَهُمْ خُبْزاً". إن كان عليهم أن يضمنوا طعاماً مناسباً قبل أن يهبط الليل فعليهم أن يهرعوا، إذ لم يتمَّ إعدادِ أي مؤن لهم في ذلك المكان المهجور النائي، كما ارتأى التلاميذ.

"«أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا»". إن مطلب ربنا لابد أنه قد أدهش تلاميذه. فلم يكن لديهم شيء ليشاركون الآخرين به، وما كانوا يعرفون كيف يحصلون على الطعام. لقد كانت رغبته هو أن يدربهم على تحسس حاجات الناس ومسؤوليتهم فيما يخص ذلك، كما أنه ليود أن نهتم اليوم بالمجاعة الروحية التي تحيط بنا جميعاً، ومسؤوليتنا على أن نسعى إلى أن نبذل قصارى جهدنا ونلعب دورنا في سد متطلبات هذه المسؤولية. وإننا جميعاً أيضاً عُرضة لأن نحاولَ أن نقيس مقدرة الله على أن يسد حاجاتنا بتلك التي تراها أعيننا، بدلاً من تذكّرنا بأن لنا علاقة بذاك الذي خلق الكون من العدم ويُبقيه بكلمة قوته.

"كَمْ رَغِيفاً عِنْدَكُمْ؟" نعلم من الروايات الأخرى (الواردة في الأناجيل) أن أندراوس كان قد اكتشف وجود غلامٍ معه خمسة من الأرغفة التي كان الناسُ معتادين عليها، وسمكتين صغيرتين. لقد اقترح أحدهم أن ذاك إنما كان غداءَ الغلام الخاص– وقد أعطاه كلُّه لكي يقتات الآخرون عليه. ورغم ضآلة كميته، أمكن ليسوع المسيح أن يستخدمه بشكلٍ كبيرٍ. في الحالات الطارئة التي نمرُّ بها، عادةً ما نسأل "من أين؟" و"كيف؟" متناسين أنه ما من شيءٍ صعبٌ أمام الرب. فذاك الذي يُكَثِّرُ الحبوب المبذورة في الأرض يمكنه أن يأخذ القليل الذي نأتي به ويجعله كافياً لسدِ حاجات الكثيرين.

"فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا الْجَمِيعَ يَتَّكِئُونَ". بسُلْطةٍ، أمر المخلص الحشدَ المتجمهر أن يجلسوا جماعاتٍ على العشب الأخضر، حيث يمكن القيام بخدمتهم على نحوٍ أفضل. وأطاعوا أمرهُ. فَاتَّكَأُوا صُفُوفاً صُفُوفاً: مِئَةً مِئَةً وَخَمْسِينَ خَمْسِينَ"، ومن غير شك كانوا يتساءلون عما سيحدث بعد ذلك، وعن السبب في اعتراضه على إرجاع الناس إلى بيوتهم على عجل. إن الأمر الذي أصدره الرب بأن يجعل الناس يجلسونَ كان له مغزى. فإذ يجلسون على الأرض كانوا يصيرون جميعهم على مستوى واحد. وتختفي الفوارق في المنزلةِ الاجتماعيةِ. لقد كان في ذلك ترسيخٌ لعقيدة "اللا فرق".

"رَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَبَارَكَ ثُمَّ كَسَّرَ الأَرْغِفَةَ وَأَعْطَى". إذ تلقى الطعامَ من يدي أندراوس أو من ذلك الغلام المتوقع، قدّم الرب يسوع شكراً، وبدأ يكسر الخبز ويقسمُ الأسماك، مناولاً الزاد إلى التلاميذ، لكيما بدورهم يمررونه إلى الحشد الجائع الذين كانوا ينظرون في عجبٍ ودهشةٍ. عندما كسر الرب يسوع الخبز وأعطاه لتلاميذه لكي يمررونه إلى الجموع، ما كان لأحد عذرٌ إذا ما ذهبَ جائعاً. وهكذا الحالُ اليوم، إذ نقدمُ الخبزَ الحيَّ إلى النفوس الجائعة، لا يحتاجُ أحدٌ لأن يذهبَ دون أن يأخذَ بركةً أبدية.

"فَأَكَلَ الْجَمِيعُ". تبين أن هناك مئونة وافرة كافية للجميع. لم يُخَيَّبْ أحدٌ. لم يحتجْ أحدٌ لأن يذهب جائعاً من تلك المائدة التي أقامها الربُ يسوع المسيح.

"رَفَعُوا مِنَ الْكِسَرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مَمْلُوَّةً وَمِنَ السَّمَكِ". لم يكن الجميعُ راضينَ وحسب، بل عندما انتهت الوليمة كانت هناك سلالٌ كثيرةٌ باقية إذ كان هناك التلاميذ، ومع ذلك تساءلَ الإثنا عشر كيف أمكن لذلك الطعام أن يكون كافياً لكلّ ذلك العدد!

"كَانَ الَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ الأَرْغِفَةِ نَحْوَ خَمْسَةِ آلاَفِ رَجُلٍ". ويضيف متى إلى ذلك: "مَا عَدَا النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ" (متى ١٤: ٢١). لذلك كان العدد فعلياً أكثرَ من خمسةِ آلاف، رغم أنه لم يكن هناك نساءٌ أو أطفالٌ، بلا شك، قد خرجوا إلى تلك البرية ليسمعوا المعلم العظيم في ذلك اليوم.

سوف نجد، إذ نسعى لخدمة ربنا المبارك، أننا كلما قدمنا للآخرين كلما بقي لدينا أكثر لأنفسنا.

"لمْ يفرّغ الحبُّ قلباً،

ولم يفرّغ العطاءُ كيس دراهم".

"وَلِلْوَقْتِ أَلْزَمَ تَلاَمِيذَهُ أَنْ يَدْخُلُوا السَّفِينَةَ وَيَسْبِقُوا إِلَى الْعَبْرِ إِلَى بَيْتِ صَيْدَا حَتَّى يَكُونَ قَدْ صَرَفَ الْجَمْعَ. وَبَعْدَ مَا وَدَّعَهُمْ مَضَى إِلَى الْجَبَلِ لِيُصَلِّيَ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ كَانَتِ السَّفِينَةُ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ وَهُوَ عَلَى الْبَرِّ وَحْدَهُ. وَرَآهُمْ مُعَذَّبِينَ فِي الْجَذْفِ لأَنَّ الرِّيحَ كَانَتْ ضِدَّهُمْ. وَنَحْوَ الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ أَتَاهُمْ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ وَأَرَادَ أَنْ يَتَجَاوَزَهُمْ. فَلَمَّا رَأَوْهُ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ ظَنُّوهُ خَيَالاً فَصَرَخُوا لأَنَّ الْجَمِيعَ رَأَوْهُ وَاضْطَرَبُوا. فَلِلْوَقْتِ كَلَّمَهُم وقَالَ لَهُمْ: «ثِقُوا. أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا». فَصَعِدَ إِلَيْهِمْ إِلَى السَّفِينَةِ فَسَكَنَتِ الرِّيحُ فَبُهِتُوا وَتَعَجَّبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ جِدّاً إِلَى الْغَايَةِ لأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا بِالأَرْغِفَةِ إِذْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ غَلِيظَةً" (٦: ٤٥– ٥٢).

لدينا هنا صورة زمانية تدبيرية عما سيحتمله تلاميذ المسيح هنا في بحر الزمان العاصف الهائج بينما الرب يتشفع من أجلهم في العلاء.

بعد إطعام الجموع أشار يسوع لتلاميذه لكي "يَسْبِقُوا إِلَى الْعَبْرِ إِلَى بَيْتِ صَيْدَا". لم تكن هذه سوى رحلة قصيرة من ذلك المكان إلى جَنِّيسَارَتَ شمال البحيرة، شرقي كفرناحوم. لم يذهب يسوع معهم. ولكن بعد انطلاقهم مضى إلى الجبل لكي يكون وحده مع الآب ليناجيه في الصلاة.

"كَانَتِ السَّفِينَةُ فِي وَسَطِ الْبَحْرِ". ولكنها كانت على مرمى النظر، وكان قلبه قلقاً على تلاميذه الذين كانوا يعملون جاهدين، مُعَذَّبِينَ فِي الْجَذْفِ، وهم يسعون للوصول إلى وجهتهم المنشودة، والرياح تعاكسهم. أشار أحدهم إلى أن الكلمة التي تُرجمت "مُعَذَّبِينَ" هي نفسها التي تُرجمت إلى " يُعَذِّبُ" الواردة في (٢ بطرس ٢: ٨). إنها تعني أكثر من العمل العضلي المضني. لقد كان التلاميذ في محنةٍ روحيةٍ ذهنية حقيقية وقلق، إذ كانوا خائفين أن تغرق سفينتهم، ويغرقوا هم أنفسهم معها في البحر المتلاطم الأمواج الذي كان يوشك على ابتلاعهم. ولعلهم كانوا أيضاً يعانون من بعضهم البعض فيحمّل كل منهم الآخر مسؤولية الوضع المتقلقل الخطر الذي وجدوا أنفسهم فيه. يا لها من صورة تعبّر عن الحالة الذهنية التي غالباً ما يجد المؤمنون أنفسهم فيها خلال صراعاتهم مع ظروف الدنيا في غياب الرب يسوع عن هذا العالم.

كم كان ضئيلاً إدراك التلاميذ، وهم يصارعون الريح والموج، بأنه طوال الوقت كانت عين الرب ترعاهم وقلبه قلقاً عليهم مهتماً بهم. كم سريعٌ هو تناسينا، وإذ نحن "نصارع خلال وجهتنا إلى السماء"، كما يقول روذرفورد، فإن رئيس كهنتنا العظيم لا ينفك ينظر إلينا من العلاء ويشفع فينا بلا انقطاع.

مع بزوغ أول أشعة الفجر في الأفق "نَحْوَ الْهَزِيعِ الرَّابِعِ مِنَ اللَّيْلِ"، أي في الساعة بين الثالثة والسادسة صباحاً في توقيتنا الحالي، نزل يسوع من الجبل وجاء ماشياً على وجه المياه. يبدو أن يسوع كان على وشك أَنْ يَتَجَاوَزَهُمْ عندما صرخ التلاميذ المرتعبون، ظناً منهم أنه خَيَال. فكشف لهم ذاته وقال: "«ثِقُوا. أَنَا هُوَ. لاَ تَخَافُوا»".

مندهشين فوق العادة، استقبلوه في السفينة وسرعان ما هدأت الريح. ترد في موضع آخر تفاصيل، حُذفت من هنا عن عمد، لكي يتم التركيز على أن مجيئه قد أسكت العاصفة. وهذا ما سيكون عليه الحال لدى عودته ثانيةً لأجل خاصته.

إذ كانوا منذهلين مما جرى ونسوا سريعاً البرهان على قدرته الخالقة في مضاعفة الأرغفة والسمك، تساءل التلاميذ متعجبين عن سر شخص الرب.

"فَلَمَّا عَبَرُوا جَاءُوا إِلَى أَرْضِ جَنِّيسَارَتَ وَأَرْسَوْا. وَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ السَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ عَرَفُوهُ فَطَافُوا جَمِيعَ تِلْكَ الْكُورَةِ الْمُحِيطَةِ وَابْتَدَأُوا يَحْمِلُونَ الْمَرْضَى عَلَى أَسِرَّةٍ إِلَى حَيْثُ سَمِعُوا أَنَّهُ هُنَاكَ. وَحَيْثُمَا دَخَلَ إِلَى قُرىً أَوْ مُدُنٍ أَوْ ضِيَاعٍ وَضَعُوا الْمَرْضَى فِي الأَسْوَاقِ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسُوا وَلَوْ هُدْبَ ثَوْبِهِ. وَكُلُّ مَنْ لَمَسَهُ شُفِيَ!" (٦: ٥٣– ٥٦).

عندما أرسوا على شواطئ جَنِّيسَارَتَ في نهاية المطاف، كانوا لم يزالوا في السفينة عندما بدأت جموع الناس تُقبل نحو يسوع من كل تلك المنطقة. لم يستطع أن يحتجب: فسمعته وشهرته سبقته إلى هناك. وَابْتَدَأُوا يَحْمِلُونَ الْمَرْضَى عَلَى أَسِرَّةٍ متضرعين إليه أن يشفيهم. وبينما راح ينتقل من قرية إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى، بل وحتى إلى الريف الفسيح، كانت تتقاطر من حوله الحشود الذين كانوا يأتون بأصدقائهم وأقربائهم المرضى إليه راجين منه أن يسمح لهم ولو بلمس هدب ثوبه. ويخبرنا الإنجيل أن "كُل مَنْ لَمَسَهُ شُفِيَ". الله المتجسد كان يسير وسط شعبه، وكان يُسرُّ بأن يخفّف آلامهم ومعاناتهم وأن يشفيهم من أمراضهم. وأينما سار كانت تتجلى قدرته على الشفاء. ولكن كل ذلك، وللأسف، لم ينفع في إقناع الرؤساء بأن المسيا الذي طالما انتظروه قد جاء ليحررهم.

الأصحاح التالي يظهر المعارضة والمقاومة المتزايدة المتنامية، التي بلغت أوجها، كما نعلم، في الصليب.

الأصحاح ٧
القسم (٢)- ٧: ١- ٨:٩
التقليد إزاء الوحي أو الإعلان

بالنسبة للذهن الروحي، إنها لمسألة تدعو للعجب المطرد أن ترى الناس على استعداد بالغ لأن يتبعوا وبرضا لا خوف فيه سلطة التقاليد البشرية، تماماً كما أنهم على استعداد كامل لتجاهل التعاليم الواضحة التي في كلمة الله. وفي مناسبات كثيرة نجد ربنا المبارك يصارع الإجحافات عند بني اسرائيل الذين كانوا يرفعون التقليد إلى مستوى الإعلان، بل أعلى منه في بعض الحالات.

"وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْفَرِّيسِيُّونَ وَقَوْمٌ مِنَ الْكَتَبَةِ قَادِمِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضاً مِنْ تَلاَمِيذِهِ يَأْكُلُونَ خُبْزاً بِأَيْدٍ دَنِسَةٍ أَيْ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ لاَمُوا – لأَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ وَكُلَّ الْيَهُودِ إِنْ لَمْ يَغْسِلُوا أَيْدِيَهُمْ بِاعْتِنَاءٍ لاَ يَأْكُلُونَ مُتَمَسِّكِينَ بِتَقْلِيدِ الشُّيُوخِ. وَمِنَ السُّوقِ إِنْ لَمْ يَغْتَسِلُوا لاَ يَأْكُلُونَ. وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَسَلَّمُوهَا لِلتَّمَسُّكِ بِهَا مِنْ غَسْلِ كُؤُوسٍ وَأَبَارِيقَ وَآنِيَةِ نُحَاسٍ وَأَسِرَّةٍ. ثُمَّ سَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ وَالْكَتَبَةُ: «لِمَاذَا لاَ يَسْلُكُ تَلاَمِيذُكَ حَسَبَ تَقْلِيدِ الشُّيُوخِ بَلْ يَأْكُلُونَ خُبْزاً بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ؟» فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُم: «حَسَناً تَنَبَّأَ إِشَعْيَاءُ عَنْكُمْ أَنْتُمُ الْمُرَائِينَ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: هَذَا الشَّعْبُ يُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيداً وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ. لأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ وَتَتَمَسَّكُونَ بِتَقْلِيدِ النَّاسِ: غَسْلَ الأَبَارِيقِ وَالْكُؤُوسِ وَأُمُوراً أُخَرَ كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ»" (٧: ١– ٨).

بعضٌ من الفريسيّين والكتبة الذين كانوا يراقبون يسوع بشكلٍ متواصلٍ مطردٍ في محاولةٍ منهم لأن يجدوا أي خطأٍ يَرِدْ لديه في كلماته أو تصرفاته هو وتلاميذه، لاحظوا أن بعض التلاميذ كانوا يأكلون الخبز بأيدٍ دنسةٍ على حد اعتباراتهم. كان هذا أمراً مخالفاً للناموس بحسب تقليدٍ سُلِّمَ إليهم من الأيام الأولى. الفريسيّون الأكثر صرامةً كانوا يمرون بعمليةٍ طويلة ليس فقط بتطهير الأيدي من النجاسة بل أيضاً بالغسل الطقسي قبل أن يتناولوا طعامهم.

تخبرنا الآية ٤ أنهم "مِنَ السُّوقِ إِنْ لَمْ يَغْتَسِلُوا (أو يعتمدوا) لاَ يَأْكُلُونَ". هذه هي إحدى المعموديات العديدة التي يردُ ذكرُها في (عبرانيين ٩: ١٠). فالكلمة المترجمة بـ "غَسَلاَتٍ" هناك إنما هي أساساً "معموديات". إلى ذلك، كانت هناك العديد من الشعائر الأخرى المماثلة من غَسْلِ آنِيَةِ الشرب، والأطباق التي كان يقدم فيها الطعام، وأيضاً الموائد.

إن الناموسيّين التشريعيّين المتقيدين بالتقاليد جاؤوا مباشرةً إلى يسوع، وسألوه لماذا ما كان تلاميذه يغتسلون بحسب تقليد الشيوخ، بل كانوا يأكلون الخبز بأيدٍ غير مغسولةٍ. لاحظوا أن هذا لم يكن سؤالاً يتلاءم مع كلمة الله بل كان مجرد تقليدٍ بشريٍ وحسب.

في رده عليهم أشار ربنا إلى الكلمات الواردة على لسان أشعياء النبي، فيقول: "حَسَناً تَنَبَّأَ إِشَعْيَاءُ عَنْكُمْ أَنْتُمُ الْمُرَائِينَ". لقد كانت هذه اللهجة قوية. المرائي هو الرجل ذو الوجهين، إنه ممثل بالفعل، إذ أن الممثلين الإغريق (اليونانيين) كانوا يظهرون على المسرح مرتدين أقنعةً ليقوموا بمختلف الأدوار والشخصيات. لقد كان الرب يعرف، من خلال رياء منتقديه، أنه بينما كانوا دقيقين في إتباع الأوامر وحريصين على الشكليات في هكذا أمور، فإنهم كانوا لا يبالون فعلياً فيما يخص الأمور الأهم والأعظم لأنها كانت أوامر

صادرة من الرب تماماً. وعن هؤلاء كتب أشعياء يقول: "هَذَا الشَّعْبُ يُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيداً ،وَبَاطِلاً يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا النَّاسِ". هناك شيءٌ في غاية الأهمية هنا يحسن بنا كثيراً أن نضعهُ إلى قلبنا. إنه خطأٌ فادحٌ يرتكبه أولئك الذين يُقرون بأنهم خدام الله بأن يؤخذوا بالشكلية والشعائر الطقسية والتقاليد التي ليس لها أساسٍ كتابي. قد يبدون أبرياء بما فيه الكفاية عند البدء بذلك، ولكن شيئاً فشيئاً سنجد أنهم يغتصبون مكانة كلمة الله في ضمائر أولئك الذين يتبعونه، وهذا أمرٌ في غاية الخطورة.

نعلم من (٢ تيموثاوس ٣: ١٦، ١٧) أن :" كُلُّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحىً بِهِ مِنَ اللهِ، وَنَافِعٌ لِلتَّعْلِيمِ وَالتَّوْبِيخِ، لِلتَّقْوِيمِ وَالتَّأْدِيبِ الَّذِي فِي الْبِرّ، لِكَيْ يَكُونَ إِنْسَانُ اللهِ كَامِلاً، مُتَأَهِّباً لِكُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ". إن تمت دراسة الكتاب المقدس بعناية وعُمِلَ بحسب ما يرد فيه، فإنه يؤهّل إنسانَ الله إلى الأعمال الصالحة، ثم سيكون واضحاً أنه ما من عمل يستحق أن يُعتبر صالحاً في نظر الله إن لم يصادقه الكتاب. إن تمييز هذا المبدأ سوف ينجّي من حماقاتٍ كبيرةٍ وعملٍ مضنٍ لا طائل تحته بما يتعلق بأمور الله. فالرب أكد كلمات أشعياء عن منتقدي تلاميذه بأن أخبرهم بأنهم أنفسهم قد ألقوا جانباً وصية الله، واستبدلوها بتقاليد بشرية مثل تلك التي كانوا يشيرون إليها، وأضاف قائلاً: "وَأُمُوراً أُخَرَ كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ".

ليست فقط الكنيسة الكاثوليكية، (كنيسة روما اللاتينية)، وحدها من ترفع شأن التقليد إلى مستوى الكتاب المقدس أو حتى فوقه، بل هناك عدد ليس بقليل من البروتستانت الذين يفعلون الشيء نفسه، بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر. كم نحن في حاجة لأن نعود إلى مكان تعليم كلمة الله، فنسأل "ما الذي يقوله الكتاب المقدس؟" عندما تُطرحُ أسئلةٌ مثل الطرق والوسائل في التعليم. لأن كل ما هو ضد كشف الله لا يمكن أن يلقى حظوةً في عينيه، أياً كان مقدار الصلاح أو الخير الذي يبدو أنه لينجزه.

إذ أكتب هكذا فإني لا أتجاهل أبداً ولو لوهلةٍ حقيقة أن الكتاب المقدس نفسه يعطي مجالاً أو حرية معتبرة فيما يتعلق بالطرق والنهج الذي نتبعه في الوصول إلى الضالين والسعي إلى مساعدة المؤمنين. لقد أعلن الرسول بولس قائلاً: "صِرْتُ لِلْكُلِّ كُلَّ شَيْءٍ لأُخَلِّصَ عَلَى كُلِّ حَالٍ قَوْماً". ما أريد أن أؤكد عليه هو الخطأ الفادح في استبدال السلطة الإلهية بسلطةٍ بشريةٍ. علينا أن نكون متأكدين أنه ليس فقط العقائد بل أيضاً طرقنا العملية يجب أن تكون بتوافقٍ مع الكتاب المقدس. وهذا وحده هو طريق الأمان والسلامة.

وإذ يستأنف حديثه يشير الرب موضحاً كيف أن هؤلاء الفريسيّين أنفسهم قد تجاهلوا التعليم الواضح للكلمة في حين أنهم يُعطون سلطةً كاملةً للتقليد.

"ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «حَسَناً! رَفَضْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ لِتَحْفَظُوا تَقْلِيدَكُمْ. لأَنَّ مُوسَى قَالَ: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ وَمَنْ يَشْتِمُ أَباً أَوْ أُمّاً فَلْيَمُتْ مَوْتاً. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: إِنْ قَالَ إِنْسَانٌ لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ أَيْ هَدِيَّةٌ هُوَ الَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي فَلاَ تَدَعُونَهُ فِي مَا بَعْدُ يَفْعَلُ شَيْئاً لأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ. مُبْطِلِينَ كَلاَمَ اللَّهِ بِتَقْلِيدِكُمُ الَّذِي سَلَّمْتُمُوهُ. وَأُمُوراً كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ». ثُمَّ دَعَا كُلَّ الْجَمْعِ وَقَالَ لَهُمُ: «اسْمَعُوا مِنِّي كُلُّكُمْ وَافْهَمُوا. لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ خَارِجِ الإِنْسَانِ إِذَا دَخَلَ فِيهِ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ لَكِنَّ الأَشْيَاءَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ هِيَ الَّتِي تُنَجِّسُ الإِنْسَانَ. إِنْ كَانَ لأَحَدٍ أُذْنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ»" (٧: ٩– ١٦).

لاحظوا كم كانت لهجته شديدة حين قال في الآية ٩: "حَسَناً! رَفَضْتُمْ وَصِيَّةَ اللَّهِ لِتَحْفَظُوا تَقْلِيدَكُمْ". إن القلب الطبيعي يثور على ما هو إلهي ويقبل بكل ترحيب ما هو بشري محض.

وبعدها يُوردُ يسوع مثالاً محدداً واضحاً جداً عن التضاد بين التقليد والكتاب المقدس. فقد تحدث الله بموسى، فأمره أن يُكرمَ شعبَهُ أباهم وأمهم. وإن جزاء أو قصاص الموت كان مرتبطاً بانتهاك هذه الوصية. "مَنْ يَشْتِمُ (أو يسيء أو يخطئ، بأي شكل من الأشكال تجاه، أو يؤذي) أَباً أَوْ أُمّاً فَلْيَمُتْ مَوْتاً". هذا سيعني بالضرورة الاهتمام بالأشخاص الطاعنين في السن الذين كانوا غير قادرين على أن يعيلوا أنفسهم. أقل ما ينبغي ويمكن للأبناء والبنات أن يفعلوه هو أن يشاركوا والديهم بما أعطاه الله لهم، ولكن الربانيّين كانوا قد أعلنوا أن الإنسان قد يكرس كل ممتلكاته لله، معتبراً أنه قربان – أي تقدمة للحفاظ على العمل في الهيكل. فإن كان والدا المرء في حاجة فإنه يصر على أنه ليس لديه ما يقدمه لهم أو يساعدهم فيه، لأن كل ما كان يمتلكه قد كرسه أو قدمه لله لتوه. كان هذا هو جوهر الأنانية المتخفية وراء التقوى المدّعية الكاذبة؛ وكانت هذه الأساليب تُبطلُ أثر كلمة الله في التقليد. كان هذا مجرد مثالٍ عن انتهاك حق الله بالاتكال على النظم والتشريعات البشرية. وأضاف يسوع من جديد قائلاً: "أُمُوراً كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ".

ويخبرنا الإنجيل أنه بعد ذلك استغل الفرصة ليعلّم جميع الشعب عن طبيعة النجاسة الحقيقية. فقال: "«اسْمَعُوا مِنِّي كُلُّكُمْ وَافْهَمُوا. لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ خَارِجِ الإِنْسَانِ إِذَا دَخَلَ فِيهِ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ لَكِنَّ الأَشْيَاءَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ هِيَ الَّتِي تُنَجِّسُ الإِنْسَانَ". ثم يضيف قائلاً بوقار رزين: "إِنْ كَانَ لأَحَدٍ أُذْنَانِ لِلسَّمْعِ فَلْيَسْمَعْ". بهذه الكلمات وضع ربنا أساس مبدأٍ عظيم وأكّد على حقيقةٍ هائلة. فحتى الآن كان ضمير الإسرائيلي الحي يركز على الاهتمام بتوق عما يجب أن يفعله فيما يخص المأكل أو المشرب، لئلا يتناول، ولو بشكلٍ غير متعمدٍ أو مقصود، شيئاً كان نجساً بحسب الطقوس والشعائر، وبذلك يتنجسُ ويَصيرُ غير كفؤٍ لأن ينضم إلى رعية الرب عندما يجتمعون للعبادة في الهيكل. إلا أن يسوع أعلن أن النجاسة الأخلاقية والروحية تأتي ليس من أمورٍ خارجية كالطعام والشراب بل من داخل الإنسان نفسه، من قلبه ذاته، ذلك القلب الذي قال عنه إرميا النبي أنه أَخْدَعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ نَجيسٌ بشكل كبير (١٧: ٩).

"وَلَمَّا دَخَلَ مِنْ عِنْدِ الْجَمْعِ إِلَى الْبَيْتِ سَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ عَنِ الْمَثَلِ. فَقَالَ لَهُمْ: «أَفَأَنْتُمْ أَيْضاً هَكَذَا غَيْرُ فَاهِمِينَ؟ أَمَا تَفْهَمُونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَدْخُلُ الإِنْسَانَ مِنْ خَارِجٍ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ لأَنَّهُ لاَ يَدْخُلُ إِلَى قَلْبِهِ بَلْ إِلَى الْجَوْفِ ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى الْخَلاَءِ وَذَلِكَ يُطَهِّرُ كُلَّ الأَطْعِمَةِ». ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ ذَلِكَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ. لأَنَّهُ مِنَ الدَّاخِلِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ تَخْرُجُ الأَفْكَارُ الشِّرِّيرَةُ: زِنىً فِسْقٌ قَتْلٌ سِرْقَةٌ طَمَعٌ خُبْثٌ مَكْرٌ عَهَارَةٌ عَيْنٌ شِرِّيرَةٌ تَجْدِيفٌ كِبْرِيَاءُ جَهْلٌ. جَمِيعُ هَذِهِ الشُّرُورِ تَخْرُجُ مِنَ الدَّاخِلِ وَتُنَجِّسُ الإِنْسَانَ»" (٧: ١٧– ٢٣).

من الواضح أن هذه الكلمات لربنا قد أذهلت حتى تلاميذه أنفسهم، الذين كانوا معتادين على النظر إلى الأمور من وجهة النظر الطقسية. ولذلك عندما تركوا الجمع وكانوا في البيت لوحدهم مع يسوع سألوه أن يُوضِحَ ما كان قد قصده بحديثه كما فعل. وبحسب طرقه العادية المألوفة التي كان يتبعها في نهجه– وذلك بأن يكاشف بالحقيقة دائماً أولئك السائلين المخلصين الصادقين– قال لهم: "«أَفَأَنْتُمْ أَيْضاً هَكَذَا غَيْرُ فَاهِمِينَ؟ أَمَا تَفْهَمُونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَدْخُلُ الإِنْسَانَ مِنْ خَارِجٍ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ". هذه الأشياء الخارجية، كالطعام والشراب، كانت مجرد أشياء مادية: فما كانت لتقدر أن تؤثر على نفس الإنسان. بالطبع لم يكن ربنا يَنكر أنه كان هناك أطعمةً مؤذية ضارة بل وحتى سامة قد تُحدث ضرراً خطيراً كبيراً للجسد؛ ولكن ما كان في باله هنا هو نجاسةُ

الروح، وإقصاءُ المرء عن استحقاق الشركة مع الله. إن الطعام وأي شراب لا يدخل إلى القلب بل يمر عبر الجهاز الهضمي ولا يترك أي انطباعٍ أو تأثيرٍ على نفس أو روح المرء الذي أكلَ أو شَرِبَ.

"إِنَّ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الإِنْسَانِ ذَلِكَ يُنَجِّسُ الإِنْسَانَ"– أي من قلب الإنسان، فهذا ما ينجّس الإنسان، لأن القلب نفسه هو كمثل عش من الطيور النجسة. "مِنَ الدَّاخِلِ مِنْ قُلُوبِ النَّاسِ تَخْرُجُ الأَفْكَارُ الشِّرِّيرَةُ: زِنىً فِسْقٌ قَتْلٌ سِرْقَةٌ طَمَعٌ خُبْثٌ مَكْرٌ عَهَارَةٌ عَيْنٌ شِرِّيرَةٌ تَجْدِيفٌ كِبْرِيَاءُ جَهْلٌ". يا لها من قائمة! من يستطيع أن يقول أن هذه الأشياء لم يكن لها أيُ مكانٍ في قلبه! بالطبع هناك بعضٌ يَبغُضُ كلياً عديداً من هذه الأشياء، ومع ذلك فإن كل إنسانٍ هو عُرضة لأن يسقُطَ في كل خطيئةٍ قد ذُكِرَتْ هنا ولو لمجرد أن يسمح لِفِكرِهِ أن يُسْهِبَ فيها. ومع ذلك فهناك أُناسٌ يُنكرون فساد الطبيعة البشرية. لعلهم يفكرون بالقائمة الوارد ذكرها هنا ويجيبون على السؤال بصراحةٍ، هل يخلو قلبي من أيِّ شيءٍ من هذه الأشياء؟

عندما نتحدث عن الفساد الكامل في الطبيعة البشرية فإننا لا نعني بالضرورة أن كل الناس آثمون ومذنبون بكل الخطايا المعلنةِ هنا. إننا نعني أن كل الناس بالطبيعة بعيدون عن الله، وأن قابليتهم للقيام بكل هذه الأشياء موجودة في قلوبهم.

الدكتور جوزيف كوك، وفي إحدى المناسبات عندما يعترضُ على مبدأ فساد البشرية الذي ليس له أساس كتابي، استخدم هذا المثال التوضيحي: فقال أنه كان مهووساً بساعةٍ دقيقةٍ رائعة. لقد كانت تحفةً فنيةً جميلةً رائعةً، وتشكلُ حليةً للحجرة التي كانت قد وُضِعَت فيها. إن التحف الفنية كانت باهظةَ الثمن؛ كان وجه الساعة جميلاً للنظر إليه، والعقارب كانت متقنة الصنع للغاية، وبالإجمال كانت ساعةً تثير العجب. كان هناك شيءٌ واحدٌ فقط ليس على ما يرام فيها: أنها ما كانت تضبط الوقت. وبالتالي فهي فاسدة سيئة كلياً من ناحية الوقت. هكذا هو الحال مع الإنسان الطبيعي. إنه بعيدٌ عن الله؛ قلبه في خصومةٍ وعداوةٍ مع الله، ومن داخل ذلك القلب تنبعُ الخطايا بأشكالٍ مختلفةٍ متنوعةٍ عديدة. الحمد الله، هناك علاجٌ شافٍ لهذه الحالة. صلى داود أن "قَلْباً نَقِيّاً اخْلُقْ فِيَّ يَا اللهُ" (مز ٥١: ١٠)، وهذا ما يُسرُّ الله أن يعمله من خلال الولادة الجديدة.

إن كل الأشياء الشريرة التي ذكرها يسوع هنا تأتي من الداخل. هذه تُنَجسُ الإنسان. فكم من المهم بالحري أن نميز حقيقة أن هذه الأشياء تجد عشاً لها بشكلٍ طبيعي في القلب الإنساني، وأننا نَزِنُ الأمور كلها على ضوء صليب المسيح.

في القسم التالي نرى نعمة الله تمتدُ لتطال من هم خارج شعب إسرائيل.

"ثُمَّ قَامَ مِنْ هُنَاكَ وَمَضَى إِلَى تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ وَدَخَلَ بَيْتاً وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لاَ يَعْلَمَ أَحَدٌ فَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَخْتَفِيَ لأَنَّ امْرَأَةً كَانَ بِابْنَتِهَا رُوحٌ نَجِسٌ سَمِعَتْ بِهِ فَأَتَتْ وَخَرَّتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ أُمَمِيَّةً وَفِي جِنْسِهَا فِينِيقِيَّةً سُورِيَّةً – فَسَأَلَتْهُ أَنْ يُخْرِجَ الشَّيْطَانَ مِنِ ابْنَتِهَا. وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهَا: «دَعِي الْبَنِينَ أَوَّلاً يَشْبَعُونَ لأَنَّهُ لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ». فَأَجَابَتْ وَقَالَتْ لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ! وَالْكِلاَبُ أَيْضاً تَحْتَ الْمَائِدَةِ تَأْكُلُ مِنْ فُتَاتِ الْبَنِينَ». قَالَ لَهَا: «لأَجْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ اذْهَبِي. قَدْ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِنِ ابْنَتِكِ». فَذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِهَا وَوَجَدَتِ الشَّيْطَانَ قَدْ خَرَجَ وَالابْنَةَ مَطْرُوحَةً عَلَى الْفِرَاشِ" (٧: ٢٤– ٣٠).

كان الرب يسوع قد مَضَى إِلَى تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ– أي أنه انتقل خلال مسير رحلاته مع التلاميذ إلى المنطقة الشمالية الغربية من الجليل. كانت هذه المدن بعيدة عن الجليل، ولكن الرب نفسه، كما نجد مدوناً

لدينا، لم يكن قد خرج حتى الآن أبعد من الحدود التي تفصل فلسطين عن أراضي الأمميين، باستثناء المرة التي كان فيها طفلاً صغيراً، حيث أخذته أمه ووالده بالتربية، يوسف، إلى مصر هرباً من غضب هيرودس. لقد جاء إلى العالم، كما يقول بولس في (رومية ١٥: ٨)، كخادم للختان مِنْ أَجْلِ صِدْقِ اللهِ حَتَّى يُثَبِّتَ مَوَاعِيدَ الآبَاءِ. ورغم أنه كان يتطلع دوماً إلى الوقت الذي سيمجد فيه الأمميون الله لأجل رحمته، كما تشير الآية التالية، إلا أن خدمته، خلال حياته على الأرض، اقتصرت على الخراف الضالة من بيت إسرائيل.

أما الآن فنجده يلتقي بامرأة معينة يونانية، أممية صرفة، وَفِي جِنْسِهَا فِينِيقِيَّةً سُورِيَّةً. هذه المرأة كان في ابْنَتِهَا رُوحٌ نَجِسٌ. لقد كانت قد عانت الكثير بسبب هذه الحالة. ورغم أنها غريبة عن العهود الموعودة، فإن المرأة الفِينِيقِيَّة السُورِيَّة سمعت عن يسوع، وشعرت أنه بالتأكيد سوف يحرر ابنتها إن رغب في ذلك. لذلك جاءت ملتمسةً أن يطرد الروح النجس من ابنتها الشابة. في موضع آخر نعلم أنها استندت في مطلبها إلى حقيقة أنه ابن داود. من الواضح أنها علمت من جيرانها اليهود عن المسيا الذي كان سيأتي من نسل داود، وصدقت في إيمانها أن يسوع هو ذاك المنتظر. ولذلك جاءت تطلب إليه أن: "«ارْحَمْنِي يَا سَيِّدُ يَا ابْنَ دَاوُدَ. ابْنَتِي مَجْنُونَةٌ جِدّاً»" (متى ١٥: ٢٢). ولكنه حافظ على هدوئه. فلكونها خاطئة من الأمميين لم يكن لها الحق بأن تطالبه بأي شيء لكونه ابن داود الموعود. وأخيراً، وإذ استمرت في الصراخ وراءه، قال: "«دَعِي الْبَنِينَ أَوَّلاً يَشْبَعُونَ لأَنَّهُ لَيْسَ حَسَناً أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ الْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلاَبِ»". قد يبدو هذا القول قاسياً، ولكن وكما أن يوسف قد اتهم إخوته بأنهم جواسيس لكي يسبر ضمائرهم، كذلك فإن الرب أجاب المرأة هكذا لكي يأتي بها إلى إدراك أنه حقها بالبركة كان إنما استناداً إلى النعمة الصافية النقية فقط.

لقد تجاوبت بطريقة رائعة. لم يكن لديها شعور بالاستياء أو الامتعاض بسبب حديثه إليها مهيناً أو بتكلمه معها بطريقة فظة جافة. فَأَجَابَتْ بتواضع وَقَالَتْ لَهُ: "«نَعَمْ يَا سَيِّدُ! وَجراء الْكِلاَب أَيْضاً (وهنا استخدمت صيغة مصغرة، جراء الكلاب) تَحْتَ الْمَائِدَةِ تَأْكُلُ مِنْ فُتَاتِ الْبَنِينَ»". لكأنها كانت تقول : "يا سيد، أعرف حقيقة أنني بائسة، وثنية منبوذة، ولكن أعطني، يا سيد، بعضاً من الكسر التي يرميها أبناء الملكوت. اسمح لي أن أكون بمكانة الجرو وبهذا أنال رحمة من يدك". لم يكن هناك ما يروق لربنا المبارك أكثر من الإيمان الممزوج بالتواضع. فأجابها قائلاً: "«لأَجْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ اذْهَبِي. قَدْ خَرَجَ الشَّيْطَانُ مِن ابْنَتِكِ»". وإذ هرعت إلى منزلها، بقلب مبتهج وآمال كبيرة بلا شك وهي تدخل البيت، وجدت الابْنَةَ مَطْرُوحَةً عَلَى الْفِرَاشِ والشَّيْطَانَ قَدْ خَرَجَ.

"ثُمَّ خَرَجَ أَيْضاً مِنْ تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ وَجَاءَ إِلَى بَحْرِ الْجَلِيلِ فِي وَسْطِ حُدُودِ الْمُدُنِ الْعَشْرِ. وَجَاءُوا إِلَيْهِ بِأَصَمَّ أَعْقَدَ وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ. فَأَخَذَهُ مِنْ بَيْنِ الْجَمْعِ عَلَى نَاحِيَةٍ وَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ وَتَفَلَ وَلَمَسَ لِسَانَهُ وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ وَأَنَّ وَقَالَ لَهُ: «إِفَّثَا». أَيِ انْفَتِحْ. وَلِلْوَقْتِ انْفَتَحَتْ أُذْنَاهُ وَانْحَلَّ رِبَاطُ لِسَانِهِ وَتَكَلَّمَ مُسْتَقِيماً. فَأَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يَقُولُوا لأَحَدٍ. وَلَكِنْ عَلَى قَدْرِ مَا أَوْصَاهُمْ كَانُوا يُنَادُونَ أَكْثَرَ كَثِيراً. وَبُهِتُوا إِلَى الْغَايَةِ قَائِلِينَ: «إِنَّهُ عَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ حَسَناً! جَعَلَ الصُّمَّ يَسْمَعُونَ وَالْخُرْسَ يَتَكَلَّمُونَ!»".

إذ ترك شواطيء صور وصيداء، عبر يسوع إلى الجزء الشمالي من بحر الجليل ودخل إلى قارب، واجتاز البحر مرة أخرى ليزور الْمُدُن الْعَشْر. هذه هي المنطقة التي كان يعيش فيها رجل القبور ذاك الذي من جدرة الذي كان ممسوساً. بعد أن حرّره يسوع، طلب إليه أن يمضي إلى منزله وأن يخبر أصدقاءه بالأمور

العظيمة التي صنعها الرب له. ولذلك نشر الخبر السار، كما يخبرنا الإنجيل، في كل أرجاء الْمُدُنِ الْعَشْرِ. ولذلك فعندما رجع يسوع إلى هناك كان الناس مستعدين لاستقباله. ومن المحتمل أن نفس الأشخاص الذين كانوا قد طلبوا منه في الحادثة السابقة أن يغادر شواطئهم قد كانوا وسط الحشد الذين جاؤوا إليه وهم يتوقون لسماع كلامه ومعاينة معجزاته. ونعلم من الإنجيل أنهم جَاءُوا إِلَى يسوع بِأَصَمَّ أَعْقَدَ اللسان وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ– تلك اليد الحانية التي طالما ارتفعت لتمنح البركة، والتي بلمستها كان يتبدد كل دنس ونجاسة. ولكن الرب تعامل مع هذا الرجل بطريقة مميزة نوعاً ما. فبدلاً من شفائه علانية على الملأ أمام كل الناس، وإدراكاً منه لحقيقة أن لمعارضة له كانت آخذة في الازدياد، أخذه على ناحية من بين الجمع، ووضع إصبعه في أذنيه، ثم تفل ولمس لسانه. قد نتعجب من ذلك، ولكن علينا أن نتذكر أن ناسوت ربنا يسوع المسيح كان مقدساً ونقياً بشكل مطلق، لم تمسه الخطيئة أو الفساد من أي نوع كان. من الواضح أنه كان يشير إلى أن الشفاء أتى من داخل كيانه نفسه. إذ رَفَعَ (يسوع) نَظَرَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ أَنَّ إذ أدرك الخراب والتلف الذي خلّفتْه الخطيئة من كل ناحية، ثم تحدث بالآرامية قائلاً: "«إِفَّثَا»" أَيِ "انْفَتِحْ". وللوقت صار الرجل قادراً على أن يسمع وأن يتكلم أيضاً. وطلب يسوع ممن كانوا يحيطون به ألا يذيعوا الخبر. كما لاحظنا، لم تكن لدى يسوع رغبة بأن ينال شهرة كصانع معجزات. فبينما كان مستعداً على الدوام لأن يخدم الناس في حاجاتهم، كانت رسالته العظيمة هي أن يعلن إنجيل الملكوت أينما ذهب من مكان إلى آخر. ولكن الناس كانوا متحمسين جداً بنتيجة رؤيتهم لقوته المقتدرة حتى أنهم كلما أوصاهم ألا يقولوا شيئاً عنها، كانوا يذيعون الخبر أكثر. ونعلم أنهم "بُهِتُوا إِلَى الْغَايَةِ قَائِلِينَ: «إِنَّهُ عَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ حَسَناً! جَعَلَ الصُّمَّ يَسْمَعُونَ وَالْخُرْسَ يَتَكَلَّمُونَ!»".

بالتأكيد كل من يعرف المسيح، بأية درجة كانت، سينضم بفرح إلى أولئك الناس الذين في المدن العشر في نسب كل الشرف والمجد لذاك الذي صنع كل الأشياء بشكل حسن.

الأصحاح ٨

يختتم الجزء الحالي بالآية ٩ من هذا الأصحاح. ورغم أن الحادثة المروية في هذا المقطع ليس لها علاقة مباشرة بالمجادلات التي كان الرؤساء يرغبون بفرضها على يسوع بدون رغبة منه، إلا أنها توصلنا إلى نهاية أحد مظاهر أو جوانب خدمته.

"فِي تِلْكَ الأَيَّامِ إِذْ كَانَ الْجَمْعُ كَثِيراً جِدّاً وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ دَعَا يَسُوعُ تَلاَمِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنِّي أُشْفِقُ عَلَى الْجَمْعِ لأَنَّ الآنَ لَهُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ يَمْكُثُونَ مَعِي وَلَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ. وَإِنْ صَرَفْتُهُمْ إِلَى بُيُوتِهِمْ صَائِمِينَ يُخَوِّرُونَ فِي الطَّرِيقِ لأَنَّ قَوْماً مِنْهُمْ جَاءُوا مِنْ بَعِيدٍ». فَأَجَابَهُ تَلاَمِيذُهُ: «مِنْ أَيْنَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُشْبِعَ هَؤُلاَءِ خُبْزاً هُنَا فِي الْبَرِّيَّةِ؟» فَسَأَلَهُمْ: «كَمْ عِنْدَكُمْ مِنَ الْخُبْزِ؟» فَقَالُوا: «سَبْعَةٌ». فَأَمَرَ الْجَمْعَ أَنْ يَتَّكِئُوا عَلَى الأَرْضِ وَأَخَذَ السَّبْعَ خُبْزَاتٍ وَشَكَرَ وَكَسَرَ وَأَعْطَى تَلاَمِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا فَقَدَّمُوا إِلَى الْجَمْعِ. وَكَانَ مَعَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ صِغَارِ السَّمَكِ فَبَارَكَ وَقَالَ أَنْ يُقَدِّمُوا هَذِهِ أَيْضاً. فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا ثُمَّ رَفَعُوا فَضَلاَتِ الْكِسَرِ: سَبْعَةَ سِلاَلٍ. وَكَانَ الآكِلُونَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلاَفٍ. ثُمَّ صَرَفَهُمْ" (٨: ١– ٩).

"إِذْ كَانَ الْجَمْعُ كَثِيراً جِدّاً وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ". لقد كانت الظروف مشابهة لتلك الحادثة التي جرت قبل بضعة أشهر. ومع ذلك فمن الواضح أن التلاميذ كانوا قد نسوا– كما نفعل نحن أيضاً في معظم الأحيان– التجلي اللافت المميز للقدرة الإلهية التي رأوها في ذلك الوقت.

"إِنِّي أُشْفِقُ عَلَى الْجَمْعِ". لقد تأثر قلب يسوع بحاجة الجمع، وكان قلبه هو الذي يدفعه لتقديم يد العون لهم. لقد كانوا محتشدين حوله "لثلاثة أيام"، وكانوا ينتبهون إلى تعليمه، إلى أن نفذت كل مؤن الطعام لديهم، والآن "لَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ". ولم يستطع أن يحتمل أن يتركهم في هذه الحالة البائسة.

"إِنْ صَرَفْتُهُمْ إِلَى بُيُوتِهِمْ صَائِمِينَ يُخَوِّرُونَ فِي الطَّرِيقِ". كان كثيرون منهم يقطنون بعيداً جداً عن المكان الذي كانوا فيه. فأن يذهبوا جياعاً إلى منازلهم سيكون أمراً شاقاً حقاً عليهم.

"«مِنْ أَيْنَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُشْبِعَ هَؤُلاَءِ خُبْزاً هُنَا فِي الْبَرِّيَّةِ؟»". هذه عبارة دلّت على جحود قلب التلاميذ. سيبدو لنا أمراً لا يُصدق أنهم سرعان ما نسوا الحادثة السابقة، إن لم نعرف شيئاً عن انعدام الثقة وعدم الإيمان في قلوبنا.

"«كَمْ عِنْدَكُمْ مِنَ الْخُبْزِ؟» فَقَالُوا: «سَبْعَةٌ»". لقد كانت هذه الزوادة التي أعدوها لحاجتهم الخاصة، ولكن أمكنهم أن يتمتعوا بامتياز مشاطرة الآخرين بها. لا حظوا أنهم هذه المرة لم يتدبّروا الطعام من شخص آخر.

"أَخَذَ السَّبْعَ خُبْزَاتٍ وَشَكَرَ وَكَسَرَ وَأَعْطَى". بإتباعه نفس ما فعل في المرة السابقة، تم ترتيب جلوس الناس على الأرض، وبعد أن شكر، كسر يسوع الخبز وأعطاه لتلاميذه ليوزعوه على الجمع.

"كَانَ مَعَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ صِغَارِ السَّمَكِ". لماذا لم تُذكر هذه من قبل؟ هل كان التلاميذ المتشككون قد أبقوها لأنفسهم إلى أن رأوا تضاعف إو تكثير الخبز؟ من الواضح أن الأسماك قد بُورِكت على نحو منفصل ثم وُزِّعَتْ كما الخبز.

"فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا ثُمَّ رَفَعُوا فَضَلاَتِ الْكِسَرِ: سَبْعَةَ سِلاَلٍ". من جديد كانت هناك وفرة وفضلات كِسَر. فبقايا الخبز والسمك عُهِدَ إليه أن يوزعها، وجمع التلاميذ ما بقي في سبعة سلال من الطعام الزائد– وهذه كمية كافية تدوم لفترة طويلة.

"وَكَانَ الآكِلُونَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلاَفٍ". ويضيف متى قائلاً: "مَا عَدَا النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ" (متى ١٥: ٣٨).

أنواع السلال:

لقد قيل أن في النص اليوناني الأصلي كلمتين مختلفتين تشيران إلى نوعين مختلفين من السلال واردتين في هاتين الروايتين. في الأصحاح السادس، بعد إطعام الخمسة آلاف، كانت هناك اثنتي عشر سلة يد قد رُفِعَتْ– هذه من النوع الذي كان الجمع يحملها معه خلال ترحاله سيراً على الأقدام. وفي الحادثة الثانية، رُفِعَتْ سبع سلال سبتية. وهذه كانت سلالاً كبيرة من النوع الذي كان يُستخدم غالباً لحمل السمك أو نقل بقية البضائع.

الأرقام في الكتاب المقدس:

إن العدد ١٢ يُستخدم عادة في الكتاب المقدس للإشارة إلى الكمال الإداري، في حين يدل العدد ٧ إلى الكمال الصوفي الباطني أو الروحي. كانت السلال الاثني عشر تدل على التدبير الوافر الذي سيتم التمتع به خلال سيادة حكم المسيا. السلال السبع تدل على كمال البركة الروحية عندما نعلم أننا لا نحيا بالخبز وحده، "بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (متى ٤: ٤).

إحدى أسماء الله في العهد القديم كان "إيل شدّاي"– أي الإله الكامل الكفاءة. لقد كان الرب يُظهر نفسه كإله متجسّد، بالغ القدرة على سد كل حاجة عندما أطعم الجموع الذين احتشدوا، في هاتين المناسبتين، لسماعه يكرز بإنجيل الملكوت. إن مؤوناته غير محدودة. ما نحتاج إليه هو الإيمان لكي نتّكل على غنى رحمته وأن ندنو من مخزنه الوافر الفيّاض. الخبز الذي كان يعطيه أعطى صورة عن ذاته كخبز الله النازل من السماء، الذي إن أكل الإنسان منه يحيا إلى الأبد (يوحنا ٦: ٣٣).

القسم (٣)- ٨: ١٠- ٩: ٨
الإعلان عن المجد الآتي

"وَلِلْوَقْتِ دَخَلَ السَّفِينَةَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَجَاءَ إِلَى نَوَاحِي دَلْمَانُوثَةَ. فَخَرَجَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَابْتَدَأُوا يُحَاوِرُونَهُ طَالِبِينَ مِنْهُ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ لِكَيْ يُجَرِّبُوهُ. فَتَنَهَّدَ بِرُوحِهِ وَقَالَ: «لِمَاذَا يَطْلُبُ هَذَا الْجِيلُ آيَةً؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَنْ يُعْطَى هَذَا الْجِيلُ آيَةً!» ثُمَّ تَرَكَهُمْ وَدَخَلَ أَيْضاً السَّفِينَةَ وَمَضَى إِلَى الْعَبْرِ" (٨: ١٠– ١٣).

إذ عاد إلى الشاطئ الغربي من البحيرة، في نواحي دَلْمَانُوثَةَ، أو ماجدان، التقى يسوع ببعض الفريسيين الذين لديهم اعتراضات تافهة على ما يقوم به، الذين كانوا يتجاهلون كل الأعمال العجيبة المدهشة التي قام بها، والذين جاؤوا الآن يطلبون آيةً من السماء تصادق على مسيانيته.

نعلم من الإنجيل أنه تنهّد في روحه، وقد حزن في أعمق أعماقه إذ وجد هذا الجحود والمقاومة المتعمدة الموطّدة من جهة أولئك الذين كان يجب أن يقودوا عامة الشعب في طريق الإذعان لله وإطاعة كلمته. لماذا يطلبون آيةً؟ لقد كان هذا إنما دليل على حالة قلوبهم. لقد أعلن أنه لن تُعطَ أية علامة إلى ذلك الجيل الفاسد. لقد كانوا متمسكين بموقف العدائية نحوه وهو الذي أرسله الله ليفتدي إسرائيل.

تاركاً إياهم لجحودهم وقسوة قلوبهم غادر الرب من جديد إلى الجانب الآخر من البحيرة، أي إلى منطقة بيت صيدا جوليا. إذ كانت هناك مدينتان لهما نفس الاسم "بيت صيدا"، الأولى على الشاطئ الغربي من بحر الجليل والأخرى على الجانب الشمالي.

"وَنَسُوا أَنْ يَأْخُذُوا خُبْزاً وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ فِي السَّفِينَةِ إِلاَّ رَغِيفٌ وَاحِدٌ. وَأَوْصَاهُمْ قَائِلاً: «انْظُرُوا وَتَحَرَّزُوا مِنْ خَمِيرِ الْفَرِّيسِيِّينَ وَخَمِيرِ هِيرُودُسَ. فَفَكَّرُوا قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «لَيْسَ عِنْدَنَا خُبْزٌ». فَعَلِمَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ أَنْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ خُبْزٌ؟ أَلاَ تَشْعُرُونَ بَعْدُ وَلاَ تَفْهَمُونَ؟ أَحَتَّى الآنَ قُلُوبُكُمْ غَلِيظَةٌ؟ أَلَكُمْ أَعْيُنٌ وَلاَ تُبْصِرُونَ وَلَكُمْ آذَانٌ وَلاَ تَسْمَعُونَ وَلاَ تَذْكُرُونَ؟ حِينَ كَسَّرْتُ الأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ لِلْخَمْسَةِ الآلاَفِ كَمْ قُفَّةً مَمْلُوَّةً كِسَراً رَفَعْتُمْ؟» قَالُوا لَهُ: «اثْنَتَيْ عَشْرَةَ». «وَحِينَ السَّبْعَةِ لِلأَرْبَعَةِ الآلاَفِ كَمْ سَلَّ كِسَرٍ مَمْلُوّاً رَفَعْتُمْ؟» قَالُوا: «سَبْعَةً». فَقَالَ لَهُمْ: «كَيْفَ لاَ تَفْهَمُونَ؟»" (٨: ١٤– ٢١).

من الواضح أن التلاميذ وفي عجلتهم لمغادرة دَلْمَانُوثَةَ لم ينتبهوا إلى التزود من جديد بالخبز– تلك الأرغفة المنبسطة المميزة لتلك الديار، والتي كان حملها أمراً في غاية السهولة خلال الترحال. كان واضحاً وجود بعض الفهم بأنه يمكنهم الحصول على كل ما يمكن أن يحتاجونه عندما ينزلون من السفينة. واستغل الرب الفرصة لينبههم، عندما أدرك ارتباكهم وحيرتهم، ويحذّرهم من خمير الفريسيين ومن خمير هيرودس. أما وقد وبّخهم ضميرهم بسبب إهمالهم وعدم انتباههم لإعداد المؤونة المناسبة لحاجات الجماعة، قفز التلاميذ إلى الاستنتاج بأن هذا تحذير لئلا يشتروا الخبز من الطرفين اللذان يذكرهما الرب. ولكن الرب أوضح لهم أنه باستخدامه لكلمة "خمير" إنما كان يشير إلى العقائد أو المبادئ في هذين النظامين الدينيين والسياسيين، لكونهما فاسدين، ويعملان فساداً في كل من يتشرب هذه العقائد. خمير الفريسيين كان المراءاة والبر الذاتي. وخمير هيرودس كان الاحتيال السياسي والانهماك في شؤون الدنيا.

ليريح فكر التلاميذ من جهة الطعام المناسب لأجسادهم ذكّرهم يسوع بإطعامه العجائبي للخمسة آلاف في إحدى المناسبات والآلاف الأربعة في المناسبة الأخرى. ففي كل حالة لم يكن هناك فقط وفرة للجميع

بل إن سلالاً كثيرة من الكِسر حُفِظتْ لتستخدم في المستقبل. فلماذا يهتم المرء إذاً أو يقلق بخصوص ما يأكل في الغد طالما أن خالق كل شيء كان معهم؟ كم كان التلاميذ الاثني عشر يشعرون بالخجل من شكوكهم ومخاوفهم، عندما سألهم يسوع: "«كَيْفَ لاَ تَفْهَمُونَ؟»".

عندما وصلوا بيت صيدا جوليا شهدوا دليلاً آخر على قدرة معلّمهم.

"وَجَاءَ إِلَى بَيْتِ صَيْدَا فَقَدَّمُوا إِلَيْهِ أَعْمَى وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسَهُ فَأَخَذَ بِيَدِ الأَعْمَى وَأَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجِ الْقَرْيَةِ وَتَفَلَ فِي عَيْنَيْهِ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ وَسَأَلَهُ هَلْ أَبْصَرَ شَيْئاً؟ تَطَلَّعَ وَقَالَ: «أُبْصِرُ النَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ». ثُمَّ وَضَعَ يَدَيْهِ أَيْضاً عَلَى عَيْنَيْهِ وَجَعَلَهُ يَتَطَلَّعُ. فَعَادَ صَحِيحاً وَأَبْصَرَ كُلَّ إِنْسَانٍ جَلِيّاً. فَأَرْسَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ قَائِلاً: «لاَ تَدْخُلِ الْقَرْيَةَ وَلاَ تَقُلْ لأَحَدٍ فِي الْقَرْيَةِ»" (٨: ٢٢– ٢٦).

هذه الأعجوبة كانت ذات طابع استثنائي. حتى الآن، وكما نرى في رواية الإنجيل، هذه هي الحادثة الوحيدة التي كان الشفاء فيها جزئياً في البداية وليس فورياً.

جاء رجل أعمى إلى يسوع، كان أصدقاءه قد أحضروه، وطلبوا إليه أن يلمس العينين المغلقتين ليمنح البصر لهذا البائس المبتلي. وبدلاً من أن يفعل ذلك في حضور كل الناس أخذ يسوع الأعمى بيده وأخرجه إلى خارج المدينة. وكأنه بذلك قد شعر أن الكثيرين في الحشد كانوا مجرد فضوليين، فأراد أن يأخذ الرجل على حدى وأن يقدم خدمة له وحده. ثم وضع يديه عليه وسأله إن كان يستطيع أن يرى. فقال الرجل: "«أُبْصِرُ النَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ»". لقد استعاد البصر جزئياً. أمكنه أن يرى أشياء مختلفة ولكن ما كان يستطيع تمييز الناس عن الأشجار إلا من كونهم يسيرون. من جديد وضع الرب يديه على عيني الرجل وطلب منه أن يتطلع. والآن تم شفاؤه بشكل كامل، ورأى جميع الناس بوضوح.

لا نعلم لَمَ لم يكن الشفاء فورياً، ربما بسبب انعدام الإيمان الكامل عند الرجل الأعمى أو أصدقائه. أما وقد أنجز يسوعُ العملَ، فإنه صرف الرجل الذي صار سعيداً الآن، طالباً منه ألا يعود إلى القرية وألا يخبر أحداً بشفائه.

ويتحول انتباهنا بعد ذلك إلى اعتراف بطرس الهام وإخفاقه لاحقاً.

"ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ إِلَى قُرَى قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ. وَفِي الطَّرِيقِ سَأَلَ تَلاَمِيذَهُ قَائِلاً لَهُمْ: «مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابُوا: «يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ وَآخَرُونَ إِيلِيَّا وَآخَرُونَ وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ». فَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ الْمَسِيحُ!» فَانْتَهَرَهُمْ كَيْ لاَ يَقُولُوا لأَحَدٍ عَنْهُ. وَابْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيراً وَيُرْفَضَ مِنَ الشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ وَيُقْتَلَ وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ يَقُومُ. وَقَالَ الْقَوْلَ عَلاَنِيَةً فَأَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَابْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ. فَالْتَفَتَ وَأَبْصَرَ تَلاَمِيذَهُ فَانْتَهَرَ بُطْرُسَ قَائِلاً: «اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ لأَنَّكَ لاَ تَهْتَمُّ بِمَا لِلَّهِ لَكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ». وَدَعَا الْجَمْعَ مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي. فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا. لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟ لأَنَّ مَنِ اسْتَحَى بِي وَبِكَلاَمِي فِي هَذَا الْجِيلِ الْفَاسِقِ الْخَاطِئِ فَإِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يَسْتَحِي بِهِ مَتَى جَاءَ بِمَجْدِ أَبِيهِ مَعَ الْمَلاَئِكَةِ الْقِدِّيسِينَ»" (٨: ٢٧– ٣٨).

"«مَنْ يَقُولُ النَّاسُ إِنِّي أَنَا؟»" لقد طرح هذا السؤال على التلاميذ لكي يتوصلوا إلى اعتراف محدد من جهتهم بمسيانيته وبنوته لله. وإذ كانوا يتجولون من مكان لآخر، سمعوا أناساً كثيرين يجادلون يسوع، ولا شك أنهم تفكروا في قلوبهم في الأشياء التي قيلت.

"فَأَجَابُوا: «يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانُ وَآخَرُونَ إِيلِيَّا وَآخَرُونَ وَاحِدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ»". نعلم أن هيرودس، الذي نخسه ضميره الشاعر بالإثم، كان يشعر بالتأكيد أن يسوع هو يوحنا وقد قام من بين الأموات. آخرون كانوا يشاطرونه نفس الرأي. وكان البعض يظن، وقد تذكروا الإعلان النبوي المدون في ملاخي ٤: ٥، أنه لا بد أن يكون إيليا الموعود؛ في حين أن فئة أخرى رأوا فيه ببساطة نبياً جديداً ظهر فجأة في إسرائيل.

"«وَأَنْتُمْ مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟»". لا يكفي أن نعرف آراء الآخرين في يسوع، سواء كانت خطأ أم صواب. سؤال ربنا كان يقصد به التأكيد على مسؤولية الأفراد في أن يعرفوه بأنفسهم. كان جواب بطرس بنتيجة اقتناع عميق يستند على إعلان إلهي بقوله: "«أَنْتَ الْمَسِيحُ!»". الاعتراف الذي هو أكمل ما يكون والموجود في متى ١٦: ١٦ هو إعلان هذا التلميذ إيمانه بيسوع على أنه مسيا إسرائيل وابن الله. إنه كلاهما. وفي الواقع، ما كان ليمكن أن يكون المسيا (المسيح) لو لم يكن ابن الله، لأن المسيح كان الابن المعطى والطفل المولود، كما تنبأ أشعياء ٩: ٦. له يقول الآب: "أَنْتَ ابْنِي. أَنَا الْيَوْمَ وَلَدْتُكَ" (مز ٢: ٧).

"فَانْتَهَرَهُمْ كَيْ لاَ يَقُولُوا لأَحَدٍ عَنْهُ". لا يذكر مرقس إطراء الرب لبطرس، أو كلماته النبوئية عن بناء كنيسته على صخرة ألوهيته، ولا عن إعطائه مفاتيح السماء، هذه التي استخدمها بطرس في يوم الخمسين وفي منزل كورنيليوس للسماح لليهود والأمميين بالدخول إلى الملكوت في مظهره الحالي.كل ما نعلم به هنا هو أنه في الوقت الحاضر ذاك ما كان لهم أن يبدأوا العمل على تعريف العالم به في شخصيته الحقيقية. هذا كان يجب إرجاؤه إلى ما بعد موته وقيامته وصعوده إلى يمين الله في السماء.

"ابْنَ الإِنْسَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيراً ..... وَيُقْتَلَ وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ يَقُومُ". لقد كان ربنا يعرف تماماً ما ينتظره، وأخبر تلاميذه بأوضح تعابير بترتيب الأحداث التي ستصير. لقد جاء إلى العالم كي يموت. وبينما سيُظهر موتُه بغض الإنسان الشديد لله، إلا أنه أيضاً سيكون أسمى تعبير عن محبة الله للإنسان. هذا كان سيليه قيامة يسوع بالجسد المادي نفسه، وفي هذا دليل على أن الفداء قد أُكمل، وهكذا يتبرر المؤمن من كل الأشياء. يجب أن تُؤخذ المعرفة السابقة التي عند يسوع بالاعتبار من ثلاث نواحٍ، جميعها متناغمة مع بعضها البعض. فبالدرجة الأولى، رغم أنه صار إنساناً، فهو لم ينقطع عن أن يبقى إلهاً، ولذلك فقد كان يعرف من البدء كل الأشياء التي سيمر بها. ثم كإنسان كان تلميذاً للكلمة. لقد كان يعرف الكتابات المقدسة وجاء لتحقيقها. ولذلك فقد استند في تنبؤاته على الكتاب المقدس. وأخيراً، كان نبياً يتحدث بتوجيه مباشر من الروح القدس.

"فَأَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَابْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ". هذا التلميذ الذي اعترف قبل وهلة بيسوع على أنه المسيح، ابن الله الحي، يتجرأ الآن وينتهر (يسوع) وكأنه إنسانٌ مثبط الهمة ويتحدث من منطلق شخص محطم ومخيب بسبب المعارضة المستمرة من قِبَلِ خصومه.

"اذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ". سرعان ما أدرك الرب حماقة بطرس، رغم أن كلماته كانت ذات مغزى وتميّزَ فيها صوت العدو (الشيطان)، يحاول تنحيته عن الصليب، حيث كان ينبغي أن يموت كذبيحة أسمى عن

الخطيئة. لقد أسكت توبيخُه الحاد ذلك الرسول المضطرب المتحامق، ولكن لا بطرس ولا الآخرين دخلوا حقيقةً إلى الكشف المعطى لهم.

ضرورة موت المسيح:

ما كان ليمكن بأي طريقة أخرى سوى موت ربنا القرباني يستطيع بها أن يصنع كفارة عن الخطيئة. الكلمة التي تُرجمت هكذا في العهد القديم تشتمل على معاني التسكين، والاسترضاء، والبدلية، والفداء، والتهدئة، والمصالحة. إنها أبعد بكثير من "كفارة" التي قبلها كثيرون كمعنى حقيقي. في العهد الجديد، الكلمة العبرية التي تُرجمت إلى هذه المعاني المختلفة يُستعاضُ عنها بكلمة يونانية تعني "كفارة استرضائية". كل هذه المعاني المختلفة يشتمل عليها الموت البدلي ليسوع على الصليب. ولكن بدون القيامة تصبح كل هذه المفردات لا معنى لها.

"فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي". رجل يحمل الصليب هو رجلٌ ماضٍ إلى الموت. التلميذ الحقيقي ليسوع هو التلميذ المستعد لرفض متطلبات الذات الخاصة والمستعد لأن "يموت كل يوم" لأجل معلمه (١ كورنثوس ١٥: ٣١). أن ينكر المرء ذاته هو أكثر من نكران النفس أو اللا أنانية. إنه يعني التنحية الكاملة لحياة الذات، لكيما يُرى المسيح وحده (غلاطية ٢: ٢٠).

"فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا". تابعُ يسوع المعترفُ به والمهتم بمصلحته الشخصية على أتمها كما يقول الناس، والذي يحيا ليرضي رغباته الطبيعية سيكتشف عند كرسي المسيح للدينونة أن حياته لم تُحسب لله، وأنها ضائعة خاسرة حقاً. من جهة أخرى قال يسوع: "مَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ الإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا". حياةٌ بُذلت لأجل المسيح هي حياة مخلصة محفوظة لذلك اليوم عندما ستتم، بشكلٍ مُجْزٍ، مكافأةُ كل ما عُمِلَ لأجل مجد الله وإعلان إنجيله. "لأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ الإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ الْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟" (أو يخسر حياته). أي أن المكسب الحالي المؤقت سيصير إلى لا شيء إذا ما تبددت النفس، الحياة الحقة، في أشياء لا تنفع. إن الحياة الوحيدة التي تعتبر وتنفع هي تلك التي يعيشها المرء إلى الأبدية.

"مَاذَا يُعْطِي الإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟". هذا السؤال يُستخدم عموماً وكأنه يعني: "ما الذي يأخذه الإنسان مقابل نفسه؟" ولكن العكس هو الصحيح. فالنفس ضائعة ضالة، وماذا يعطي الإنسانُ لكي يردها إلى طريق الصواب؟ حالته كلها ستكون بلا طائل. لا يمكنه أن يسترد الحياة التي بددها بسبب الخطيئة والأنانية.

بعد ذلك أعلن يسوع بجلال أنه سيستحي في يوم الحساب الأخير من كل من يستحي به الآن. كل شيء للأبدية يعتمد على موقفنا نحو الرب يسوع المسيح. أن نعترف به علانيةً أمام الناس يعني الحياة الأبدية والخلاص. وأن ننكره أو نستحي به يعني الدينونة الأبدية والهلاك المقيم.

المسيح هو محك كل القلوب. فكمثل موقفنا نحوه سيكون موقف الله نحونا عندما يأتي يوم الجزاء. لكي يخلّصَ نفوسَنا ويجعلنا كلياً له، وضع ربنا يسوع حياته. لقد أحب الكنيسةَ وبذل نفسَه عنها (أفسس ٥: ٢٥). لم يكن يعتبر أي تضحيةٍ غاليةً إن كانت في سبيل أن يفتدينا ويجعلنا خاصته بها. وبالتأكيد، إذاً، علينا أن نكون على استعداد لأن نمضي حتى إلى الموت لكي نبرهن على محبتنا له. لقد كان موتُه كفارياً. وبه نتبرر عندما نؤمن به (أعمال ١٣: ٣٩). لقد أُزيلت خطايانا إلى الأبد بدمه الثمين. وما كنا لنستطيع أبداً أن نكون مشاركين في الكفارة الاسترضائية، بل إننا مدعوون لأن ننكر أنفسنا وأن نضع حياتنا، إن اقتضت الحاجة، لنثبت إيماننا به

ومحبتنا لعالمٍ قدّم (يسوع) ذاتَه لأجله (٢ يوحنا ٤: ١٠، ١١). إن كان المسيح مات عن الجميع، فالله رأى الجميع أمواتاً آنذاك، لكيما يحيا أولئك الذين يؤمنون به من الآن فصاعداً، لا لأنفسهم بل لذاك الذي مات وقام ثانيةً (٢ كور ٥: ١٤، ١٥).

أخبر يسوع تلاميذه مراراً وتكراراً عن موته الوشيك وقيامته؛ ولكنهم بدوا عاجزين تماماً عن استيعاب معنى كلماته. إلا أنه لأجل هذا الهدف جاء إلى العالم واتخذ طبيعة بشرية في اتحاد مع طبيعته الإلهية.

وكان الصليب نصب عينيه طوال حياته. فصار إنساناً لكي يموت كفادٍ من أقربائنا يفكنا (لاويين ٢٥: ٤٨) ليأتي بنا إلى الحياة والحرية (الانعتاق). قرأت منذ زمنٍ عظة عن "تهور يسوع"، وفيها ندب الكارز (الواعظ)، الذي يبدي في نفس الوقت إعجاباً شديداً بجدية هدفه، الاندفاع المتهور المحزن الذي دفعه للذهاب إلى أورشليم في المرة الأخيرة، وبهذا يرمي نفسه، حرفياً، في فم الخطر ومواجهاً في المحكمة معارضة ومقاومة رؤساء إسرائيل، الذين كانوا عازمين على إهلاكه. واقترح هذا المجدف غير الواعي أنه كم كان أفضل للعالم وبكثير لو بقي يسوع هادئاً مستكيناً في الجليل، فلعله كان ليؤسس مدرسة للمعلمين في كفرناحوم، ولربما كتب العديد من الكتب، وبها كان سيغني الأدب الديني للعالم، ولكان مات في خاتمة المطاف بعد عمرٍ مديد، مُكرَّماً ومحبوباً من قِبَلِ عدد لا يحصى من التلاميذ، الذين كان ليمكن ائتمانهم ليحملوا تعليمه إلى أقاصي الأرض. إن المرء ليرتعد وهو يسمع هذه الترهات الفاسدة الفظيعة.

الأصحاح ٩

الآيات الثمانية الأولى من هذا الأصحاح من الجزء الختامي لهذا القسم الثالث، الذي نرى فيه تصوراً مسبقاً عن المجد العتيد أن يُعلن لدى المجيء الثاني للرب يسوع.

"وَقَالَ لَهُمُ: «الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ هَهُنَا قَوْماً لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ». وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ أَخَذَ يَسُوعُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا وَصَعِدَ بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ مُنْفَرِدِينَ وَحْدَهُمْ. وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ وَصَارَتْ ثِيَابُهُ تَلْمَعُ بَيْضَاءَ جِدّاً كَالثَّلْجِ لاَ يَقْدِرُ قَصَّارٌ عَلَى الأَرْضِ أَنْ يُبَيِّضَ مِثْلَ ذَلِكَ. وَظَهَرَ لَهُمْ إِيلِيَّا مَعَ مُوسَى وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ مَعَ يَسُوعَ. فَجَعَلَ بُطْرُسُ يَقولُ لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدِي جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هَهُنَا. فَلْنَصْنَعْ ثَلاَثَ مَظَالَّ لَكَ وَاحِدَةً وَلِمُوسَى وَاحِدَةً وَلإِيلِيَّا وَاحِدَةً». لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ إِذْ كَانُوا مُرْتَعِبِينَ. وَكَانَتْ سَحَابَةٌ تُظَلِّلُهُمْ. فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلاً: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ. لَهُ اسْمَعُوا». فَنَظَرُوا حَوْلَهُمْ بَغْتَةً وَلَمْ يَرَوْا أَحَداً غَيْرَ يَسُوعَ وَحْدَهُ مَعَهُمْ" (٩: ١ – ٨).

تحوي الآية الأولى على ما كان يشكّل، بالنسبة للتلاميذ بالتأكيد، إعلاناً صاعقاً مذهلاً. فقد قال يسوع بأن هناك قَوْماً بينهم لن يَذُوقُوا الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللَّهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ ومجد عظيم. وحدث هذا بعد أسبوع حيث يوضح لنا الرسول بطرس أنهم لم يَتْبَعوا خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً، عندما أعلنوا قدرة الرب يسوع المسيح ومجيئه، بل إنهم كانوا شهود عيان لجلالته عندما كانوا معه على الجبل المقدس (٢ بطرس ١: ١٦، ١٧).

"تَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ". لقد سطع مجد ألوهيته الفائق المتجاوز الحد خلال حجاب جسده مغيراً مظهره بطريقة أذهلت تلاميذه وملأتهم بالإحساس بشخصه الحافل بالأسرار.

"بَيْضَاءَ جِدّاً كَالثَّلْجِ لاَ يَقْدِرُ قَصَّارٌ عَلَى الأَرْضِ أَنْ يُبَيِّضَ مِثْلَ ذَلِكَ". لقد بدا رداؤه نفسه بالغ الرقة أو شبه الأثير وتوهّج بلمعانٍ ما كان ليمكن لأي حائك لكتان أو أية مادة أخرى تُستخدم في الكساء أن يُصدر مثله. إن الكلمة التي تُرجِمَتْ إلى "قَصَّار" كانت تعني بالأصل مُلَبِّسٍ للجلد أو لجلد الحيوان، ولكن استُعملت بمعنى أوسع هنا أعلاه.

"ظَهَرَ لَهُمْ إِيلِيَّا مَعَ مُوسَى وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ مَعَ يَسُوعَ". هاتان الشخصيتان البارزتان المشهورتان كان قد مضى عليهما قرون عديدة في الفردوس. لقد كانا يعيشان، ويدركان، ويستطيعان مخاطبة الرب والتحدث مع بعضهما البعض. لقد كانا يمثلان الناموس والأنبياء وأيضاً فئتين من المؤمنين، أولئك الذين سيموتون قبل عودة الرب وأولئك الذين سيُختطفون عندما سيحدث ذلك (يوحنا ١١: ٢٥، ٢٦).

"لِنَصْنَعْ ثَلاَثَ مَظَالَّ"، أي خيام صغيرة. لقد كان بطرس مبهوراً بنا رأى وسمع لدرجة أنه اقترح أن يكرموا الثلاثة جميعاً الذين ظهروا في مجد بأن يشيدوا لهم خياماً خاصة. لم يدرك التناقض والمفارقة في وضعه لخدام الله، وللو كانوا أعظم الخدام، على درجة واحدة مع الرب يسوع نفسه. إضافة إلى ذلك، لم يدرك الصفة العابرة المؤقتة لذلك المشهد الذي أسره. ولذلك رغب في أن يصنع ثلاثة مظال ليقدم مكان سكن دائم لكل من الثلاثة الذين كانوا يتحادثون معاً. كم كُثرٌ هم الذين، من يوم بطرس، قد فكروا بأن يقدموا شهرة وتمايزاً في المكانة لخدامه، سواء كانوا أنبياء أم قديسين أم ملائكة، ولم يعرفوا أنهم بتكريمهم لهؤلاء بتقديم هذا الشكل من الثناء والتقدير الذي يرون لأنهم يستحقون إنما يهينون المعلّم نفسه!

"لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ". كم كان من الأفضل له بكثير لو التزم الصمت! إلا أن بطرس كان ذا شخصية مفعمة بالحركة دفعته للشعور بأن عليه أن يقول شيئاً، وتكلم في مكان وزمان لا يتناسبان مع فكر الله، الذي ما كان ليريد لأحد آخر أن يشغل قلب شعبه بشكل ينتقص من المجد الذي يخص المسيح وحسب. إن ما يبدو كتقوى وتواضع غالباً ما يكون شكلاً مصقولاً من الكبرياء أو الجحود (كولوسي ٢: ١٨، ١٩).

"«هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ. لَهُ اسْمَعُوا»". إن المسيح هو من سُرَّ الآب بأن يكرمه. إنه يريد أنّ جميع الناس يعرفونه ويطيعونه.

"لَمْ يَرَوْا أَحَداً غَيْرَ يَسُوعَ وَحْدَهُ مَعَهُمْ". لقد اختفى موسى وإيليا، وبقي يسوع المسيح وحده ليُعبَدَ ويُبجّل ويوقّر.

هذه الصورة الجميلة والموحية للملكوت الآتي جديرة بأن نتمحص فيها بدقة أعظم ما يمكن. تأملوا الأشخاص المختلفين هنا ولاحظوا كيف أنهم يصورون مختلف الأشخاص أو الجماعات الذين ستكون لهم مكانتهم لدى استعلان يسوع المسيح. فأولاً نرى يسوع يتجلى في مجده كمركز كل مشورة الآب. ثم لدينا الرجلان اللذان كان يتحدث إليهما عما سيكون موضوع تسبيحنا إلى الأبد، ألا وهو موته (لوقا ٩: ٣١)، الذي هو أساس كل بركتنا (رؤيا ٥: ٩). هؤلاء الرجال هم رموز، كما رأينا. كان موسى قد مات قبل زمن بعيد، ولكنه ظهر كما لو في جسده القيامي. وفي هذا يمثّلُ كل من سيموت قبل عودة المسيح، والذين سيسمعون صوته وهو نازلٌ من السماء، ويُقامون في أجساد غير منفسدة (١ كورنثوس ١٥: ٥٢). لقد اختُطِفَ إيليا إلى السماء دون أن يمر بالموت، وهكذا فهو يمثل كل "الأَحْيَاءَ الْبَاقِينَ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ" (١ تسا ٤: ١٥)، الذين لن يروا الموت أبداً، بل سيتغيرون في لحظة ويُختطفون للقاء الرب في الهواء. عند اعتلانه في المجد كل هؤلاء سيظهرون معه. إنهم يشكلون الجانب السماوي من الملكوت. سيكون هناك على الأرض قديسون في أجسادهم الطبيعية. وهذا ما يمثله الرسل الثلاثة الذين يعاينون المجد، ولكنهم هم أنفسهم لا يزالون بالجسد والدم. لقد كانوا جميعاً من بني إسرائيل، وهؤلاء سيكونون أول من يدخل الملكوت عند تأسيسه على الأرض. والأمم الذين تمزقوا وانشقوا بقوة الشيطان سوف يجدون عندئذ الانعتاق، وهكذا يدخلون إلى عهد السلام والبر. هذا ما يوحي به الحدث الذي جرى في أسفل سفح الجبل.

القسم (٤)- ٩: ٩- ١٠: ٤٥
طريق التلمذة

"وَفِيمَا هُمْ نَازِلُونَ مِنَ الْجَبَلِ أَوْصَاهُمْ أَنْ لاَ يُحَدِّثُوا أَحَداً بِمَا أَبْصَرُوا إِلاَّ مَتَى قَامَ ابْنُ الإِنْسَانِ مِنَ الأَمْوَاتِ. فَحَفِظُوا الْكَلِمَةَ لأَنْفُسِهِمْ يَتَسَاءَلُونَ: «مَا هُوَ الْقِيَامُ مِنَ الأَمْوَاتِ؟» فَسَأَلُوهُ قَائِلِينِ: «لِمَاذَا يَقُولُ الْكَتَبَةُ إِنَّ إِيلِيَّا يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ أَوَّلاً؟» فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «إِنَّ إِيلِيَّا يَأْتِي أَوَّلاً وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَيْفَ هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِ ابْنِ الإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيراً وَيُرْذَلَ. لَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا أَيْضاً قَدْ أَتَى وَعَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوا كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ»" (٩: ٩– ١٣).

بينما كانت الجماعة الصغيرة نازلة من الجبل، الذي كان جبل حرمون على الأرجح حيث أمضوا الليل، أوصاهم الرب يسوع بشكل مباشر وصريح جداً ألا يقولوا أي شيء البتة فيما يتعلق بما رأوه إلى أن يكون، هو نفسه، ابن الإنسان، قد أُقيم من بين الأموات. وكان لا يزال هذا، بالنسبة لهم، لغزاً غامضاً، فمع أن الرب كان قد تحدث في عدة مناسبات سابقة عن موته وقيامته في اليوم الثالث، لكن يبدو أنهم لم يفهموا. وإذ كانوا نازلين من الجبل كانوا يتساءلون عما يمكن أن تعنيه عبارة "الْقِيَامُ مِنَ الأَمْوَاتِ". من الواضح أنهم كانوا متيقنين في قلوبهم أن يسوع هو المسيا. ولكن طُرح سؤال يتعلق بنبوءة ملاخي التي قالت أن إيليا سيُرسَلُ قبل يوم الرب العظيم والمخيف. إذ كانوا على اطلاع على الكتاب المقدس، كان الكتبة يعلّمون الشعب ألا يبحثوا عن المسيا أولاً بل عن إيليا، ومن هنا سأل التلاميذُ المسيحَ: "«لِمَاذَا يَقُولُ الْكَتَبَةُ إِنَّ إِيلِيَّا يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ أَوَّلاً؟»" فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: "«إِنَّ إِيلِيَّا يَأْتِي أَوَّلاً وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَيْفَ هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِ ابْنِ الإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيراً وَيُرْذَلَ". ولَكِنّه أعلن قائلاً: "إِنَّ إِيلِيَّا أَيْضاً قَدْ أَتَى وَعَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوا كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ»". ففهموا عندها أنه يشير إلى يوحنا المعمدان. فقد كانت خدمة يوحنا (المعمدان) مشابهة لخدمة إيليا. لقد جاء يشجب الخطيئة ويدعو الناس إلى التوبة، فيكونون بذلك في حالة تسمح لهم باقتبال المسيا عندما يظهر. وفي مكان آخر (من الكتاب المقدس) نعلم أن يسوع قال: "إِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَقْبَلُوا فَهَذَا هُوَ إِيلِيَّا الْمُزْمِعُ أَنْ يَأْتِيَ" (متى ١١: ١٤). لم يقتبل الجميعُ يوحنا المعمدان، ولم تُحدث كرازتُه الأثر المرجو على كل الشعب كما كان مفترضاً بسبب عدم إيمانهم. وكان البعض ليفترض أنه لا يزال هناك تحقيق آخر أبعد لنبوءة ملاخي، وأنه في فترة الضيقة العظيمة، بعد اختطاف الكنيسة، سيأتي خادم آخر يشبه إيليا يقيمه الله لِيُعِدَّ البقية المتبقية من إسرائيل ليستقبلوا الممسوح. وقد يكون هذا الأمر صحيحاً.

"وَلَمَّا جَاءَ إِلَى التَّلاَمِيذِ رَأَى جَمْعاً كَثِيراً حَوْلَهُمْ وَكَتَبَةً يُحَاوِرُونَهُمْ. وَلِلْوَقْتِ كُلُّ الْجَمْعِ لَمَّا رَأَوْهُ تَحَيَّرُوا وَرَكَضُوا وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ. فَسَأَلَ الْكَتَبَةَ: «بِمَاذَا تُحَاوِرُونَهُمْ؟»" (٩: ١٤– ١٦).

إذ وصلوا إلى السهل، لفت انتباهَ يسوع في الحال الجمعُ الكبير المحتشد حول التلاميذ التسعة الذين لم يكونوا معه ليلاً في الجبل. كان بعض الكتبة يحاوروهم، ومن الواضح أن الجدال كان يدور حول قضايا معينة تتعلق باحتمال مسيانية يسوع. عندما رآه الجمع، التفتوا إليه، ويخبرنا الإنجيل أنهم انذهلوا للغاية، وأسرعوا إليه، وسلموا عليه. لا نعرف بالتأكيد ما الذي جعلهم ينذهلون، ولكن الاقتراح هو أن وجهه كان لا يزال يشرق بنور المجد، مثلما كان موسى العهد القديم عندما نزل من الجبل بعد قضاء أربعين يوماً مع الله. وإذ التفت إلى الكتبة سألهم: "«بِمَاذَا تُحَاوِرُونَهُمْ؟»"

"فَأَجَابَ وَاحِدٌ مِنَ الْجَمْعِ وَقَال: «يَا مُعَلِّمُ قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ ابْنِي بِهِ رُوحٌ أَخْرَسُ وَحَيْثُمَا أَدْرَكَهُ يُمَزِّقْهُ فَيُزْبِدُ وَيَصِرُّ بِأَسْنَانِهِ وَيَيْبَسُ. فَقُلْتُ لِتَلاَمِيذِكَ أَنْ يُخْرِجُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا». فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «أَيُّهَا الْجِيلُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ إِلَى مَتَى أَكُونُ مَعَكُمْ؟ إِلَى مَتَى أَحْتَمِلُكُمْ؟ قَدِّمُوهُ إِلَيَّ!». فَقَدَّمُوهُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا رَآهُ لِلْوَقْتِ صَرَعَهُ الرُّوحُ فَوَقَعَ عَلَى الأَرْضِ يَتَمَرَّغُ وَيُزْبِدُ. فَسَأَلَ أَبَاهُ: «كَمْ مِنَ الزَّمَانِ مُنْذُ أَصَابَهُ هَذَا؟» فَقَالَ: «مُنْذُ صِبَاهُ. وَكَثِيراً مَا أَلْقَاهُ فِي النَّارِ وَفِي الْمَاءِ لِيُهْلِكَهُ. لَكِنْ إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئاً فَتَحَنَّنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤْمِنَ كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ». فَلِلْوَقْتِ صَرَخَ أَبُو الْوَلَدِ بِدُمُوعٍ وَقَالَ: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي». فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ الْجَمْعَ يَتَرَاكَضُونَ انْتَهَرَ الرُّوحَ النَّجِسَ قَائِلاً لَهُ: «أَيُّهَا الرُّوحُ الأَخْرَسُ الأَصَمُّ أَنَا آمُرُكَ: اخْرُجْ مِنْهُ وَلاَ تَدْخُلْهُ أَيْضاً!» فَصَرَخَ وَصَرَعَهُ شَدِيداً وَخَرَجَ فَصَارَ كَمَيْتٍ حَتَّى قَالَ كَثِيرُونَ: إِنَّهُ مَاتَ. فَأَمْسَكَهُ يَسُوعُ بِيَدِهِ وَأَقَامَهُ فَقَامَ. وَلَمَّا دَخَلَ بَيْتاً سَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ عَلَى انْفِرَادٍ: «لِمَاذَا لَمْ نَقْدِرْ نَحْنُ أَنْ نُخْرِجَهُ؟» فَقَالَ لَهُمْ: «هَذَا الْجِنْسُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ بِشَيْءٍ إِلاَّ بِالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ»" (٩: ١٧– ٢٩).

رَفَعَ رجلٌ من بين الجموع صوتَه ملتمساً العون لأجل ابنه المبتلي الذي كان به روح شرير. لقد كان قلب الأب البائس ممزقاً من الألم والحزن وهو يحكي عن الحالة المؤلمة التي كان الغلام المسكين يرزح تحتها. الروح الشريرة التي كانت تستحوذ عليه كان "يدْرَكهُ يُمَزِّقْهُ فَيُزْبِدُ وَيَصِرُّ بِأَسْنَانِهِ وَيَيْبَسُ". ورغبة منه في شفاء ابنه، أتى به والده إلى التلاميذ، متوسلاً إليهم أن يحرروا الصبي من تلك الروح، ولكنهم لم يستطيعوا أن يطردوا الروح الشريرة منه.

لقد كان يسوع قد شجّع التلاميذ على أن يفعلوا مثل هذه الأمور، وحدث خلال تجوالهم بين قرى الجليل أن نجحوا في إخراج الشياطين، ولكنهم بدوا عاجزين تماماً في هذه الحالة. فالتفت إليهم يسوع ووبّخهم قائلاً: "«أَيُّهَا الْجِيلُ غَيْرُ الْمُؤْمِنِ إِلَى مَتَى أَكُونُ مَعَكُمْ؟ إِلَى مَتَى أَحْتَمِلُكُمْ؟".

ثم التفت إلى الأب وقال: "قَدِّمُوهُ إِلَيَّ". فجيء بالغلام إلى يسوع، وعندما نظر إلى الفتى، فإن الروح الشريرة التي كانت فيه سرعان ما "صَرَعَهُ (الرُّوحُ) فَوَقَعَ عَلَى الأَرْضِ يَتَمَرَّغُ وَيُزْبِدُ"– كما الحال مع من يقع في نوبة صرع. نظر المخلص إلى الغلام في رفق وحنو، ثم التفت إلى والده وسأله: "«كَمْ مِنَ الزَّمَانِ مُنْذُ أَصَابَهُ هَذَا؟»" فَقَالَ الأبُ: "مُنْذُ صِبَاهُ. وَكَثِيراً مَا أَلْقَاهُ فِي النَّارِ وَفِي الْمَاءِ لِيُهْلِكَهُ". وإذ نظر الأبُ إلى يسوع، قدّم إليه التماساً يثير الشفقة قائلاً: "إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئاً فَتَحَنَّنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا". من الواضح أن إيمانه لم يكن كاملاً. لقد كان يؤمن في قلبه أن في مقدور يسوع أن يساعدَ، ولكنه لم يكن على يقين بأن يسوع سيرحب بالقيام بذلك.

"إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤْمِنَ". يغير يسوع اتجاه الأمور كلياً. فـــ "إن" الشرطية تتعلق بالمستمع الذي يطلب المساعدة. فإن كان هناك إيمان حقيقي "كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ".

"أُومِنُ يَا سَيِّدُ فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي". بدموع سالت من عينيه أكّد الأب القلق المتلهف إيمانه؛ وإذ يدرك ضعف إيمانه، صرخ لأجل ثقة متزايدة، عسى يسوع يتولى هذه المسألة لأجله.

"اخْرُجْ مِنْهُ وَلاَ تَدْخُلْهُ أَيْضاً". بنبرة صوت تدل على سلطانٍ أمر (يسوع) الشيطانَ أن يطلق سراح ضحيته وألا يسيطر عليه ثانيةً.

"فَصَارَ كَمَيْتٍ"– لقد كان التشنج عنيفاً عندما انسحب الشرير– ذلك الشيطان الحقود– لدرجة أن الفتى وقع على الأرض كمائتٍ، حتى ظن كثيرون أنه قد قضى فعلاً. إلا أنه تبين أن ذلك كان آخر عمل يفعله الشيطان إزاء ذلك الفتى، وبه تحرّر من تأثيره المميت.

"فَأَمْسَكَهُ يَسُوعُ بِيَدِهِ وَأَقَامَهُ فَقَامَ". إذ مدَّ يسوعُ يدَه أمسك بذاك الغلام الفاقد الوعي، وبذلك أعاد الوعي والقوة إليه، ولفرحة الأب فإن الابن قام واقفاً على قدميه، وقد شُفِيَ، وبكامل قواه العقلية.

وإذ ترك الجمع ودخل يسوع مع تلاميذه إلى البيت، وعلى الأرجح أن ذاك كان بيت بطرس، وعندما كان التلاميذ لوحدهم مع يسوع، سألوه على انفراد: "«لِمَاذَا لَمْ نَقْدِرْ نَحْنُ أَنْ نُخْرِجَهُ؟»" فأجاب يسوع قَائلاً: "«هَذَا الْجِنْسُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ بِشَيْءٍ إِلاَّ بِالصَّلاَةِ وَالصَّوْمِ»". بعض المخطوطات حُذِفَتْ منها الكلمة الأخيرة، ولكن يبدو مع ذلك أن لهذه تأثير كبير. النقطة الأهم التي أراد المخلص التركيز عليها هي: ما من أحد له قدرة على الأرواح النجسة إن لم يكن على علاقة قوية حميمة مع الله.

"وَخَرَجُوا مِنْ هُنَاكَ وَاجْتَازُوا الْجَلِيلَ وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ لأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُ تَلاَمِيذَهُ وَيَقُولُ لَهُمْ إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي النَّاسِ فَيَقْتُلُونَهُ وَبَعْدَ أَنْ يُقْتَلَ يَقُومُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ. وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا الْقَوْلَ وَخَافُوا أَنْ يَسْأَلُوهُ" (٩: ٣٠– ٣٢).

إذ غادروا كفرناحوم حيث جرى هذا الحدث، انتقلوا إلى أماكن أخرى في الجليل، والرب يحاول ما وسعه ليتحاشى الدعاية والشعبية وسط عامة الناس. وفيما هم سائرون في الطريق، استمر يبسط لهم حقائق الملكوت، ومن جديد أخبرهم عن أية مِيتةٍ كان على وشك أن يموتها، فقال: "إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي النَّاسِ فَيَقْتُلُونَهُ وَبَعْدَ أَنْ يُقْتَلَ يَقُومُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ". إن المرء ليعتقد أنه ما من لغة أوضح من هذه التي استخدمها الرب، حتى أنه ما من أحد يسمعها إلا وسيفهم ما عنى به الرب وأراده أن يكون واضحاً. ولكننا نعلم من الآية ٣٢ أنهم "لَمْ يَفْهَمُوا الْقَوْلَ وَخَافُوا أَنْ يَسْأَلُوهُ"، أي شعروا بضرورة التحفظ والتكتم خشية أن يُظهروا جهلَهم بحقيقةٍ لطالما تحدّث عنها الرب أمامهم، ولكن يبدو أنهم لم يفهموها. لا بد أن السبب هو أن أفكارهم كانت متركّزة على المجد العتيد حتى أنهم ما كانوا يظنون أنه من المعقول أن يتم رفض وموت ذاك الذين كانوا يعتقدون أنه المسيا.

"وَجَاءَ إِلَى كَفْرنَاحُومَ. وَإِذْ كَانَ فِي الْبَيْتِ سَأَلَهُمْ: «بِمَاذَا كُنْتُمْ تَتَكَالَمُونَ فِي مَا بَيْنَكُمْ فِي الطَّرِيقِ؟» فَسَكَتُوا لأَنَّهُمْ تَحَاجُّوا فِي الطَّرِيقِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي مَنْ هُوَ أَعْظَمُ. فَجَلَسَ وَنَادَى الاِثْنَيْ عَشَرَ وَقَالَ لَهُمْ: «إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ أَوَّلاً فَيَكُونُ آخِرَ الْكُلِّ وَخَادِماً لِلْكُلِّ». فَأَخَذَ وَلَداً وَأَقَامَهُ فِي وَسَطِهِمْ ثُمَّ احْتَضَنَهُ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ قَبِلَ وَاحِداً مِنْ أَوْلاَدٍ مِثْلَ هَذَا بِاسْمِي يَقْبَلُنِي وَمَنْ قَبِلَنِي فَلَيْسَ يَقْبَلُنِي أَنَا بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي». فَأَجَابَه يُوحَنَّا قَائِلاً: «يَا مُعَلِّمُ رَأَيْنَا وَاحِداً يُخْرِجُ شَيَاطِينَ بِاسْمِكَ وَهُوَ لَيْسَ يَتْبَعُنَا فَمَنَعْنَاهُ لأَنَّهُ لَيْسَ يَتْبَعُنَا». فَقَالَ يَسُوعُ: «لاَ تَمْنَعُوهُ لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَصْنَعُ قُوَّةً بِاسْمِي وَيَسْتَطِيعُ سَرِيعاً أَنْ يَقُولَ عَلَيَّ شَرّاً. لأَنَّ مَنْ لَيْسَ عَلَيْنَا فَهُوَ مَعَنَا. لأَنَّ مَنْ سَقَاكُمْ كَأْسَ مَاءٍ بِاسْمِي لأَنَّكُمْ لِلْمَسِيحِ فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَهُ" (٩: ٣٣– ٤١).

إذ عادوا إلى كفرناحوم سأل يسوعُ تلاميذَه: "«بِمَاذَا كُنْتُمْ تَتَكَالَمُونَ فِي مَا بَيْنَكُمْ فِي الطَّرِيقِ؟»" لم يدركوا أنه كان عالماً بأفكارهم. ما كان في حاجة لأن يسمع كلامهم ليعرف ما كان في قلوبهم.

"سَكَتُوا لأَنَّهُمْ تَحَاجُّوا فِي الطَّرِيقِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي مَنْ هُوَ أَعْظَمُ". إذ أخفقوا في معرفة طبيعة ملكوت الله، ظنوا أنه مكان يتحقق فيه التقدم والترقية الدنيوية وراحوا يتجادلون فيما بينهم حول الميزات الشخصية لهم وأرجحية البروز والشهرة عندما سيتأسس الملكوت فعلياً.

"«إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ أَوَّلاً فَيَكُونُ آخِرَ الْكُلِّ وَخَادِماً لِلْكُلِّ»". من يرغب أن يكون موضع تبجيل وتقدير أكثر في ملكوت الله هو الذي لا يسعى إلى أن ينال ذلك لنفسه، بل يضع نفسَه لأجل بركة الآخرين.

"فَأَخَذَ وَلَداً وَأَقَامَهُ فِي وَسَطِهِمْ". كان في مقدور الأولاد أن يؤمنوا بالرب يسوع. فنعمته ذاتها ولطفه كانت تجتذبهم إليه. وهكذا تقدم الطفل الصغير عند طلبه وأخذ مكانه بشكل عجيب وسط تلاميذه المندهشين.

"مَنْ قَبِلَ وَاحِداً مِنْ أَوْلاَدٍ مِثْلَ هَذَا بِاسْمِي يَقْبَلُنِي". كان الصغير ممثلاً عنه أو بمثابة مبعوث من قِبَلِهِ مطلق الصلاحية، ذلك أن ملكوته هو ملكوت المحبة والتواضع. وعندما يُقْبَل، فإن الآب الذي أرسله يُقْبَلُ أيضاً. ففي قلب الْمِسْكِينِ وَالْمُنْسَحِقِ الرُّوحِ يحب الله أن يسكن (أشعياء ٦٦: ١، ٢).

"هُوَ لَيْسَ يَتْبَعُنَا فَمَنَعْنَاهُ". من الواضح أنه وبغاية التأكيد على ولائهم للمسيح رغم التوبيخ الضمني، تكلم يوحنا وأخبر كيف أنهم منعوا رجلاً من أن يطرد الأرواح الشريرة لأنه لم يكن من جماعتهم. هذا الموقف مألوف عند الكثيرين اليوم الذين يفكرون في الانتماء الطائفي أكثر من القيام بعمل الرب. جميعنا عرضة لزيادة تقدير أهمية جماعتنا الخاصة وللتقليل من قدر الآخرين الذين لا نراهم على مستوانا. ولكن الاختبار الأبرز والأهم هو موقف القلب نحو المسيح. إن الله لا يتعامل مع طرف ويلغي الأطراف الأخرى. إن حضوره، بالروح، ليس محصوراً على مجموعة خاصة ما من المؤمنين، مهما كانوا راسخين في الإيمان. إنه يرى الجميع أبناء له يؤمنون بابنه، وهو يملك كل شيء منه في كل واحد منهم، أياً كان رفقاؤهم، رغم أننا مسؤولون من جهتنا على أن ننفصل عن كل ما هو شر معروف.

"لَيْسَ أَحَدٌ يَصْنَعُ قُوَّةً بِاسْمِي وَيَسْتَطِيعُ سَرِيعاً أَنْ يَقُولَ عَلَيَّ شَرّاً". إن حقيقة أن يتصرف إنسان ما باسم يسوع المسيح تدل بذاتها على إيمانه به. فحيث يتم الاعتراف باسمه، سيكون موضع محبة وتكريم بأي شكل من الأشكال.

"لأَنَّ مَنْ لَيْسَ عَلَيْنَا فَهُوَ مَعَنَا". من السهل جداً أن نكون متعصبين بالروح. لقد بيّن يسوع حقيقةً عظيمةً يجب ألا ننساها أبداً، وذلك عندما قال: "مَنْ لَيْسَ عَلَيْنَا فَهُوَ مَعَنَا". وفي مناسبة أخرى قال: "مَنْ لَيْسَ مَعِي فَهُوَ عَلَيَّ" (متى ١٢: ٣٠). هذا القول إيجابي، وأما هنا فيتحدث على نحو سلبي. فإن لم يقف شخصٌ ضده فإنه يكون فرداً من فريقه. هذا أمر ينساه معظمنا. ولكن الرب يسوع لا يرفض أي شخص يسعى لأن يعرفه وأن يعمل مشيئته.

"مَنْ سَقَاكُمْ كَأْسَ مَاءٍ بِاسْمِي لأَنَّكُمْ لِلْمَسِيحِ فَالْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يُضِيعُ أَجْرَهُ". لاحظوا هذه العبارة: "لأَنَّكُمْ لِلْمَسِيحِ". ليس السؤال هو فيما إذا كان المرء ينتمي إلى مجموعة معينة، أو فيما إذا كان يتبع طرقنا، أو يرفع نفس شعارنا؛ بل السؤال هو هل ينتمي ذلك الشخص للمسيح؟ إن كان كذلك، فكل ما نعمله من أجل هكذا شخص إنما لا يضيع أجره.

بعد ذلك شرع يسوع يعطي تعاليمَ جليلةً للغاية عن أهمية الإخلاص والصدق والأمانة في طريق التلمذة.

"وَمَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي فَخَيْرٌ لَهُ لَوْ طُوِّقَ عُنُقُهُ بِحَجَرِ رَحًى وَطُرِحَ فِي الْبَحْرِ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ فَاقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ يَدَانِ وَتَمْضِيَ إِلَى جَهَنَّمَ إِلَى النَّارِ الَّتِي لاَ تُطْفَأُ حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْرَجَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ رِجْلاَنِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ فِي النَّارِ الَّتِي لاَ تُطْفَأُ حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ عَيْنُكَ فَاقْلَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ عَيْنَانِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ النَّارِ حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ. لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُمَلَّحُ بِنَارٍ وَكُلَّ ذَبِيحَةٍ تُمَلَّحُ بِمِلْحٍ. اَلْمِلْحُ جَيِّدٌ. وَلَكِنْ إِذَا صَارَ الْمِلْحُ بِلاَ مُلُوحَةٍ فَبِمَاذَا تُصْلِحُونَهُ؟ لِيَكُنْ لَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِلْحٌ وَسَالِمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً»" (٩: ٤٢–٥٠).

إن تعثير أي من الصغار الذين يؤمنون بيسوع هو في نظره إساءة شائنة شنيعة. لقد أعلن قائلاً: "خَيْرٌ لَهُ لَوْ طُوِّقَ عُنُقُهُ بِحَجَرِ رَحًى وَطُرِحَ فِي الْبَحْرِ". كم هو أمرٌ فظيع رهيب أن يتعمَّدَ أحدهم أن يؤذي أو يضلل طفلاً صغيراً أو من نقول عنهم "الصغار" بمعنى روحي أي "الصِّغَار الْمُؤْمِنِينَ". إن مسؤولية جسيمة تقع على عاتق أولئك الذين يقرّون بأنهم يعرفون المسيح، تتمثل في أن يقوموا بكل ما في وسعهم ليساعدوا أولئك الصغار لا أن يعيقوهم. إن حاول أحدٌ أن يؤذيهم بأي شكل من الأشكال يجب أن نجعله يضع نصبَ عينيه الكلمات المهيبة الجليلة التي ترد في الآيات التالية.

إن كانت اليد ستعثّر فلتُقطعْ، لأنه أفضل للمرء أن يدخل إلى الحياة مبتور اليد من أن يكون له يدان ويدخل الجحيم، أي جهنم، حيث الدينونة الأبدية: "إِلَى النَّارِ الَّتِي لاَ تُطْفَأُ حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ". لاحظوا كيف يكرر الرب هذه العبارة. رغم أنه كان أكثر من وطأ الأرض حنواً ورأفةً، إلا أنه يقول الكثير عن فظاعة العقاب الأبدي لمن لا يتوب في النهاية أكثر من أي شخص يرد تعليمه في الكتاب المقدس.

"إِنْ أَعْثَرَتْكَ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا". إن كانت الرِّجْلُ ستقود المرء إلى دروب الخطيئة، فمن الأفضل له أن يكون بلا أرجل ويدخل الحياة على أن يكون برجلين ويدخل نار جهنم. وإن أعثرت العينُ المرءَ– وكم من خطايا تدخل من العين– فعلينا اقتلاعها. فمن الأفضل أن ندخل ملكوت الله بعين واحدة من أن نحظى بعينين ونُلقى في نار جهنم. إن التعبير "حَيْثُ دُودُهُمْ لاَ يَمُوتُ وَالنَّارُ لاَ تُطْفَأُ" على الأرجح قد استند إلى ما كان مرئياً في أسفل وَادِي ابْنِ هِنُّومَ، حيث كانت تُلقى كل نفايات المدينة والنيران الدائمة الاشتعال كانت تُحفظ متّقدةً وحيث كانت تُرمى جُثث الحيوانات الميتة، وحيث كان المارّةُ يرون الديدان القارضة والنار التي لا تنطفئ. إنها صورة مريعة مرعبة للدينونة التي تنتظر معانديِ المسيح.

بعض المخطوطات القديمة حُذف منها جزء من الآية ٤٩، فبقيت الكلمات: "لأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُمَلَّحُ بِنَارٍ". الفكرة واضحة، على كل حال، حتى ولو لم يكن ما تبقى من الآية يستند إلى أفضل موثوقية. كُلّ ذَبِيحَةٍ تُمَلَّحُ بِمِلْحٍ. قال الله فيما يخص الذبائح: "كُلُّ قُرْبَانٍ مِنْ تَقَادِمِكَ بِالْمِلْحِ تُمَلِّحُهُ وَلا تُخْلِ تَقْدِمَتَكَ مِنْ مِلْحِ عَهْدِ إِلَهِكَ" (لاويين ٢: ١٣). الملح يحفظ من الفساد، ويبدو أن الرب يؤكد هنا على قوة البر الحافظة والتي وحدها تعتق المرء من الدينونة التي تستحقها الخطيئة حقاً. كان يسوع قد تحدث لتوه عن تلاميذه على أنهم ملح الأرض، ومن هذه الناحية يضيف قائلاً: "اَلْمِلْحُ جَيِّدٌ. وَلَكِنْ إِذَا صَارَ الْمِلْحُ بِلاَ مُلُوحَةٍ فَبِمَاذَا تُصْلِحُونَهُ؟" الملح الذي لا يحفظ لا فائدة منه. وكذلك الأمر المؤمن المعترف الذي لا يتميز بالبرّ ليس من شهادة يقدّمها لله. لقد

قال الرب: "لِيَكُنْ لَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِلْحٌ"– أي ليكن البرّ في حياتكم وسلوككم فاعلاً لتمجيد الله؛ وبدلاً من أن يسعى المرء لمصلحته الخاصة، عليه أن يسعى لخير الآخرين، وهكذا يسالم كل واحد الآخر.

الأصحاح ١٠

إذ اجتاز يسوع وتلاميذه عبر بيرية شرق الأردن، جاؤوا إلى مخاضة بَيْتِ عَبْرَةَ وعـــبروا إلى تُخُـــومِ الْيَهُودِيَّةِ على طريق أورشليم، حيث كان عليه أن يُتمَّ رسالته بالموت كذبيحة تقدمة عظيمة عن الخطيئة علـــى صليب العار.

"وَقَامَ مِنْ هُنَاكَ وَجَاءَ إِلَى تُخُومِ الْيَهُودِيَّةِ مِنْ عَبْرِ الأُرْدُنِّ فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ جُمُوعٌ أَيْضاً وَكَعَادَتِهِ كَانَ أَيْضاً يُعَلِّمُهُمْ. فَتَقَدَّمَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَسَأَلُوهُ: «هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ؟» لِيُجَرِّبُوهُ. فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «بِمَاذَا أَوْصَاكُمْ مُوسَى؟» فَقَالُوا: «مُوسَى أَذِنَ أَنْ يُكْتَبَ كِتَابُ طَلاَقٍ فَتُطَلَّقُ». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ كَتَبَ لَكُمْ هَذِهِ الْوَصِيَّةَ وَلَكِنْ مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ ذَكَراً وَأُنْثَى خَلَقَهُمَا اللَّهُ. مِنْ أَجْلِ هَذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونُ الاِثْنَانِ جَسَداً وَاحِداً. إِذاً لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَالَّذِي جَمَعَهُ اللَّهُ لاَ يُفَرِّقْهُ إِنْسَانٌ». ثُمَّ فِي الْبَيْتِ سَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ أَيْضاً عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي عَلَيْهَا. وَإِنْ طَلَّقَتِ امْرَأَةٌ زَوْجَهَا وَتَزَوَّجَتْ بِآخَرَ تَزْنِي»" (١٠: ١– ١٢).

رغم أن يسوع كان غائباً عن اليهودية لبعض الوقت، إلا أن شهرته سبقته إليه، ولجأت إليه جموعٌ من الناس على أهبة الاستعداد لسماع ما كان ليقوله. وبحسب عادته، استغل الفرصة ليعلّمهم.

جاء إليه بعضٌ من طائفة الفريسيين وسألوه عن موضوع الطلاق. قالوا: "«هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ؟»" لم يكن هذا الاستفسار عن نية حسنة. ما كانوا يبحثون عن تعليم يتعلق بهذه المسألة، بل فرصة ليتهموه رسمياً. ولو أمكنهم لكانوا يودون أن يُظهروه كمعلّم خطر غير موثوق وهرطوقي منشق يعطي تعاليم مخالفة لناموس موسى.

فأحبط مسعاهم بأن سألهم: "«بِمَاذَا أَوْصَاكُمْ مُوسَى؟»". فأجابوا أن موسى سمح بإصدار كتاب طلاق يُدفع للمرأة غير المرغوبة وغير المحبوبة من قِبَلِ زوجها فتُطلّق.

فقال يسوع أن هذا قد أُجيزَ بسبب قساوة قلب الرجال، لئلا تُضطر المرأة غير المرغوبة من زوجها لأن تتحمل المزيد من المعاملات المهينة أكثر من الطلاق. ولكن لم يكن هذا أسمى ما في فكر الله بخصوص علاقة الزواج.

فمن بَدْءِ الْخَلِيقَةِ خَلَقَ الله الإنسان لتكون امرأة واحدة لرجلٍ واحد، وذلك عندما خلق والدينا الأولين ذكراً وأنثى، وقال: "مِنْ أَجْلِ هَذَا يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ الاِثْنَانِ– (اثنان وليس ثلاثة أو أكثر)– جَسَداً وَاحِداً". لذلك عندما يرتبط اثنان برباط الزوجية لا يعودان شخصين منفصلين، لهما الحرية في أن يمضيا أو يبقيا بحسب رغبتهما، بل يصيران جسداً واحداً.

وأضاف يسوع قائلاً: "فَالَّذِي جَمَعَهُ اللَّهُ لاَ يُفَرِّقْهُ إِنْسَانٌ". قد يضع البشر قوانين تنتهك هذا الترتيب الإلهي، ولكن ما من قانون أو مرسوم بشري يمكن أن يُبطل كلمةَ الله. الزواج هو شركة في الحياة. ويقول يسوع في موضع آخر أنه إن خالف متعاقدان شروط الاتفاق وحطم أحدهما قيد الاتفاق، بلجوئه إلى حياة التعايش أو المعاشرة (مع طرف آخر)، فإن الطرف البريء يكون حراً أو مطلقاً (متى ١٩: ٩). ولكن باستثناء هذا الخرق أو النقض لعهد الزواج لا يجوز حلُّ الرباط الزوجي إلا بالموت، كما أوضح لتلاميذه وهم في البيت

من جديد، في معزل عن الجموع. أن يطلّقَ رجلٌ امرأته ويتزوج بأخرى هو زنى، وأن تُطلّق امرأةٌ زوجَها وتتزوج بآخر تصبح زانيةً.

في القسم التالي يعبّر يسوع عن اهتمامه المحب بالأطفال الصغار.

"وَقَدَّمُوا إِلَيْهِ أَوْلاَداً لِكَيْ يَلْمِسَهُمْ. وَأَمَّا التَّلاَمِيذُ فَانْتَهَرُوا الَّذِينَ قَدَّمُوهُمْ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ ذَلِكَ اغْتَاظَ وَقَالَ لَهُمْ: «دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هَؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللَّهِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ لاَ يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللَّهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ». فَاحْتَضَنَهُمْ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَبَارَكَهُمْ" (١٠: ١٣– ١٦).

"قَدَّمُوا إِلَيْهِ أَوْلاَداً .... وَأَمَّا التَّلاَمِيذُ فَانْتَهَرُوا الَّذِينَ قَدَّمُوهُمْ". الآباء الذين شعروا أن الرب سيهتم بأولادهم الصغار أتوا بهم إليه لكيما يضع يديه عليهم بالبركة. وإذ لم يفهم التلاميذ قلب الرب يسوع المسيح، فإنهم حاولوا أن يكبحوا الأهل لئلا يزعج يسوع من الأولاد. لقد اعتبروا أن في هذا إقحامُ عبءٍ على معلمهم، وكأن انشغاله بالأولاد هو دون مستواه. ولكن يسوع هو صديق الأطفال، كما أوضح في الحال.

"دَعُوا الأَوْلاَدَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلاَ تَمْنَعُوهُمْ لأَنَّ لِمِثْلِ هَؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللَّهِ". لقد استاء المخلص من موقف التلاميذ، ودعا الأهل ليأتوا بأولادهم، مؤكداً لهم أن الصغار هم أعضاء نموذجيون في الملكوت، بفضل إيمانهم المطلق به. الأطفال هم مهتدون متجددون مثاليون. عندما يصيرون في سن مناسبة ليفهموا قصة الرب يسوع، يصيرون في عمر ملائم لأن يأتوا إليه بثقة إيمانية. إنهم يدخلون إلى ملكوت الله في وقت يرفض فيه من هم أكبر منهم سناً وأوفر منهم حكمةً، بحسب المقاييس البشرية، أن يفعلوا المثل. عندما قال ربنا عن هؤلاء الصغار أن "لِمِثْلِ هَؤُلاَءِ مَلَكُوتَ اللَّهِ"، فإنه لم يكن يعني أن يقول أنهم ليسوا في حاجة إلى أن يتجددوا ليدخلوا حقاً ذلك الملكوت. فهم ينحدرون من نسل ضال ساقط، وهم أولاد الغضب بالطبيعة. ولكن إيمانهم البسيط يجعلهم مؤهلين للملكوت، وفي ذلك هم مثال لنا جميعاً.

"مَنْ لاَ يَقْبَلُ مَلَكُوتَ اللَّهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ". فقط عندما نُظهر هكذا إيمان طفولي ندخل إلى ملكوت الله.

"فَاحْتَضَنَهُمْ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَبَارَكَهُمْ". هكذا يتأكد الأهل حتى في يومنا الحاضر أنه، ولو لم يُرَ بالعين البشرية، فإنه يأخذ أولادنا بيديه المحبتين ويمنحهم بركته عندما نأتي بهم إليه بإيمان.

هداية الأولاد:

هناك كثيرون اليوم، هم مثل هؤلاء التلاميذ في ذلك الوقت، يتخيلون أن الأولاد الصغار هم أصغر من أن يأتوا إلى الرب يسوع المسيح. ولكن كلماته أوضح من أن يُساء فهمها. إنه يدعو الأولاد لأن يأتوا إليه، ويشجع الأهل على إحضارهم. في موضع آخر يتحدث عن "هَؤُلاَءِ الصِّغَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِي" (متى ١٨: ٦)، ويحذّر بشدة من أن يضع أحدٌ حجر عثرة أمام أقدامهم غير الخبيرة. ومن هنا فإننا محقون عندما نرنم قائلين: "هناك صديق للأولاد الصغار". إنه صديقهم، ويُسرّ بمحبتهم وإيمانهم به، ويعتبرهم أصدقاء له. إنها لحقيقة معروفة أن العدد الأكبر ممن هم اليوم مسيحيون حقيقيون جدّيون قد أتوا إلى المخلص قبل بلوغهم الثانية عشرة من العمر.

الحادث الذي تلا ذلك والذي يشد انتباهنا كان من الملائم جداً وصفه بأنه "الرفض الكبير".

"وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ إِلَى الطَّرِيقِ رَكَضَ وَاحِدٌ وَجَثَا لَهُ وَسَأَلَهُ: «أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحاً؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحاً إِلاَّ وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ. أَنْتَ تَعْرِفُ

الْوَصَايَا: لاَ تَزْنِ. لاَ تَقْتُلْ. لاَ تَسْرِقْ. لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ. لاَ تَسْلِبْ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ». فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي». فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ وَقَالَ لَهُ: «يُعْوِزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ. اذْهَبْ بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ وَتَعَالَ اتْبَعْنِي حَامِلاً الصَّلِيبَ». فَاغْتَمَّ عَلَى الْقَوْلِ وَمَضَى حَزِيناً لأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ" (١٠: ١٧– ٢٢).

خلافاً لجميع الذين سألوا يسوع لكيما يوقعوه في فخ مستندين إلى كلماته بالذات بطريقة أو بأخرى، يبدو هذا الشاب، ولو بالحد الأدنى، جاداً بقوة. نعلم من الإنجيل أنه جاء راكضاً، ثم سقط على ركبتيه أمام يسوع، دلالة التبعية والولاء ليسوع وهو يسأله: "«أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ مَاذَا أَعْمَلُ لأَرِثَ الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ؟»".

فرد عليه يسوع مستنداً إلى أسلوبه في المحاججة. وسأله أولاً لماذا استخدم العبارة "الصالح" في حديثه إليه. إذ يقول الكتاب المقدس أنه "لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلاَحاً لَيْسَ وَلاَ وَاحِدٌ" (مز ١٤: ٣). فلماذا يخاطب يسوع بالصالح، إذاً، ما لم يكن قد ميّز فيه ابن الله، لأن الله وحده صالحٌ؟ لم يجب الشاب على هذا السؤال.

ثم تلا يسوع الوصايا الست التي تُظهر مسؤوليتنا نحو القريب، بما فيها تلك التي تدعونا لنكرم والدينا، الذين، كما رأينا، يمثلون الله أمام الأولاد في البيت. لقد قال الناموس: "تَحْفَظُونَ فَرَائِضِي وَأَحْكَامِي الَّتِي إِذَا فَعَلَهَا الْإِنْسَانُ يَحْيَا بِهَا" (لاويين ١٨: ٥).

فأجاب الشاب بدون لحظة تردد: "يَا مُعَلِّمُ هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي".

لقد كان هذا الشاب، ظاهرياً، بلا لوم، كمثل شاول الطرسوسي قبل اهتدائه، لأنه كان يلامس بر الناموس. ما لم يدركه هو أن كل البر البشري ما هو إلا كَثَوْبِ عِدَّةٍ في نظر الله، وذلك بسبب فساد القلب.

لكي يختبره يسوع ويكشف الشر المحتجب في قلبه قال له: "يُعْوِزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ. اذْهَبْ بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَأَعْطِ الْفُقَرَاءَ فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي السَّمَاءِ وَتَعَالَ اتْبَعْنِي حَامِلاً الصَّلِيبَ". إنها دعوة لاقتبال المسيح كمخلص والاعتراف به رباً. لكن ذاك (الشاب) الذي بدا في غاية الجدية في بادئ الأمر، لم يستطع اقتناص الفرصة المتاحة أمامه؛ فذاك الذي ادعى محبة القريب كنفسه لم يكن مستعداً لأن يتخلى عن ثروته لخير الآخرين، ولم يكن مستعداً لأن يسلّم زمام حياته ليسوع. ولذلك مضى حزيناً لأن ثروته العظيمة وقفت حائلاً بينه وبين الولاء للمسيح. هل تاب أبداً؟ لا نعلم. من الكتاب المقدس نعلم فقط أنه ذهب مغْتَمّاً، لأنه انصرف عن نور الحياة.

"فَنَظَرَ يَسُوعُ حَوْلَهُ وَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ذَوِي الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ!» فَتَحَيَّرَ التَّلاَمِيذُ مِنْ كَلاَمِهِ. فَأَجَابَ يَسُوعُ أَيْضاً وَقَالَ لَهُمْ: «يَا بَنِيَّ مَا أَعْسَرَ دُخُولَ الْمُتَّكِلِينَ عَلَى الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ! مُرُورُ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ!» فَبُهِتُوا إِلَى الْغَايَةِ قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟» فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ: «عِنْدَ النَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدَ اللَّهِ لأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللَّهِ»" (١٠: ٢٣– ٢٧).

يمكننا أن نستشعر مدى الألم الذي اعتصر قلب الرب وهو يقول للتلاميذ مستغرقاً في التفكير: "«مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ذَوِي الأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ اللَّهِ!»".

لقد اندهشوا لسماع ذلك، إذ لا شك أنهم فكروا، كما يفعل الكثيرون اليوم، بأن الفقراء هم أكثر أهلية لدخول الملكوت من الأغنياء. ولكن يسوع أوضح أن الخطر هو في أن يضع الإنسان ثقته بثروته التي تمنع المرء من أن يتخذ مكانه الصحيح أمام الله كخاطئ بائس يمكنه أن يخلص بالنعمة وحسب.

إن مرور الجمل من ثقب الإبرة لهو أسهل من دخول غني ملكوت الله. وحدهم أولئك الذين يبكّتون أنفسهم ويأتون إلى الله، معترفين بحالتهم الضالة وفقرهم الروحي، يجدون مدخلاً إلى هناك.

وسأل التلاميذ مذهولين مبهوتين: "فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟"

فأجابهم يسوع قائلاً أن كل شيء مستطاع عند الله. حتى الأغنياء يمكن الإتيان بهم إلى مكان لا تعود فيه الثروة هي موضع ثقتهم بل الله الحي.

"وَٱبْتَدَأَ بُطْرُسُ يَقُولُ لَهُ: «هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَال: «ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتاً أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَباً أَوْ أُمّاً أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَداً أَوْ حُقُولاً لأَجْلِي وَلأَجْلِ الإِنْجِيلِ إِلاَّ وَيَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ الآنَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بُيُوتاً وَإِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ وَأُمَّهَاتٍ وَأَوْلاَداً وَحُقُولاً مَعَ اضْطِهَادَاتٍ وَفِي الدَّهْرِ الآتِي الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ. وَلَكِنْ كَثِيرُونَ أَوَّلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ وَالآخِرُونَ أَوَّلِينَ»" (١٠: ٢٨– ٣١).

من الطبيعي أن يخطر على بالنا السؤال حول ما دفع بطرس ليقول ما قال. هل كان قلقاً بخصوص مستقبله ورفاقه التلاميذ إذا ما تمنع الأغنياء عن الهرع نحو يسوع ومساعدته في تأسيس الملكوت المسياني المرتقب؟ لربما كان هذا سبباً. لقد قال: "هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ". لكأن كلماته تدل ضمنياً على تساؤله إذا ما كانوا جازفوا جميعاً سعياً وراء أمل سراب.

رد يسوع عليه بكلمات مطمئنة رغم أنه ما كان في ذلك الوقت يقوّم بشكل كامل أفكار أتباعه الدنيوية الزمانية بما يخص طبيعة الملكوت الآتي. لقد أعطى وعداً قاطعاً بأنه ما من أحد سيخسر، بل بالحري سيكسب من جراء مشاركته درب الرفض. فقال: "لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتاً أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَباً أَوْ أُمّاً أَوِ امْرَأَةً أَوْ أَوْلاَداً أَوْ حُقُولاً لأَجْلِي وَلأَجْلِ الإِنْجِيلِ إِلاَّ وَيَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ الآنَ فِي هَذَا الزَّمَانِ بُيُوتاً وَإِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ وَأُمَّهَاتٍ وَأَوْلاَداً وَحُقُولاً مَعَ اضْطِهَادَاتٍ وَفِي الدَّهْرِ الآتِي الْحَيَاةَ الأَبَدِيَّةَ". ولكنه نبههم إلى حقيقة أن كثيرين من الأولين سيصيرون أخيرين، والأخيرين أولين. وهذا يعني أنه ليس كل من أعطى وعداً بأن يكون تابعاً وفياً مخلصاً سيتابع طريق نكران الذات كرمى لاسم المسيح، كما وأن البعض الذين يبدون متخلفين في مسيرهم والذين كان تكرسهم موضع شك سوف يبرهنون على أنهم صادقون (في إيمانهم) وناكرون لأنفسهم في ساعة التجربة.

إتباع المسيح يعني أن نشترك في كأس آلامه، وأن نقع ضحية سوء فهم، بل وحتى أن نكون عرضة للكراهية ويُفترى علينا في عالم شرير. إن من يسلك هذا الطريق يجد فرحاً في الشركة مع ذلك الملك المنبوذ وفي الصلة الوثيقة مع شركائه في الألم، هذا الفرح الذي لم يعرفه الدنيويون؛ كما ويتطلع برجاء راسخ إلى دخول الحياة الأبدية في الدهر الآتي. المؤمنون جميعاً لهم الآن حياة أبدية مقيمة فيهم ولكن في جسد فاسد. وفي الدهر الآتي سندخل إلى الحياة بكامل ملئها عندما يتم افتداء الجسد والروح على نحو كامل من عبودية الفساد.

"وَكَانُوا فِي الطَّرِيقِ صَاعِدِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَقَدَّمُهُمْ يَسُوعُ وَكَانُوا يَتَحَيَّرُونَ. وَفِيمَا هُمْ يَتْبَعُونَ كَانُوا يَخَافُونَ. فَأَخَذَ الاِثْنَيْ عَشَرَ أَيْضاً وَٱبْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ عَمَّا سَيَحْدُثُ لَهُ: «هَا نَحْنُ صَاعِدُونَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ فَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِالْمَوْتِ وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَى الأُمَمِ فَيَهْزَأُونَ بِهِ وَيَجْلِدُونَهُ وَيَتْفُلُونَ عَلَيْهِ وَيَقْتُلُونَهُ وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ»" (١٠: ٣٢– ٣٤).

بينما كانت الجماعة الصغيرة تسير نحو أورشليم كان هناك شيء في سيماء ومحيا يسوع جعل التلاميذ يخافون ويضطربون. ويخبرنا لوقا (٩: ٥١) أن يسوع "ثَبَّتَ وَجْهَهُ لِيَنْطَلِقَ إِلَى أُورُشَلِيمَ". لقد كان يعرف تماماً ما ينتظره هناك، ومضى قُدُماً دونما وجل وبتصميم معقود العزم تبدّى بشكل واضح في سيماءه، وجعل الاثني عشر يشعرون بالقلق وعدم الارتياح. هل ستتبدد كل أحلامهم بملكوتٍ مجيدٍ عتيدٍ فيه سيُعلِن يسوع نفسَه كمسيا ويحرر بني إسرائيل من نير الرومان؟ هل تركوا، في نهاية المطاف، كل شيء كانوا يمتلكونه وغامروا بكل شيء على رجاء لا أساس له؟

حاول يسوع أن يجعلهم يفهمون ما سيحدث له، ولكنهم كانوا لا يزالون يخفقون في استيعاب كلماته، وكانت تتملكهم بهوسٍ فكرةُ أن الملكوت على وشك أن يتأسس.

قال أنهم عندما يصلون إلى أورشليم فإن ابن الإنسان سوف يُسلم إلى القادة الدينيين، الذين كانوا دائماً وأبداً خصوماً له، وكانوا ليحكمون عليه بالموت، ويسلّمونه إلى قادتهم الأمميين الذين سيهْزَأُونَ بِهِ وَيَجْلِدُونَهُ وَيَتْفُلُونَ عَلَى وجهه المبارك وفي النهاية يَقْتُلُونَهُ. ولكنه أعطاهم من جديد الوعد بأنه "فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ يَقُومُ". ما يلي ذلك يُظهر مدى هشاشة فهم التلاميذ للأمور التي تكلم عنها.

"وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا ابْنَا زَبْدِي قَائِلَيْنِ: «يَا مُعَلِّمُ نُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ لَنَا كُلَّ مَا طَلَبْنَا». فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تُرِيدَانِ أَنْ أَفْعَلَ لَكُمَا؟» فَقَالاَ لَهُ: «أَعْطِنَا أَنْ نَجْلِسَ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالآخَرُ عَنْ يَسَارِكَ فِي مَجْدِكَ». فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ. أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَأْسَ الَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟» فَقَالاَ لَهُ: «نَسْتَطِيعُ». فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «أَمَّا الْكَأْسُ الَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا فَتَشْرَبَانِهَا وَبِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا تَصْطَبِغَانِ. وَأَمَّا الْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِلاَّ لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ»" (١٠: ٣٥– ٤٠).

التواضع هو أحد أجمل الورود التي تتفتح في حديقة القلب المتجدد. جميعنا نترع إلى الكبرياء والخيلاء بالطبيعة. عندما تتملكنا روح المسيح، نظهرُ التواضع والاعتدال اللذين طالما كانا يميزان ربنا المبارك. حيث تسود روح التواضع هذه، تسهل مسامحتنا لأولئك الذين يسيئون إلينا. يبدو هذا بالنسبة لكثيرين خنوعاً صاغراً، ولكن العكس هو الصحيح. تتجلى العظمة في استعداد المرء على نكران ذاته وخدمة الآخرين لأجل المسيح الذي لم يأتِ ليُخدَمَ بل ليخدِمَ ويبذل نفسه فديةً عن الجميع. ليس في وسعنا أن نشارك في عمله الكفاري والفدائي، ولكن يمكننا بل وعلينا أن نتبع مثال حياته في الخدمة المتأنية لبركةِ عالَمٍ بائسٍ محتاجٍ.

عندما التمس يعقوب ويوحنا مراكز مرموقة في الملكوت الآتي، أظهرا كم كان فهمهم ضعيفاً لطبيعته الحقيقية. لم يكن توبيخ الرب لهما بدافع الغضب بل بدافع المحبة لكي يتعلّما المعنى الحقيقي للمشاركة في آلامه ليكون لهما نصيب في المجد العتيد.

"«يَا مُعَلِّمُ نُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ لَنَا كُلَّ مَا طَلَبْنَا»". هذا الالتماس كان يستند إلى الأنانية والطموح الدنيوي. بينما كان التلميذان وبلا شك غير مدركين تماماً لحالة قلبهم الحقيقية، أظهر ذلك أيضاً كم كان ضعيفاً فهمُهم لفكر معلّمهم.

"«مَاذَا تُرِيدَانِ أَنْ أَفْعَلَ لَكُمَا؟»". لقد أراد الرب يسوع أن يعبّرا علناً عما يجول في خاطرهما. لذلك سألهما أن يفصحا عن مرادهما.

"«أَعْطِنَا أَنْ نَجْلِسَ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَالآخَرُ عَنْ يَسَارِكَ فِي مَجْدِكَ»". لقد كانا يرغبان أن ينالا المراكز المرموقة في الملكوت الآتي. لم يدركا كم كان الرب يسوع المسيح يبغض هكذا مطامح.

إدراك المناصب والمسؤولية في الملكوت: صحيح تماماً أن ربنا سوف يمنح تكريماً وتقديراً خاصاً لأتباع محددين له عندما يعود لتأسيس ملكوته. لقد أوضح ذلك في أقوال عديدة (متى ١٩: ٢٨؛ لوقا ١٩: ١٧). ولكن أولئك الذين سيتبوءون أعلى المراكز آنذاك هم أولئك الذين ارتضوا أن يأخذوا المناصب الوضيعة في غياب الملك والذين كانوا على استعداد لأن يتألموا دون تذمر لأجله.

"لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ". كان يسوع ليريد لهما أن يدركا ضآلة فهمهما لما سيجري عن قريب. فسألهما: "أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا الْكَأْسَ الَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِالصِّبْغَةِ الَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟" لقد كان يشير إلى كأس الرفض والمحاكمة والإدانة التي سترفع إلى شفتيه ليشربها، وإلى معمودية الموت التي سيقتبلها على الصليب.

وإذ لم يعرفا ما يقولان، أعلن يعقوب ويوحنا قائلين: "«نَسْتَطِيعُ»". لقد كان ولاؤهما وإخلاصهما واضحاً، ولكن كان غائباً عن ذهنهما الفهم الكامل لطبيعة ذاك الكأس والمعمودية. فرد يسوع قائلاً أنهما، بل ريب، سيشربان كأسه ويصْطَبِغَانِ بَالصِّبْغَةِ الَّتِي يصْطَبِغُ بِهَا (إذ أن كل من يتبعه عليهم أن يتذوقوا كأس الرفض والنبذ من قِبَلِ العالم ويُسلمون دائماً إلى الموت من أجله)، وأما أن يجلسا عن يمينه وعن يساره فلم يكن له أن يمنحهما بل كان ذلك من نصيب من أُعِدَّ لهم هذا الشرف. ما من إنسان يمكنه أن يختار موقعه في الملكوت عندما سيعتلن بقوة ومجد. فكلٌ سيأخذ المكان الذي يستحقه عندئذ بحسب الحياة والخدمة التي مارسها على الأرض.

"وَلَمَّا سَمِعَ الْعَشَرَةُ ابْتَدَأُوا يَغْتَاظُونَ مِنْ أَجْلِ يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا. فَدَعَاهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ الَّذِينَ يُحْسَبُونَ رُؤَسَاءَ الأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ وَأَنَّ عُظَمَاءَهُمْ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلاَ يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ عَظِيماً يَكُونُ لَكُمْ خَادِماً وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ أَوَّلاً يَكُونُ لِلْجَمِيعِ عَبْداً. لأَنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ أَيْضاً لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ»" (١٠: ٤١– ٤٥).

"لَمَّا سَمِعَ الْعَشَرَةُ ابْتَدَأُوا يَغْتَاظُونَ". كان لدى التلاميذ الآخرين أيضاً رغبة في الشهرة والبروز، فكانوا ساخطين على يعقوب ويوحنا اللذين التمسا الحصول على أعلى المناصب سابقين إياهم إلى ذلك.

"عُظَمَاءهُمْ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ". كان من الصعب جداً على التلاميذ أن يفصلوا بين فكرة الملكوت والمناصب المرموقة البارزة لهم. إلا أن الملكوت الذي فيه يكون يسوع المسيح رباً هو ملكوت محبة، حيث على الجميع أن يسعوا لبركة الآخرين، وتأخذ الخدمة المتواضعة مكان التسلط المتغطرس. ليست ممالك العالم هكذا. فهناك العظيم يطغي على أولئك الأقل منه.

"لاَ يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ". في ملكوت الله يسود القانون المعاكس تماماً. أولئك الذين يُعتبرون عظماء في السماء هم أولئك الذين يعملون جاهدين لبركة إخوتهم البشر.

"مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ عَظِيماً يَكُونُ لَكُمْ خَادِماً". ربنا نفسه هو المثال البارز هنا. فذاك الذي كان رب الجميع أصبح خادماً للكل لكي يأتي الناس إلى الله. وإننا مدعوون للسير في إثر خطواته.

"ابْنَ الإِنْسَانِ أَيْضاً لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ". لقد ترك المجد إلى جوار الآب، وجاء إلى هذا العالم، وصار إنساناً لكي يموت. لم يطلب ولو مرة واحدة على الإطلاق تقديراً أو اعترافاً بخدماته. لقد كان ليرضى أن يُهان ويُنْبذ لكي يحقق الهدف من رسالته في الفداء. فهل نجرؤ، نحن الذين ندين بكل شيء إلى الأبد إلى تواضعه، على أن نتوق إلى مجدٍ دنيوي وأن نسعى إلى الحصول على استحسان إخوتنا البشر أكثر من استحسان الله؟

الجزء ٣: ـ ١٠: ٤٦ـ ١٦: ٢٠
اكتمال رسالة الرب
القسم (١)ـ١٠: ٤٦ـ ١٣: ٣٧
الملك المرفوض

"وَجَاءُوا إِلَى أَرِيحَا. وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ أَرِيحَا مَعَ تَلاَمِيذِهِ وَجَمْعٍ غَفِيرٍ كَانَ بَارْتِيمَاوُسُ الأَعْمَى ابْنُ تِيمَاوُسَ جَالِساً عَلَى الطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي. فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ ابْتَدَأَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: «يَا يَسُوعُ ابْنَ دَاوُدَ ارْحَمْنِي!» فَانْتَهَرَهُ كَثِيرُونَ لِيَسْكُتَ فَصَرَخَ أَكْثَرَ كَثِيراً: «يَا ابْنَ دَاوُدَ ارْحَمْنِي». فَوَقَفَ يَسُوعُ وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى. فَنَادَوُا الأَعْمَى قَائِلِينَ لَهُ: «ثِقْ. قُمْ. هُوَذَا يُنَادِيكَ». فَطَرَحَ رِدَاءَهُ وَقَامَ وَجَاءَ إِلَى يَسُوعَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ؟» فَقَالَ لَهُ الأَعْمَى: «يَا سَيِّدِي أَنْ أُبْصِرَ». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ. إِيمَانُكَ قَدْ شَفَاكَ». فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَ وَتَبِعَ يَسُوعَ فِي الطَّرِيقِ" (١٠: ٤٦– ٥٢).

"كَانَ بَارْتِيمَاوُسُ الأَعْمَى ابْنُ تِيمَاوُسَ جَالِساً عَلَى الطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي". بالنسبة لهذا المتسول البائس الفاقد البصر، كان مجيء الرب يسوع في ذلك اليوم ليعني انفتاح عينيه جسدياً وروحياً. "ابْتَدَأَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: «يَا يَسُوعُ ابْنَ دَاوُدَ ارْحَمْنِي!»". لم ينتظر أن يدعوه يسوع أولاً، بل "لَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ"، صرخ في الحال طالباً المعونة التي كان في أمسّ الحاجة إليها. ولا بد أن هكذا إيمان قد راق لقلب الرب.

حاول كثيرون من الذين كانوا في الحشد الذي تبع يسوع وهو يجتاز المدينة أن يُسكتوا المتسول الأعمى، ولكن إيمانه كان أكبر من أن يثنيه اعتراضهم، واستمر يصرخ: "«يَا ابْنَ دَاوُدَ ارْحَمْنِي»". إذ كان على يقين في نفسه أن يسوع كان في الحقيقة المسيا المُتنبّأ عنه، الذي هو من نسل داود، فقد عرف أن يسوع كان يستطيع أن يفتح عينيه إن أمكنه أن يسترعي انتباهه.

إن إيماناً مثل ذاك الذي لبَارْتِيمَاوُس لا يمكن أن يخيب لدى السؤال. لقد وقف يسوع وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى المتسول. ولا بد أن فرحة كبيرة قد غمرت قلب ذلك البائس عندما قالوا له: "«ثِقْ. قُمْ. هُوَذَا يُنَادِيكَ»".

وإذ طَرَحَ رِدَاءَهُ الخارجي عنه، قَامَ على عجل وَجَاءَ إِلَى يَسُوعَ، مُقاداً بشخص لطيف ما في الحشد.

فسأل الرب بحنو: "«مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ؟»" لقد كان يعرف تماماً رغبة قلب بَارْتِيمَاوُس، ولكنه رغب منه أن يبدي اعترافاً علنياً بحاجته. فقال بَارْتِيمَاوُس: "«يَا سَيِّدِي أَنْ أُبْصِرَ»".

"فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَ وَتَبِعَ يَسُوعَ فِي الطَّرِيقِ". لقد كُوفِئَ إيمانُه في الحال. لقد منحه يسوع سؤله وأعطاه يقيناً إضافياً قائلاً: "إِيمَانُكَ قَدْ شَفَاكَ". في غمرة حماسته وامتنانه تبعَ بَارْتِيمَاوُس يسوع في الطريق، رغم أنه ما من دليل على أنه قد دُعِيَ ليكرّس كل وقته للشهادة للمسيح.

يا لها من شهادة كان ليقدمها عن الحنو والقوة الشافية لذاك الذي هتف له بابن داود.

الأصحاح ١١

من الممتع والشيق والمفيد أن نلاحظ كيف أن الأحداث البارزة المتعددة في حياة ربنا قد تنبّأ بها تماماً الأنبياء، وهم رجال أتقياء موحى لهم من الله (٢ بطرس ١: ٢١)، الذين عاشوا قبل مئات السنين من بدء تحقق أقوالهم النبوئية. زكريا كان أحد الأنبياء بعد النفي الذي تحدث عن آلام المسيح والمجد الذي سيلي ذلك (١ بطرس ١: ١١ قارنها مع ٥: ١). لقد صوّر ملك اسرائيل البار الذي يدخل عاصمته الأرضية في حالة وضيعة، راكباً على حمارٍ (زكريا ٩: ٩). ولكن بين هذه الآية والآية التي تليها مباشرة هناك ما يدل على انقضاء فترة طويلة من النبذ والرفض له من قِبَلِ شعبه المختار. كان يفترض تعاقب قرون قبل أن يبدأ تحقيق الكلمات التي تقول: "يَتَكَلَّمُ بِالسَّلاَمِ لِلأُمَمِ وَسُلْطَانُهُ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ وَمِنَ النَّهْرِ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ". ذات يوم سيأتي كل شيء إلى تحقق في الوقت الذي يعيّنه الله.

وحده الروح القدس كان ليرى مسبقاً الصلبَ كخطوة تالية مباشرة لذاك الحدث الذي يُدعى غالباً "دخول الظفر". في الواقع، لم يكن ذاك الشعب هو الذي هتف له رسمياً على أنه الملك الموعود في يوم أحد سعف النخيل التاريخي ذاك. لقد استاء الرؤساء بحنق شديد من المبايعة والتكريم الملكي الذي قدّمه الناس له (في ذلك اليوم) وأطلقوا صوت اعتراضهم على غير هوادة. ولكن هذا الترحيب الذي لقيه يسوع من قبل "الصغار" كان كمثل كأس ماء بارد لروحه بعد البغضاء المريرة التي تعرض لها. كان قد شكر الله على أن هذه "الأشياء الصغيرة"– أي أسرار الملكوت– كانت محتجبة عن الحكماء ومكشوفة للأطفال (متى ١١: ٢٥). هذا ما أكده الاستقبال الذي قُدّم له وهو يدخل مدينة أورشليم (ممتطياً جحشاً).

"وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَيْتِ فَاجِي وَبَيْتِ عَنْيَا عِنْدَ جَبَلِ الزَّيْتُونِ أَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمَا: «اذْهَبَا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمَامَكُمَا فَلِلْوَقْتِ وَأَنْتُمَا دَاخِلاَنِ إِلَيْهَا تَجِدَانِ جَحْشاً مَرْبُوطاً لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ. فَحُلاَّهُ وَأْتِيَا بِهِ. وَإِنْ قَالَ لَكُمَا أَحَدٌ: لِمَاذَا تَفْعَلاَنِ هَذَا؟ فَقُولاَ: الرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ. فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُهُ إِلَى هُنَا». فَمَضَيَا وَوَجَدَا الْجَحْشَ مَرْبُوطاً عِنْدَ الْبَابِ خَارِجاً عَلَى الطَّرِيقِ فَحَلاَّهُ. فَقَالَ لَهُمَا قَوْمٌ مِنَ الْقِيَامِ هُنَاكَ: «مَاذَا تَفْعَلاَنِ تَحُلاَّنِ الْجَحْشَ؟» فَقَالاَ لَهُمْ كَمَا أَوْصَى يَسُوعُ. فَتَرَكُوهُمَا. فَأَتَيَا بِالْجَحْشِ إِلَى يَسُوعَ وَأَلْقَيَا عَلَيْهِ ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَثِيرُونَ فَرَشُوا ثِيَابَهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَآخَرُونَ قَطَعُوا أَغْصَاناً مِنَ الشَّجَرِ وَفَرَشُوهَا فِي الطَّرِيقِ. وَالَّذِينَ تَقَدَّمُوا وَالَّذِينَ تَبِعُوا كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: «أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ! مُبَارَكَةٌ مَمْلَكَةُ أَبِينَا دَاوُدَ الآتِيَةُ بِاسْمِ الرَّبِّ! أُوصَنَّا فِي الأَعَالِي!». فَدَخَلَ يَسُوعُ أُورُشَلِيمَ وَالْهَيْكَلَ وَلَمَّا نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذْ كَانَ الْوَقْتُ قَدْ أَمْسَى خَرَجَ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا مَعَ الاِثْنَيْ عَشَرَ" (١: ١– ١١).

لقد اختتم آخر رحلة له في بيرية، وصعد يسوع وتلاميذه في الطريق المتعرج من أريحا إلى بيت عنيا على منحدر جبل الزيتون. ومن هنا استعد لدخول المدينة حيث أطلق الرب (يهوه) اسمه، وهو عارفٌ تماماً أن الصليب كان في انتظاره. ولكنه إنما لهذه الغاية قد جاء إلى العالم. وكان ذلك قرب عيد الفصح في ربيع عام ٣٠ ميلادية. وكان عمره حوالي الثلاث والثلاثين سنة وستة أشهر– أي شاب نضرٌ نسبياً، قُدّر له أن يقضي وهو في منتصف العمر (مزمور ٢٤:٣).

"لَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ". كانت المدينة المقدسة تظهر بوضوح من جبل الزيتون عندما يدور المرء حول الانحناء الذي بين بَيْتِ فَاجِي وَبَيْتِ عَنْيَا. هنا مكث يسوع وتريث إلى أن يأتوه بالجحش الذي كان سيمتطيه داخلاً إلى المدينة كما جاء في النبوءة.

"جَحْشاً مَرْبُوطاً لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ. فَحُلاَّهُ وَأْتِيَا بِهِ". ما كان ليَهمُّ يسوعَ إذا ما كان هذا الجحش غير مروَّض. فهو الخالق وقد جاء إلى هذا العالم كإنسان، ولكونه هكذا فإن كل المخلوقات الأدنى ستخضع له (مزمور ٨: ٦– ٨). وحده الإنسان، الذي خلق على صورة الله، هو الذي تمرّد ضده. أما بقية المخلوقات فقد عرفوه مالكاً شرعياً لهم (أشعياء ١: ٣).

"الرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ". هكذا كان يفترض في التلاميذ أن يجيبوا إن سألهم أحد عما إذا كان لهم الحق في فك الجحش. من الواضح أن صاحب الدابة كان يعرف يسوع ويدرك الأقوال السابقة التي تشير إليه.

"وَجَدَا الْجَحْشَ مَرْبُوطاً عِنْدَ الْبَابِ خَارِجاً عَلَى الطَّرِيقِ فَحَلاَّهُ". وجد كثير من المفسرين القدماء في هذا إشارة إلى الإنسان ذاته، وقد وصل إلى مفترق طرق عليه أن يأخذ قراره عنده. لم يجد المرسَلان صعوبةً في إيجاد الجحش. كان كل شيء كما ذكر يسوع تماماً.

"متأكدين منهما"، تساءل القوم هناك فيما إذا كان يحق للتلاميذ أن يأخذوا الجحش كما كان يسوع قد توقع. من الواضح أن هؤلاء لم يكونوا مالكي الدابة، بل مجرد عابري سبيل خشوا أن يقوم التلميذان بأي فعل غير مناسب. "كَمَا أَوْصَى يَسُوعُ". لم يكن هناك أي اعتراض عندما أوضح التلميذان المرسلان الأمر كما أوصى الرب.

"أَتَيَا بِالْجَحْشِ إِلَى يَسُوعَ وَأَلْقَيَا عَلَيْهِ ثِيَابَهُمَا". مرتجلين شكلاً من السرج بثيابهم المتدلية المتهدلة، أعدوا الجحش ليحمل يسوع إلى المدينة.

"كَثِيرُونَ فَرَشُوا ثِيَابَهُمْ....وَآخَرُونَ قَطَعُوا أَغْصَاناً مِنَ الشَّجَرِ". في غمرة حماستهم التقوية حاولت تلك الجموع المتواضعة تقديم ترحيب ملكي فخم للملك.

"«أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ!". بإرشاد إلهي رغموا كلمات المزمور ١١٨: ٢٦، مدركين انطباقها على المسيا الموعود لبني إسرائيل. "أُوصَنَّا" تعني "خلّص الآن"، أو "نلتمس أن تحررنا"، رداً على "«لِيَحْيَ الْمَلِكُ!»". وهذه تحية إجلال اعتيادية توجه إلى السلطة الملكية (أخبار الأيام الثاني ٢٣: ١١).

"مَمْلَكَةُ أَبِينَا دَاوُدَ". لدقيقة كاد يُعترف بيسوع كوريث شرعي لعرش داود (لوقا ١: ٣٢). ولكن لم يكن الأوان قد حان له بعد ليرتقي ذلك العرش. سوف يعيد بناء خيمة الاجتماع لداود الملقاة أرضاً ولكن ليس قبل أن يعود في المجد (أعمال ١٥: ١٦؛ عاموس ٩: ١١، ١٢).

"فَدَخَلَ يَسُوعُ ....الْهَيْكَلَ"، كما تنبأ ملاخي (٣: ١). ظاهرياً، اكتفى يسوع بإلقاء نظرة على الهيكل في هذا اليوم الأول من أسبوعه الأخير؛ رغم أنه ليس من السهل التأكد من ذلك. ولكن على الأرجح أن الأحداث المدونة في متى ٢١: ١٢، ١٣ قد جرت في زيارته الثانية للمدينة. "لَمَّا نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذْ كَانَ الْوَقْتُ قَدْ أَمْسَى خَرَجَ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا مَعَ الاِثْنَيْ عَشَرَ". لقد فرض يسوع على نفسه ومن تلقاء ذاته ألا يمضي ليلة في المدينة المقدسة خلال أسبوع الآلام. لقد كان يعرف مسبقاً أنه سيتألم خَارِجَ الْبَابِ (عب ١٣:

١٢، ١٣). لم يكن له مكان في "مدينة الملك العظيم" (متى ٥: ٣٥). لقد وجد ملتجأ بين الفقراء والمتضعين، ومع أولئك الذين كانوا ينتظرون تعزية اسرائيل.

"وَفِي الْغَدِ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ بَيْتِ عَنْيَا جَاعَ فَنَظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهَا وَرَقٌ وَجَاءَ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهَا شَيْئاً. فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهَا لَمْ يَجِدْ شَيْئاً إِلاَّ وَرَقاً لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَقْتَ التِّينِ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: «لاَ يَأْكُلْ أَحَدٌ مِنْكِ ثَمَراً بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ». وَكَانَ تَلاَمِيذُهُ يَسْمَعُونَ" (١١: ١٢– ١٤).

في اليوم التالي وإذ كان يسوع وتلاميذه ذاهبين من بيت عنيا إلى أورشليم، كان يسوع جائعاً. بما أنه كان إنساناً بالتمام والكمال فقد كان عرضة لكل الأحوال المعصومة التي يعيشها البشر. شجرة تين مورقة على جانب الطريق تبدو وكأنها لتقدم تصوراً عن وليمة تين، ولكن عندما جاء يسوع إليها لم يجد فيها سوى الأوراق، لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَقْتَ التِّينِ.

فقال يسوع: "«لاَ يَأْكُلْ أَحَدٌ مِنْكِ ثَمَراً بَعْدُ إِلَى الأَبَدِ»"– أو أبد الدهر. شجرة التين هذه كانت رمزاً لإسرائيل كشعب، وحالتها غير المثمرة كانت تمثل صورةً عن حالة الشعب– تديّنٌ كثير ولكن لا ثمار لله. ولذلك بقي عقيماً غير مثمر طوال كل تلك القرون منذ رفضه للمسيح.

"وَجَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ الْهَيْكَلَ ابْتَدَأَ يُخْرِجُ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي الْهَيْكَلِ وَقَلَّبَ مَوَائِدَ الصَّيَارِفَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ الْحَمَامِ. وَلَمْ يَدَعْ أَحَداً يَجْتَازُ الْهَيْكَلَ بِمَتَاعٍ. وَكَانَ يُعَلِّمُ قَائِلاً لَهُمْ: «أَلَيْسَ مَكْتُوباً: بَيْتِي بَيْتَ صَلاَةٍ يُدْعَى لِجَمِيعِ الأُمَمِ؟ وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ». وَسَمِعَ الْكَتَبَةُ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ فَطَلَبُوا كَيْفَ يُهْلِكُونَهُ لأَنَّهُمْ خَافُوهُ إِذْ بُهِتَ الْجَمْعُ كُلُّهُ مِنْ تَعْلِيمِهِ. وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ خَرَجَ إِلَى خَارِجِ الْمَدِينَةِ. وَفِي الصَّبَاحِ إِذْ كَانُوا مُجْتَازِينَ رَأَوُا التِّينَةَ قَدْ يَبِسَتْ مِنَ الأُصُولِ فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: «يَا سَيِّدِي انْظُرْ التِّينَةُ الَّتِي لَعَنْتَهَا قَدْ يَبِسَتْ!»" (١١: ١٥– ٢١).

هذه هي المرة الثانية التي يطهر فيها يسوع الهيكل من أولئك الذين يتاجرون بالإلهيات. في (يوحنا ٢: ١٣– ١٦) نقرأ عن أول مناسبة، وذلك بعد برهة قصيرة من بدء خدمته العلنية. ولكن أولئك المسيئين استغلوا فرصة غيابه ليعيدوا الوضع إلى سابق عهده. ما من شك أن أصل بيع الحمام والحيوانات في ساحات الهيكل من البدء كانت غايته مجرد تأمين الطعام لزوار أورشليم الذين كانوا يأتون من أماكن بعيدة ليشاركوا في الأعياد السنوية. ونفس الحال ينطبق على الصرّافين. فقد كانوا هناك لتسهيل حصول الغرباء على النقود التي كانت تُستخدم في فلسطين، بدل العملات التي كانت في البلدان الأخرى. ولكن ما بدأ بهدف بريء تطور إلى نظام ربح ابتزازي يستفيد منه هؤلاء القائمون عليه. أما أولئك الذين كانوا يأتون من الشتات لعبادة إله آبائهم فكانوا يتعرضون لسرقة مدخراتهم بشكل منظم– وذلك باسم الرب.

تعامل يسوع بقسوة مع هؤلاء التجار الجشعين المخادعين، فَقَلَّبَ مَوَائِدَ الصَّيَارِفَةِ، وطرد بَاعَةِ الْحَمَامِ وحملان الذبائح وبقية الماشية.

يمكن للمرء أن يتخيله وقد وقف أمام سواد الناس المنذهلين والمنذعرين، وعيناه المقدستان تلتمعان بالسخط المبرر الحق وهو يقول: "«أَلَيْسَ مَكْتُوباً: بَيْتِي بَيْتَ صَلاَةٍ يُدْعَى لِجَمِيعِ الأُمَمِ؟ وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ»".

من الطبيعي أن هذا الموقف أثار حقد مناوئيه الفاسدين، وخاصة أولئك الذين كانوا يدعمون ويستفيدون من الاتجار بالأشياء المقدسة؛ وهؤلاء الكتبة ورؤساء الكهنة كانوا يشكلون عصبة تهدف بشكل واضح إلى إلقاء القبض على يسوع وإهلاكه. ولكنهم ما كانوا ليتجرأوا على أن يفعلوا ذلك أمام الملأ بعد، لأن الناس كانوا متأثرين بتعاليم وأعمال يسوع وميالين إلى التفكير فيه على أنه المسيا الموعود. ولذلك، فقد سُمِحَ له بأن يستمر في إلقاء تعليمه في ذلك اليوم في ساحات الهيكل دون أن يجرؤ أحد على الاعتراض أو التدخل.

وَلَمَّا صَارَ الْمَسَاءُ غادر وتلاميذه المدينة من جديد، ورجعوا إلى بستان الزيتون، على الأرجح إلى بيت عنيا. وفي الصباح، وإذ رجعوا إلى المدينة لاحظوا شجرة التين غير المثمرة وقد يبست من أصولها. وعندما استرعى بطرس الانتباه إليها استغل يسوع الموقف ليشدد على قوة الإيمان.

"فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «لِيَكُنْ لَكُمْ إِيمَانٌ بِاللَّهِ. لأَنِّي الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ قَالَ لِهَذَا الْجَبَلِ انْتَقِلْ وَانْطَرِحْ فِي الْبَحْرِ وَلاَ يَشُكُّ فِي قَلْبِهِ بَلْ يُؤْمِنُ أَنَّ مَا يَقُولُهُ يَكُونُ فَمَهْمَا قَالَ يَكُونُ لَهُ. لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ. وَمَتَى وَقَفْتُمْ تُصَلُّونَ فَاغْفِرُوا إِنْ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ شَيْءٌ لِكَيْ يَغْفِرَ لَكُمْ أَيْضاً أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ زَلاَّتِكُمْ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا أَنْتُمْ لاَ يَغْفِرْ أَبُوكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ أَيْضاً زَلاَّتِكُمْ»" (١١: ٢٢– ٢٦).

الإيمان من الائتمان أو الثقة. هكذا ثقة يجب أن تكون بالله، وليس بأي وسيلة بشرية. يمكننا أن نملك إيماناً به فقط ونحن نتكل على كلمته ونثق بها. في إجابته على سؤال معلم مدرسة الأحد: "ما هو الإيمان؟"، كان الطفل الصغير مصيباً عندما قال: "من فضلك، يا أستاذ، أعتقد أنه الإيمان بالله وعدم طرح أية أسئلة".

عندما يتحدث الله فإن لنا أن نثق بكلمته. ولذلك، إن أوضح أن إرادته هي أن ينقل جبلاً من مكان راسخ وأن يلقي به في البحر، فإن الإيمان الحقيقي يجعلنا نثق بقدرته على الفعل، وسنجرؤ على أن نأمر الجبل أن يختفي. مما لا شك فيه أن الرب في ذهنه، وراء الهيئة الطبيعية للجبال، جبال المصاعب، كتلك التي واجهها زَرُبَّابِلُ في فلسطين عندما لاقت البقية العائدة هكذا معارضة قوية عنيفة في أيام إعادة بناء الهيكل (زكريا ٤: ٧). لا شيء مستحيل عند الله، ومن هو في حياة شركة مع الله يمكنه أن يسلك بإيمان وهو على يقين بأن مطلبه سوف يتحقق.

"لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ فَيَكُونَ لَكُمْ". الإيمان لا يستند إلى ظاهر الأمور. ولكن علينا أن نتذكر أن هذه الكلمات تنطبق فقط عندما نبتهج في الرب، وهكذا تكون رغبات قلبنا بحسب إرادته المقدسة (مز ٣٧: ٤).

إن لحالة النفس علاقة كبيرة بالإمكانية في صلاة الإيمان. ومن هنا جاء التعليم كمثل ذاك الوارد في الآيتين ٢٥، ٢٦ عن المغفرة. لم يعِد الله أبداً بأنه يستجيب لصلاة القلب غير الغافر. هذا الموقف تجاه الآخرين يسد سبيل الصلاة تماماً فلا تبقى ممكنة أية استجابة. في حكمه العائلي يغفر الله لنا كما نغفر نحن لإخوتنا. ليست هذه مغفرة نحو خاطئ بل مغفرة القديس (المسيحي المؤمن) الذي أخفق. ما لم نغفر، فإن أبانا السماوي لا يغفر لنا عندما نأتي إليه مقرين بخطايانا من يوم لآخر.

هذا التعليم عن الصلاة أعطاه الرب يسوع للجماعة الصغيرة وهم يسيرون متجهين نحو المدينة. حالما دخلوها، فعندها مباشرة تقريباً اعترض الكتبة ورؤساء الكهنة الساخطين على يسوع من جراء ما كان قد فعله في اليوم السابق.

"وَجَاءُوا أَيْضاً إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي فِي الْهَيْكَلِ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ وَالشُّيُوخُ وَقَالُوا لَهُ: «بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَفْعَلُ هَذَا وَمَنْ أَعْطَاكَ هَذَا السُّلْطَانَ حَتَّى تَفْعَلَ هَذَا؟» فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنَا أَيْضاً أَسْأَلُكُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً. أَجِيبُونِي فَأَقُولَ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا: مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا: مِنَ السَّمَاءِ كَانَتْ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟ أَجِيبُونِي». فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ: «إِنْ قُلْنَا مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: فَلِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَإِنْ قُلْنَا مِنَ النَّاسِ». فَخَافُوا الشَّعْبَ. لأَنَّ يُوحَنَّا كَانَ عِنْدَ الْجَمِيعِ أَنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ نَبِيٌّ. فَأَجَابُوا وَقَالُوا لِيَسُوعَ: «لاَ نَعْلَمُ». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «وَلاَ أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا»" (١١: ٢٧– ٣٣).

في هذا اليوم لاقى يسوع معارضة بأشكال شتى من قِبَل القادة الدينيين، ولكن في كل مرة كان يفحمهم بأجوبته.

فاعترضوا أولاً متسائلين عن مصدر سلطانه في تطهير الهيكل بالطريقة التي قام بها. ولكنه رفض الإجابة، وبدلاً من ذلك طرح عليهم السؤال: "مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا: مِنَ السَّمَاءِ كَانَتْ أَمْ مِنَ النَّاسِ؟" الإجابة الصحيحة على هذا السؤال ستكون هي الإجابة على سؤالهم. فإن أقروا أن يوحنا قد أرسله الله يؤكدون بذلك ادعاءات وتصاريح يسوع، لأن يوحنا كان قد أعلن أنه الموعود الذي كان سيعمّد بالروح القدس والنار– وهذا ما لا يستطيع أحد سوى المسيا أن يفعله.

هؤلاء الناموسيون التشريعيون الماكرون كانوا يتجادلون فيما بينهم حول الجواب الذي يجب أن يقدموه. فإن قالوا أن يوحنا كان مُرسلاً من الله إلى بني اسرائيل فسيواجهون السؤال أن: "لِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟" وإن أنكروا تفويضه الإلهي فإنهم كانوا يخافون الشعب الذين كان يؤمن بقوة أن يوحنا كان نبياً. ولذلك تملصوا من السؤال الحقيقي بأن أجابوا: "«لاَ نَعْلَمُ»". وهنا أجاب يسوع قائلاً: "«وَلاَ أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا»".

لقد كان دائماً على أهبة الاستعداد ليساعد المستفسرين الصادقين. ولكن هؤلاء الرجال هنا كانوا معارضين مرائين لشهادته، وكانوا مصممين على ألا يصدقوه عندما كانت أعماله تشهد على مسيانيته وتعلن أنه عبد يهوه الذي كتب عنه أشعياء والذي طالما انتظره شعب إسرائيل.

الأصحاح ١٢

هنا يرِدُ مَثَلُ الكرْم. هذا المثل يصور بطريقة حيوية نابضة بالحياة للغاية طرق تعامل الله مع اسرائيل وكيفية تجاوبهم معه وجحودهم طوال القرون الماضية، وكيف أن هذا التواصل كان على وشك أن يبلغ ذروته في رفض الوريث وموته، الذي ستليه قيامته المجيدة.

"وَٱبْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ بِأَمْثَالٍ: «إِنْسَانٌ غَرَسَ كَرْماً وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ وَحَفَرَ حَوْضَ مَعْصَرَةٍ وَبَنَى بُرْجاً وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى الْكَرَّامِينَ فِي الْوَقْتِ عَبْداً لِيَأْخُذَ مِنَ الْكَرَّامِينَ مِنْ ثَمَرِ الْكَرْمِ فَأَخَذُوهُ وَجَلَدُوهُ وَأَرْسَلُوهُ فَارِغاً. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضاً عَبْداً آخَرَ فَرَجَمُوهُ وَشَجُّوهُ وَأَرْسَلُوهُ مُهَاناً. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضاً آخَرَ فَقَتَلُوهُ. ثُمَّ آخَرِينَ كَثِيرِينَ فَجَلَدُوا مِنْهُمْ بَعْضاً وَقَتَلُوا بَعْضاً. فَإِذْ كَانَ لَهُ أَيْضاً ابْنٌ وَاحِدٌ حَبِيبٌ إِلَيْهِ أَرْسَلَهُ أَيْضاً إِلَيْهِمْ أَخِيراً قَائِلاً: إِنَّهُمْ يَهَابُونَ ابْنِي. وَلَكِنَّ أُولَئِكَ الْكَرَّامِينَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ فَيَكُونَ لَنَا الْمِيرَاثُ! فَأَخَذُوهُ وَقَتَلُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ. فَمَاذَا يَفْعَلُ صَاحِبُ الْكَرْمِ؟ يَأْتِي وَيُهْلِكُ الْكَرَّامِينَ وَيُعْطِي الْكَرْمَ إِلَى آخَرِينَ. أَمَا قَرَأْتُمْ هَذَا الْمَكْتُوبَ: الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا!» فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ وَلَكِنَّهُمْ خَافُوا مِنَ الْجَمْعِ لأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ قَالَ الْمَثَلَ عَلَيْهِمْ. فَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا" (١٢: ١– ١٢).

إن كرْم سيد المضيفين هو بيت إسرائيل، كما نعلم من أشعياء ٥: ٧. فبعد أن أقامهم الله في أرض كنعان كان يُعنى بهم ويرعاهم بطريقة عجيبة، ووضعهم تحت رعاية أولئك الذين كان يفترض فيهم أن يسهروا على نفوسهم ويسعون على تهذيبهم وصقلهم روحياً لكي يجنوا ثمار وافرة له. إلا أن المزارعين أو الكرّامين ما كانوا يفكرون إلا بمصالحهم الأنانية الخاصة وأخفقوا في أن يقدموا للرب الحب والوقار اللائقين به. عندما كان يرسل أنبياءه إليهم كانوا يردونهم فارغين أو يبدون لا مبالاة مريعة نحوهم، أو يضطهدونهم حتى الموت لتجرؤهم على توبيخهم على شرهم. لقد كان هذا موقفهم طوال القرون. والآن أرسل الله ابنه الذي كان بنفسه الاختبار الأخير على محبة وولاء إسرائيل. عندما رآه القادة والرؤساء قاوموا إعلانه بازدراء وسعوا إلى هلاكه، قائلين: "هَذَا هُوَ الْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ فَيَكُونَ لَنَا الْمِيرَاثُ!".

الآية ٨ نبوية وتحققت بعد بضعة أيام لاحقة. "فَأَخَذُوهُ وَقَتَلُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ الْكَرْمِ". هذا ما كان يسوع قد أخبرهم به عن رفضهم له وموته قبل أن يحدث.

ثم يوجه لهم السؤال: "فَمَاذَا يَفْعَلُ صَاحِبُ الْكَرْمِ؟" وكان الجواب واضحاً: "يَأْتِي وَيُهْلِكُ الْكَرَّامِينَ وَيُعْطِي الْكَرْمَ إِلَى آخَرِينَ". كان يجب تنحية إسرائيل جانباً في حين تتدفق النعمة نحو الأمميين.

كان هذا ليتم بحسب ما كُتِبَ في المزمور ١١٨: ٢٢: "الْحَجَرُ الَّذِي رَفَضَهُ الْبَنَّاؤُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ". ولذلك فهو لم يتحدث فقط عن الموت بل عن القيامة أيضاً، لأن باكورة الراقدين يسوع قد جُعِلَ رَأْسَ الزَّاوِيَةِ. "مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ كَانَ هَذَا وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا".

لقد أثار المثل وتطبيقه عند الرؤساء مزيداً من الاستياء. لقد أدركوا أنه كان يتحدث عنهم، ولكن في تلك الآونة ما كانوا ليجرؤون على أن يقيموا دعوى عليه علانية لأنهم كانوا يخشون رد فعل الشعب عموماً.

"ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْماً مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَالْهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكَلِمَةٍ. فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلاَ تُبَالِي بِأَحَدٍ لأَنَّكَ لاَ تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ النَّاسِ بَلْ بِالْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ اللَّهِ. أَيَجُوزُ أَنْ

تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ نُعْطِي أَمْ لاَ نُعْطِي؟» فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ ايتُونِي بِدِينَارٍ لأَنْظُرَهُ». فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: «لِمَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟» فَقَالُوا لَهُ: «لِقَيْصَرَ». فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ». فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ" (١٢: ١٣– ١٧).

لقد كانت مسألة مال الجزية مطروحة ومثارة في كل أرجاء فلسطين. دفع هذه الجزية كان دلالة اعتراف ضمني بسلطة روما، وكان هذا أمراً بغيضاً للغاية بالنسبة لليهود ذوي المشاعر القوية نحو الشعب. لقد كان الْهِيرُودُسِيِّونَ وغيرهم يدافعون عن هذا الاعتراف بالحكومة الإمبراطورية طمعاً في الحظوة والامتياز الذي كانوا يرجون الحصول عليه من خلال تبعيتهم وخنوعهم.

لم تكن الرغبة في معرفة خطأ أو صوابية المسألة هي ما دفع ممثلي كلتا المدرستين الفكريتين المتضادتين لطرح السؤال على يسوع: "أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟" رغم أسلوب التملق في مخاطبتهم له كانوا ينصبون له فخاً، راجين أن يوقعوه في شرك لكي يقول ما يعطيهم فرصةً إما لاتهامه أمام حكامهم الرومان كمحرض على الفتنة والعصيان، أو لجعله يبدو أمام اليهود الميالين بشدة إلى الانفصال عن الرومان على أنه ليس متعاطفاً معهم في تطلعهم إلى الانعتاق من نير الرومان.

لقد رأى ما في قلوبهم وعرف بالضبط السبب الذي حدا بهم إلى المجيء إليه. وكان جوابه أن: "«لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ إِيتُونِي بِدِينَارٍ لأَنْظُرَهُ»".

عندما أعطوه إحدى العملات المعدنية، سألهم: "«لِمَنْ هَذِهِ الصُّورَةُ وَالْكِتَابَةُ؟»" فأجابوا: "«لِقَيْصَرَ»". فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: "«أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلَّهِ لِلَّهِ»". وهكذا وقعوا في الحفرة التي حفروها له، وانذهلوا من جوابه، وأُفحموا.

ولكن آخرين كانوا ينتظرون أن يسألوه حول مسألة أخرى، كما نجد في بضعة الآيات التالية.

"وَجَاءَ إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنَ الصَّدُّوقِيِّينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَيْسَ قِيَامَةٌ وَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: «يَا مُعَلِّمُ كَتَبَ لَنَا مُوسَى: إِنْ مَاتَ لأَحَدٍ أَخٌ وَتَرَكَ امْرَأَةً وَلَمْ يُخَلِّفْ أَوْلاَداً أَنْ يَأْخُذَ أَخُوهُ امْرَأَتَهُ وَيُقِيمَ نَسْلاً لأَخِيهِ. فَكَانَ سَبْعَةُ إِخْوَةٍ. أَخَذَ الأَوَّلُ امْرَأَةً وَمَاتَ وَلَمْ يَتْرُكْ نَسْلاً. فَأَخَذَهَا الثَّانِي وَمَاتَ وَلَمْ يَتْرُكْ هُوَ أَيْضاً نَسْلاً. وَهَكَذَا الثَّالِثُ. فَأَخَذَهَا السَّبْعَةُ وَلَمْ يَتْرُكُوا نَسْلاً. وَآخِرَ الْكُلِّ مَاتَتِ الْمَرْأَةُ أَيْضاً. فَفِي الْقِيَامَةِ مَتَى قَامُوا لِمَنْ مِنْهُمْ تَكُونُ زَوْجَةً؟ لأَنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةً لِلسَّبْعَةِ»" (١٢: ١٨– ٢٣).

هذه المرة كانت الجماعة من الصدوقيين الذين كانوا يسعون لأن يربكوا يسوع. لقد كانوا يمثلون طائفة من ذوي المذهب المادي الذين كانوا ينكرون القيامة ووجود الملائكة والأرواح. لا يمكننا أن نتكهن فيما إذا كانت القصة التي رووها له حقيقية أم لا. يبدو على الأرجح أنها بعيدة الاحتمال، ولعلها قصة مختلقة متخيلة قد وُضِعت لأجل السخرية من عقيدة القيامة.

بالنسبة لهم القصة تدور حول امرأة معينة قد صارت زوجة على التتالي لسبعة أخوة، وقضت بعدهم جميعاً. بحسب عادة اليهود، إن كان رجل قد توفي دون أن يترك وريثاً فإن على أخي المتوفّى أن يتزوج من هذه الأرملة. والابن الأول الذي يأتي من هذا القران كان ليرث كل ممتلكات الزوج السابق المتوفى. في القصة التي يسردونها، يتم تطبيق الناموس إلى أقصى حد. فالأخوة السبعة يقضون الواحد تلو الآخر مخلفين الأرملة بدون أولاد.

والآن جاء دور ما كان أصحاب الفتوى الماكرون هؤلاء يعتبرونه بوضوح دحضاً قاطعاً لمعقولية فكرة قيامة الموتى. فيسألون، كما هو مدون في الآية ٢٣، "فَفِي الْقِيَامَةِ مَتَى قَامُوا لِمَنْ مِنْهُمْ تَكُونُ زَوْجَةً؟ لأَنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةً لِلسَّبْعَةِ".

لم يكن يسوع قلقاً أو مشوشاً إذ سرعان ما أدرك السفسطة التي لديهم. لقد قال لهم أنهم جميعاً على ضلال، وذلك لسببين: جهلهم بالكتابات المقدسة نفسها التي يقرون بأنهم حافظون لقدسيتها، وأيضاً قوة، أو قدرة الله. لقد كان هؤلاء الصدوقيون يعترفون بالتوراة فقط، أي بالكتب الموسوية. ولذلك فقد استشهد يسوع من سفر الخروج لكي يظهر حماقة موقفهم.

"فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَلَيْسَ لِهَذَا تَضِلُّونَ إِذْ لاَ تَعْرِفُونَ الْكُتُبَ وَلاَ قُوَّةَ اللَّهِ؟ لأَنَّهُمْ مَتَى قَامُوا مِنَ الأَمْوَاتِ لاَ يُزَوِّجُونَ وَلاَ يُزَوَّجُونَ بَلْ يَكُونُونَ كَمَلاَئِكَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الأَمْوَاتِ إِنَّهُمْ يَقُومُونَ: أَفَمَا قَرَأْتُمْ فِي كِتَابِ مُوسَى فِي أَمْرِ الْعُلَّيْقَةِ كَيْفَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِلاً: أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ؟ لَيْسَ هُوَ إِلَهَ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ. فَأَنْتُمْ إِذاً تَضِلُّونَ كَثِيراً»" (١٢: ٢٤– ٢٧).

لقد كانوا ينكرون إمكانية القيامة، لأنهم كانوا يعلّمون أن نفس الإنسان تموت مع الجسد. وشرح يسوع أن أولئك الأموات بالجسد هم أحياء لله، وأنه عندما يقوم الأموات فإنهم لا يأخذون نفس الأوضاع والأحوال التي كانوا فيها على الأرض. فلا يستأنفون الحالة الزوجية، بل يكونون مثل الملائكة في السماء: أي بدون جنس. فلن يبقى هناك تمايز بين الرجل والمرأة في تلك الحياة الجديدة.

لجأ ربنا إلى ذكر سببين هامين لقبول حقيقة قيامة الموتى. فقد ورد ذكرها في الكتاب المقدس، كلمة الله الموحى بها، وتستند إلى قوة الله الكلي القدرة. عندما يتكلم الله، فليس للإنسان أن يفكر، بل أن يقبل إعلانه بإجلال لائق. السؤال عن كيفية حصول أي شيء لأنه يتناقض مع قدرة المخلوقات المحدودة هو تناسٍ لحقيقة أن كل قدرة هي لله، والذي ليس من مستحيل عنده (لوقا ١٨: ٢٧).

"يَكُونُونَ كَمَلاَئِكَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ". الملائكة كائنات لا جنس لها وليس لها قدرة على التناسل وتكاثر نوعها. في القيامة ينطبق نفس الحال على البشر. في حالة الأبدية التي تلي القيامة من الموت، لن يكون هناك مكان للزواج. كل إنسان سيكون فرداً منفصلاً مستقلاً عرضة لبركة أبدية أو عقاب لا نهاية له، ولكن العلاقات البشرية كما نعهدها هنا ستنتهي.

"كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِلاً: أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ". فهو لم يقل: "أنا كنتُ إلههم"، بل "أنا إلههم". لقد تحدث عنهم كأشخاص محددين يرتبطون معه بعلاقة بالنعمة رغم أن أجسادهم كان قد مضى زمن بعيد على موتها. في زمنه سيقومون ويُعترف بهم خاصةً له.

"لَيْسَ هُوَ إِلَهَ أَمْوَاتٍ". إن تلاشى هؤلاء أو غيّبهم أو بددهم الموت، فلا يكون إلهاً لهم من بعد. ولكن الحقيقة هي أنه "إِلَهُ أَحْيَاءٍ" إذ "الجميع يحيون له". رغم أنهم أموات من ناحية الجسد ومحتجبون عن أعين البشر، إلا أنه، وهو إله أرواح كل ذي جسد (عدد ١٦: ٢٢)، يرى ويعرف كل واحد في حالته الراهنة بين الموت والقيامة.

لقد كانت ضربة قاضية لمذهب المادية المتشدد عندهم، ولم يجدوا كلمات يردون بها عليه.

لا يعلّم الكتاب المقدس فقط بقاء الروح بعد موت الجسد (متى ١٠: ٢٨)، بل أيضاً، وبالحرف، القيامةَ بالجسد إلى الحياة، أو القيامة إلى الدينونة (يوحنا ٥: ٢٨، ٢٩). وهذا لا يعني إعادة تجسد بشكل ما آخر، كما في بعض الاعتقادات الصوفية الباطنية الشرقية وأتباعها الغربيين المضللين، بل قيامة فعلية من الموت لنفس الشخص الذي يموت. ربنا نفسه خرج من القبر في نفس جسده الذي كان قد عُلّق على الصليب، وهو حاملٌ لا يزال علامات آلامه (يوحنا ٢٠: ٢٠، ٢٧). على نفس المنوال سيعامل الموتُ أجسادَ كل البشر، حتى أولئك الذين تحللوا إلى عناصرهم الكيميائية منذ زمن بعيد، ذلك لأن إلهنا هو إله القيامة. فذاك الذي خلق هذه الأجساد بكل قدراتها المدهشة العجيبة يمكنه أن يعيد تركيبها وتجميعها ويصنعها من جديد عندما يحين أوان اختطاف المخلّصين لملاقاة الرب (١ تسالونيكي ٤: ١٣– ١٧)، وبعدها يأتي دور الأشرار ليقوموا ويقفوا أمام العرش الأبيض العظيم للدينونة (رؤيا ٢٠: ١١– ١٤). بالتأكيد، ما من شيء يمكن أن يكون له كبير أثر يجعلنا نشعر بالجلالة والمهابة ونحن في هذا العالم أكثر من معرفتنا بأن هذه الحياة ما هي إلا توطئة لما سيأتي، ليُعاش إلى الأبد في فرح السماء أو يُحتمل وسط الأشياء المرعبة الرهيبة المحزنة والكئيبة في الجحيم. لقد صوّر يسوع بأمانة كلا جانبي الحياة وراء القبر بشكل واضح لا يمكن لأحد معه أن يفترض أو ينخدع بالأمل الكاذب بالخلود السعيد إن عاش ومات في الخطيئة. لقد أراد لكل الناس أن يتذكروا أن هناك قيامتين، ويليهما مصيران. ومن هنا تأتي أهمية اقتبال المسيح الآن لنضمن السعادة والهناء في الآخرة.

التالي الذي طرح سؤالاً على يسوع كان رجلاً ذا شخصية مختلفة عن أولئك المحاججين الكثيري الأسئلة الماكرين الذين سبقوه.

"فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنَ الْكَتَبَةِ وَسَمِعَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَجَابَهُمْ حَسَناً سَأَلَهُ: «أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ الْكُلِّ؟» فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: «إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ الْوَصَايَا هِيَ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ. هَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الأُولَى. وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ». فَقَالَ لَهُ الْكَاتِبُ: «جَيِّداً يَا مُعَلِّمُ. بِالْحَقِّ قُلْتَ لأَنَّهُ اللَّهُ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرُ سِوَاهُ. وَمَحَبَّتُهُ مِنْ كُلِّ الْقَلْبِ وَمِنْ كُلِّ الْفَهْمِ وَمِنْ كُلِّ النَّفْسِ وَمِنْ كُلِّ الْقُدْرَةِ وَمَحَبَّةُ الْقَرِيبِ كَالنَّفْسِ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْمُحْرَقَاتِ وَالذَّبَائِحِ». فَلَمَّا رَآهُ يَسُوعُ أَنَّهُ أَجَابَ بِعَقْلٍ قَالَ لَهُ: «لَسْتَ بَعِيداً عَنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ». وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَسْأَلَهُ!" (١٢: ٢٨– ٣٤).

"فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنَ الْكَتَبَةِ". يبدو أنه رجل صادقٌ. لقد تأثر بصدقِ يسوع المسيح ووضوح إجاباته على أسئلة الآخرين. فجاء يسأل: "أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ الْكُلِّ؟" بالطبع هو لم يقصد الأولى في الترتيب بل الأولى في الأهمية.

"فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: .... الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. وَتُحِبُّ الرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ". بهذه الكلمات المقتبسة من تثنية ٦: ٤، ٥ لخّص ربنا كل الوصايا المتعلقة بواجب الإنسان نحو الله. فمن يحب الله للغاية سوف لن يخزيه في أي أمر. "وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ". هذه الآية هي من لاويين ١٩: ١٨. إنها تلخّص كل الوصايا والتعاليم الأخلاقية المتعلقة بواجب الإنسان نحو باقي الناس. فمن يحب قريبه لن يخطئ نحوه في أي أمر مهما تناهى في الصغر.

"جَيِّداً يَا مُعَلِّمُ. بِالْحَقِّ قُلْتَ". لقد تأثر الكاتب (الناسخ) بشدة، وأعلن في الحال تقديره الصادق للجواب الذي أعطاه الرب يسوع. وأكد وحدة الألوهية. كل اليهود الذين تعلموا من الكتاب المقدس يؤمنون بهذا كحقيقة أساسية. وتابع يقول: "مَحَبَّتُهُ مِنْ كُلِّ الْقَلْبِ .... وَمَحَبَّةُ الْقَرِيبِ كَالنَّفْسِ هِيَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْمُحْرَقَاتِ وَالذَّبَائِحِ". لقد أبدى الكاتب فطنة روحية حقيقية. لم يكن أي من الشعائر القربانية الطقسية الناموسية بذي قيمة في نظر الله إن كانت تعوزه المحبة. أن تحب الله وتحب القريب من كل القلب هو ما يسر الله فوق كل شيء.

"«لَسْتَ بَعِيداً عَنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ»". مع ذلك، ورغم تقديره لروحانية تعليم الرب يسوع المسيح، إلا أن هذا الكاتب لم يكن قد دخل إلى الملكوت بعد. لقد كان، وكأنه على الباب. أن يدخل يعني أن يقتبل المسيح– أي أن يؤمن به مخلصاً ورباً له.

في المثل الذي يلي ذلك نجد يسوع نفسه هو الذي يطرح السؤال ويدحض خصومه.

"ثُمَّ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ: «كَيْفَ يَقُولُ الْكَتَبَةُ إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ دَاوُدَ؟ لأَنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ: قَالَ الرَّبُّ لِرَبِّي: اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ. فَدَاوُدُ نَفْسُهُ يَدْعُوهُ رَبّاً. فَمِنْ أَيْنَ هُوَ ابْنُهُ؟» وَكَانَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ يَسْمَعُهُ بِسُرُورٍ. وَقَالَ لَهُمْ فِي تَعْلِيمِهِ: «تَحَرَّزُوا مِنَ الْكَتَبَةِ الَّذِينَ يَرْغَبُونَ الْمَشْيَ بِالطَّيَالِسَةِ وَالتَّحِيَّاتِ فِي الأَسْوَاقِ وَالْمَجَالِسَ الأُولَى فِي الْمَجَامِعِ وَالْمُتَّكَآتِ الأُولَى فِي الْوَلاَئِمِ. اَلَّذِينَ يَأْكُلُونَ بُيُوتَ الأَرَامِلِ وَلِعِلَّةٍ يُطِيلُونَ الصَّلَوَاتِ. هَؤُلاَءِ يَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ»" (١٢: ٣٥– ٤٠).

لقد كان من بديهيات المعرفة العامة في إسرائيل، يعلّمها الكتبة والربانيون، أن المسيا سيكون ابن داود، بحسب الوعد الذي أعطاه الله إلى الملك صاحب المزامير في ألا يطلب رجلاً يجلس على عرشه (١ ملوك ٢: ٤؛ مزمور ١٣٢: ١١). صحيحٌ أن هذا الوعد كان يستند إلى نسل داود السالك بالطاعة لكلمة الرب، ولكنّ وعداً غير مشروط قُطِعَ أيضاً، كما يتبين من المزمور ٨٩: ١– ٤، ٣٤– ٣٧. من الواضح، إذاً، أن المعلمين في اسرائيل كانوا على صواب في إعلانهم أن المسيح، أي المسيا، (الممسوح) كان ابن داود. ولكن كانت هناك نصوص كتابية أخرى تشير إلى أنه سيكون أيضاً ابن الله، وهذه كانوا يتجاهلونها. ولذلك واجههم يسوع بلفت انتباههم إلى المزمور ١١٠، ومطالباً إياهم بتفسير: "كَيْفَ يَقُولُ الْكَتَبَةُ إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنُ دَاوُدَ؟ لأَنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ: قَالَ الرَّبُّ (يهوه) لِرَبِّي (أدوناي): اجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئاً لِقَدَمَيْكَ". وينبري لتفسير هذا المقطع بأن يقول أن المسيا هو من تحدث داود عنه، والذي أقر بأنه ربُّه، شخص إلهي كان ليجلس على عرش الأبدية– إلى يمين جلال الله في العلاء. فكيف كان يمكن لهكذا شخص أن يكون ابن داود؟ إننا نعرف الجواب. أما هم فما كانوا يعرفون، وما كانوا ليجرؤون على محاولة تقديم تفسير. لقد كان يسوع ابن داود من ناحية ناسوته، وابن الله من ناحية لاهوته، ولأنه قد حُمِلَ به في أحشاء العذراء من دون زرع رجل. إن سر التجسد كله يكمن في هذا الاقتباس من المزمور.

وفي هذا السياق تأتي الكلمات: "كَانَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ يَسْمَعُهُ بِسُرُورٍ". بل يبدو أنهم كانوا يستمتعون أيضاً برؤية هزيمة وارتباك الكتبة الذين كانت حياتهم تتناقض للغاية مع مهنتهم.

واستغل يسوع هذه الفرصة ليشير إلى ذلك وليحذّر عامة الناس من التأثير الشرير لقادة الدين هؤلاء.

"تَحَرَّزُوا مِنَ الْكَتَبَةِ". لقد كانوا يحبون أن يكونوا بارزين وموضع تمجيد وثناء وإعجاب على تقواهم الظاهرة. ملابسهم ذاتها كانت تميزهم عن غيرهم كفئة خاصة من المفترض أن تكون موضع تقدير واعتراف لتميزهم عن غيرهم. لقد كانوا يَظهرون مرتدين ملابس طويلة وكانوا يُسرون بأن يكونوا موضع إطراء عامة الشعب. لقد كانوا يحبون ٱلْمَجَالِسَ الأُولَى في الجامع، وَالْمُتَّكَآتِ الأُولَى فِي الْوَلاَئِمِ. فهل كان هناك من يخفق في أن يدرك، في كل هذا النفوذ الإكليريكي والإدعاء، وجوب تمييز وتقدير هؤلاء على نحو خاص بسبب منصبهم، أياً كانت الحياة التي يعيشونها؟

ذلك أنهم كانوا جشعين يشتهون ما للغير ويلتهمون بيوت الأرامل– إذ يقرضون المال مقابل رهن للأرامل المعوزات ويصادرون ممتلكاتهن حين تعجز تلك الضحايا البائسات عن إيفاء التزاماتهن في حينها. ومع ذلك فقد كانوا يقومون بكل شيء بشكل قانوني، كأن يرفعوا عنهم تهمة الاحتيال، وكانوا يغطون سلوك الابتزاز عندهم بأن يقيموا صلوات طويلة في الأماكن العامة، مدّعين بذلك مظهر التقوى الشديدة.

ولكن سيأتي يوم حساب عندما تتضح كل خفايا القلب، وينال المراؤون المنافقون كمثل هؤلاء العقاب العادل الذي يستحقون.

من اللافت للانتباه جداً والأمر ذي المغزى أن يسوع، بعد شجبه وتحذيره من أولئك الذين يصنعون ثروات من دون وجه حق، يمتدح سخاء أرملة فقيرة، على الأرجح أنها كانت إحدى هؤلاء الضحايا المسلوبين، كما أشار.

"وَجَلَسَ يَسُوعُ تُجَاهَ الْخِزَانَةِ وَنَظَرَ كَيْفَ يُلْقِي الْجَمْعُ نُحَاساً فِي الْخِزَانَةِ. وَكَانَ أَغْنِيَاءُ كَثِيرُونَ يُلْقُونَ كَثِيراً. فَجَاءَتْ أَرْمَلَةٌ فَقِيرَةٌ وَأَلْقَتْ فَلْسَيْنِ قِيمَتُهُمَا رُبْعٌ. فَدَعَا تَلاَمِيذَهُ وَقَالَ لَهُمُ: «ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَذِهِ الأَرْمَلَةَ الْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ أَلْقَوْا فِي الْخِزَانَةِ لأَنَّ الْجَمِيعَ مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا. وَأَمَّا هَذِهِ فَمِنْ إِعْوَازِهَا أَلْقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا كُلَّ مَعِيشَتِهَا»" (١٢: ٤١– ٤٤).

"جَلَسَ يَسُوعُ تُجَاهَ الْخِزَانَةِ". إنه يفعل ذلك في هدوء وسكينة. إنه يلاحظ كل ما يُدفع لأجل استمرارية الشهادة لله وتخفيف البؤس البشري. من الواضح أن صندوقاً للتبرعات كان قد وُضِعَ عند أو قرب أحد المداخل المؤدية إلى باحات الهيكل حيث كان المؤمنون يلقون فيه هباتهم لأجل الحفاظ على عبادة الرب وخدمته.

تطلع يسوع وَنَظَرَ "كَيْفَ يُلْقِي الْجَمْعُ نُحَاساً فِي الْخِزَانَةِ". لقد رأى المبالغ التي كانت تُوضع في الصندوق والطريقة التي كان يتم بها ذلك. مما لا شك فيه أن كثيرين كانوا يتبرعون بتباهٍ وبشكلٍ لافتٍ للأنظار، وهم يتوقون لينالوا الإعجاب من الآخرين على كرمهم وسخائهم العظيم.

وجاءت أرملة فقيرة إلى هناك، وإذ مرت بجوار الصندوق، ألقت فيه "فَلْسَيْنِ قِيمَتُهُمَا رُبْعٌ"، لعلهما كل ما كانت قد كسبته ذلك اليوم بالعمل الشاق في خدمة عائلة غنية ما.

إن طريقة السماء في احتساب القيم تختلف كلياً عن طريقة الأرض في ذلك. نحن معتادون على أن نحكم بحسب الكمية أو المقدار المقدّم. أما الرب فيقدّر قيمة التقدمة بالمقدار الذي تركه المرء. ولذلك شهد يسوع: "أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَذِهِ الأَرْمَلَةَ الْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ الَّذِينَ أَلْقَوْا فِي الْخِزَانَةِ". وشرع يشرح لهم كيف وصل إلى ذلك الاستنتاج المذهل للغاية. فالأغنياء ألقوا مالاً من وفرتهم. فبعد إلقاء تبرعاتهم في الخزينة

بقي لديهم مبالغ كبيرة يستخدمونها كما يشاؤون. وأما الأرملة فلم تترك شيئاً لنفسها. فقد تبرعت بكُلّ مَعِيشَتِهَا: أي كل ما كسبته طوال يومها. هكذا هي طريقة السماء في تقدير العطايا المقدمة لعمل الرب.

الأصحاح ١٣

هذا الأصحاح يجب أن يُقرأ ويدرس بعناية متصلاً مع متى ٢٤ ولوقا ٢١. هذه الأصحاحات الثلاثة تعطيناً تقريراً عن حديث ربنا على جبل الزيتون والذي فيه يتتبع نبوياً الأحوال التي كانت ستسود في فلسطين ووسط شعوب الأمميين بعد رفضه وقيامته، بما في ذلك دمار أورشليم على يد تيطس، وصولاً إلى ذروة الأحداث: المجيء الثاني لابن الإنسان وتأسيس ملكوت الله على الأرض بقوة ومجد متجليين. وعبثاً نبحث عن أي ذكر للكنيسة في الدهر الحالي. عندما نطق يسوع بهذه الكلمات لم يكن قد أُعلن شيءٌ بعد عن جسد المسيح. فهذا السر لم يُعرف إلا بعد أن أُعطي باستنارة خاصة لبولس الرسول وبه إلى الآخرين بعد وقت من بدء دهر النعمة الحالي.

ولذلك ففي قراءتنا لهذا الخطاب النبوي العظيم يحسن بنا أن نميز الطابع اليهودي الكامل فيه. ففي حين يكشف ما كان سراً حتى الآن، ليس فيه إشارة إلى أصل، أو مسير أو مصير الكنيسة، الشعب المقدس المرتبط الآن بالمسيح القائم بالروح القدس.

في حين أن كثير من أولئك الذين سمعوا هذا الخطاب كانوا مندمجين بتلك الكنيسة بفضل معمودية الروح القدس في يوم الخمسين (العنصرة) وما تلا، إلا أنه ينظر إلى الجميع على أنهم البقية اليهودية التي تنتظر تحقيق النبوءة التي في العهد القديم: تأسيس ملكوت المسيا، عندما سيرجع عبد يهوه الذي كان مرفوضاً في الماضي ويحكم جميع الأمم بِقَضِيب حَدِيدٍ من برّ صلب لا ينثني، بحسب الإعلان الذي ورد في المزمور الثاني. فالنخبة الذين هم نصب العين هم أوائل القديسين، من اليهود والأمميين المهتدين في الأيام الأخيرة– الأسبوع السبعين من دانيال ٩– الذين سيتجمعون من كل مكان ليرحبوا بالملك الذي يفترضون أن يؤسس ملكوته على جبل صهيون. أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار في ذهننا يجنبنا الكثير من التشويش والخلط.

مناسبة هذا الحديث تأتي أمامنا:

"وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ الْهَيْكَلِ قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلاَمِيذِهِ: «يَا مُعَلِّمُ انْظُرْ مَا هَذِهِ الْحِجَارَةُ وَهَذِهِ الأَبْنِيَةُ؟» فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: «أَتَنْظُرُ هَذِهِ الأَبْنِيَةَ الْعَظِيمَةَ؟ لاَ يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ». وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ تُجَاهَ الْهَيْكَلِ سَأَلَهُ بُطْرُسُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا وَأَنْدَرَاوُسُ عَلَى انْفِرَادٍ: «قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا وَمَا هِيَ الْعَلاَمَةُ عِنْدَمَا يَتِمُّ جَمِيعُ هَذَا؟»".

بينما كان يسوع وأتباعه يغادرون المدينة مساء ذلك اليوم الذي جادل فيه يسوع رؤساء الدين غير المؤمنين به فيما يخص مسائل عديدة، شعر التلاميذ بافتخار يمكن الصفح عنه بكونهم يهود، وذلك من خلال لفت انتباهه إلى عظمة أبنية الهيكل والأماكن المجاورة. ولا شك أنهم كانوا يظنون أن يسوع سيستولي على كل هذه، وسيقطنون هذه الأبنية معه لأنهم مرتبطون به ومشاركون في إدارة شؤون الملكوت. ولكنه أعلن، لدهشتهم، أنه لن يبقى حجر على حجر في كل هذه الأبنية العظيمة، إذ لا بد أن تُدمّر كلها.

إذ توقفوا لوهلة خلال سيرهم في الطريق، جلس يسوع عَلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ ينظر تُجَاهَ الْهَيْكَلِ، وسأله أربعة من تلاميذه– بُطْرُسُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا وَأَنْدَرَاوُسُ– على انفراد أن يخبرهم عن موعد حصول هذه الأمور، وعن العلامة التي ستدل على وشوك تحقيق ما يقوله.

"فَأَجَابَهُمْ يَسُوعُ وَابْتَدَأَ يَقُول: «اُنْظُرُوا! لاَ يُضِلُّكُمْ أَحَدٌ. فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: إِنِّي أَنَا هُوَ. وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ. فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَبِأَخْبَارِ حُرُوبٍ فَلاَ تَرْتَاعُوا لأَنَّهَا لاَ بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ الْمُنْتَهَى بَعْدُ. لأَنَّهُ تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ وَتَكُونُ زَلاَزِلُ فِي أَمَاكِنَ وَتَكُونُ مَجَاعَاتٌ وَاضْطِرَابَاتٌ. هَذِهِ مُبْتَدَأُ الأَوْجَاعِ" (١٣: ٥– ٨).

في هذه الآيات يضع الرب الخطوط الرئيسية لسير الأحداث في الدهر الحاضر، ويتحدث عن السمات العامة التي ستسود خلال غيابه. سوف لن يكون هناك تحسن في الأخلاق أو شؤون الأمم. لقد رُفِضَ أميرُ السلام. وبالتالي لن يكون هناك سلام دائم إلى أن يعود ليملك ويزيل كل رجس ودنس.

مسحاء كذبة كثيرون تم التنبؤ بأنهم سيأتون، وتحققت نبوءات كثيرة من هذه، ولكن الخروف الحقيقي في القطيع لن يعرف صوت هؤلاء الغرباء. حروب وإشاعات حروب لا بد أن تحصل، لأن الوحيد الذي كان ليمكنه أن يخلص الأمم من هذه الكوارث والنكبات قد رُفِضَ بازدراء وصُلِبَ. من الواضح أن يسوع قد توقع مسبقاً متنبئاً هذه كلها، ولذلك رسم بالضبط صورة حالة الأشياء التي نرى الآن أنها قد تلت صعوده إلى السماء عندما رفضه العالم.

منذ مغادرته لهذه الأرض، فإن ما ورد في الآية ٨ صار مضرب مثل. فقامت أمة على أمة، ومملكة ضد مملكة. واضطرابات عظيمة ملأت قلب الناس بالخوف، في حين أن مجاعات وقلاقل مؤلمة أخرى جعلت هذا العالم عالماً من الحزن والأسى. إلا أن الشكل الأسوأ للمعاناة لا يزال في المستقبل. فهذه الأمور هي مُبْتَدَأُ الأَوْجَاعِ، وإن استمرت حوالي عشرين قرناً.

والأنكى من كل ذلك هو المخاطر التي سيكون الناس معرضين لها عندما يحين أوان النهاية، عندما سيقع قضاء الله ودينوناته الأخيرة على الأرض. ولكن حتى في ذلك الزمان في وقت ضيق يعقوب وعهد التجربة والمحنة التي ستصيب كل العالم لاختبار أولئك الساكنين في الأرض، فإن رسالة الإنجيل سوف تُعلن وسوف تستمر إلى انقضاء الدهر.

"فَانْظُرُوا إِلَى نُفُوسِكُمْ. لأَنَّهُمْ سَيُسَلِّمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ وَتُجْلَدُونَ فِي مَجَامِعَ وَتُوقَفُونَ أَمَامَ وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِي شَهَادَةً لَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلاً بِالإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ الأُمَمِ. فَمَتَى سَاقُوكُمْ لِيُسَلِّمُوكُمْ فَلاَ تَعْتَنُوا مِنْ قَبْلُ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ وَلاَ تَهْتَمُّوا بَلْ مَهْمَا أُعْطِيتُمْ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَبِذَلِكَ تَكَلَّمُوا لأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ الْمُتَكَلِّمِينَ بَلِ الرُّوحُ الْقُدُسُ. وَسَيُسْلِمُ الأَخُ أَخَاهُ إِلَى الْمَوْتِ وَالأَبُ وَلَدَهُ وَيَقُومُ الأَوْلاَدُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ. وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ الْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي. وَلَكِنَّ الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ" (١٣: ٩– ١٣).

القديسون المتألمون المشار إليهم هنا هم بوضوح أبناء إسرائيل أولئك الذين سيكونون شهود الله الأخيرين بعد الكنيسة، كما نعرفها، وقد اختُطفوا إلى السماء، ويكون الأسبوع السبعون من دانيال ٩ قد بدأ. ثم سيقيم الله حشداً من الحكماء ليشهدوا ويعلنوا إنجيل الملكوت بين جميع الأمم. هؤلاء سيصب الشيطان جام حقده عليهم وسيتعرضون لعذابات مخيفة واضطهاد لا طاقة لهم عليه. ومع ذلك، فلا بد لإعلان الإنجيل إلى كل الأمم إلى أن تأتي النهاية.

قد نطبّق نحن أبناء هذا الدهر الحاضر هذه الكلمات على أنفسنا عندما نجد أنفسنا في ظروف مماثلة، ولكن يجب أن نرى التطبيق الفعلي الحقيقي لها.

بينما تصف الآيات ١١– ١٣ زمن الاضطهاد هذا، إلا أنها أيضاً تقدم تعزية وتشجيعاً لأولئك الذين سيعانون الاعتقال والسجن في تلك الأيام القاتمة. فالروح القدس سيمكّنهم من أن يجيبوا أولئك الذين يتهمونهم ظلماً بطريقة يعجز معها مناوئوهم ومجادلوهم من الرد عليهم أو مقاومتهم. قد يبدو هذا المقطع وكأنه يوحي بأن هذه الكلمات يمكن أن تنطبق فقط على زمن النعمة التدبيري الحالي حيث يسكن الروح القدس كل المؤمنين، إلا أن علينا أن نتذكر أنه حتى عندما يأتي عمله الحالي في الكنيسة إلى نهايته، ولا يعود يسكن شخصياً في القديسين كما هو الحال الآن، فإنه كلي الوجود أبداً وسيكون مع أولئك الذين يهتدون إلى المسيح في تلك الأيام القاتمة كما كان مع قديسي العهد القديم قبل العنصرة (الخمسين).

خيانة المرء أقرباءه، حتى الأولاد العاقّين الذين يسيئون معاملة والديهم الأتقياء، أو العكس، سوف يتطلب صبراً كثيراً وطول أناة من جهة أولئك الذين سيكونون شهداء للملك القادم في وقت الشدة ذاك. مُبْغَضِينَ من قِبَل كل الخانعين لقوة إبليس الذي يعمل في الحكومات الملحدة في تلك الأيام الأخيرة، فإن أولئك الذين يعترفون بالمسيح كملك حق على الأرض سوف يُمتحنون إلى الحد الأقصى، ولكن "الَّذِي يَصْبِرُ إِلَى الْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ". هذا لا يعني أن الخلاص في ساعة الشدة تلك سيعتمد على إيمان الفرد، بل إن ذلك الصبر إلى النهاية هو الدليل أبداً على الصدق. الاعتراف وحسب سينهار عندئذ، كما الآن، ولكن حيث يكون المرء قد تجدد حقاً، فإنه ينال قوةً للاستمرار في طريق التكرس للرب أياً كانت المحن التي يتوجب عليه احتمالها.

من الواضح من الأصحاح التاسع من سفر دانيال أن الأسبوع الأخير سيتألف من قسمين. الفترة كلها تُدعى "زَمَانُ ضِيقٍ" (دانيال ١٢: ١)، و"وَقْتُ ضِيقٍ عَلَى يَعْقُوبَ" (إرميا ٣٠: ٧). ولكن السنوات الثلاث ونصف الأخيرة، التي تبدأ بالاستعلان الكامل لإِنْسَان الْخَطِيَّةِ، هي التي تُعرف بـ " الضِيقة العَظِيمة". وهذه ستبدأ بِإِقَامَةِ رِجْسِ الْمُخَرِّبِ التي تم التنبؤ عنها في دانيال ١٢: ١١.

"فَمَتَى نَظَرْتُمْ «رِجْسَةَ الْخَرَابِ» الَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيآلُ النَّبِيُّ قَائِمَةً حَيْثُ لاَ يَنْبَغِي – لِيَفْهَمِ الْقَارِئُ – فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ وَالَّذِي عَلَى السَّطْحِ فَلاَ يَنْزِلْ إِلَى الْبَيْتِ وَلاَ يَدْخُلْ لِيَأْخُذَ مِنْ بَيْتِهِ شَيْئاً وَالَّذِي فِي الْحَقْلِ فَلاَ يَرْجِعْ إِلَى الْوَرَاءِ لِيَأْخُذَ ثَوْبَهُ. وَوَيْلٌ لِلْحَبَالَى وَالْمُرْضِعَاتِ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ. وَصَلُّوا لِكَيْ لاَ يَكُونَ هَرَبُكُمْ فِي شِتَاءٍ. لأَنَّهُ يَكُونُ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ ضِيقٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْخَلِيقَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى الآنَ وَلَنْ يَكُونَ. وَلَوْ لَمْ يُقَصِّرِ الرَّبُّ تِلْكَ الأَيَّامَ لَمْ يَخْلُصْ جَسَدٌ. وَلَكِنْ لأَجْلِ الْمُخْتَارِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ قَصَّرَ الأَيَّامَ. حِينَئِذٍ إِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: هُوَذَا الْمَسِيحُ هُنَا أَوْ هُوَذَا هُنَاكَ فَلاَ تُصَدِّقُوا. لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ وَيُعْطُونَ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ لِكَيْ يُضِلُّوا – لَوْ أَمْكَنَ – الْمُخْتَارِينَ أَيْضاً. فَانْظُرُوا أَنْتُمْ. هَا أَنَا قَدْ سَبَقْتُ وَأَخْبَرْتُكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ" (١٣: ١٤– ٢٣).

يجب أن نميز بين "الرِّجْس الْمُخَرّب" التي يرد الحديث عنها في (دانيال ١١: ٣١) والتي تشير إلى صورة جوبيتر التي علقها في الهيكل أنطيوخوس إبيفانيس في الماضي السحيق، و"رِجْسِ الْمُخَرَّبِ" الوارد ذكرها في (دانيال ١٢: ١١)، والتي تشير إلى الدمار الذي سيحدث. رِجْسَةَ الْخَرَابِ هذه الأخيرة هي التي كان ربنا يتحدث عنها. سواء كانت تصويراً حرفياً للوحش (رؤيا ١٣: ١٤، ١٥) الذي سيقيمه النبي الكذاب، الوحش

شِبْه الخَرُوف (أي المسيح الدجال) في الأيام الأخيرة، أو كانت هذه الصورة بحد ذاتها رمزاً لجماعة غامضة تسلك لأجل مصلحة الرئيس المجدِّف لإمبراطورية العالم الآتي، لا يمكننا أن نحدد بشكل قاطع. ولكن على ضوء كلام الرب فإن القلة الباقية التي تكون على قيد الحياة في ساعة التجربة تلك ستكون قادرة على الفهم وسيعرفون أن قوة الشرير يمكن أن تدوم فقط ١٢٦٠ يوماً بعد ذلك، وعند انقضاء ذلك الزمان سيشيد الملكوت. ومن هنا فإن الضيقة العظيمة ستدوم طوال ثلاث سنوات ونصف بعد استعلان رِجْسَةَ الْخَرَابِ هذه. وهذا سيكون الأوان الذي سيصب فيه الله جام غضبه على العالم المسيحي المرتد واليهودية المرتدة. وبالنسبة للمسيحيين، لقد أُعطيوا الوعد بأن غضب الله لن يصيبهم. إننا نترقب ربنا يسوع لكي يُنْقِذُنَا مِنَ الْغَضَبِ الآتِي (١ تسالونيكي ١: ١٠).

إن التعاليم المعطاة لنا في الآيات ١٤– ١٨ تنطبق بشكل خاص على القلة الباقية من اليهود في فلسطين خلال فترة حكم الوحش والمسيح الدجال. وكما في أيام تيطس، فإن التحذير قد أعطي لتجنب المدينة والهرب إلى البرية حيث ينجون من غضب الشيطان الذي سيستعلن بالمسيح الدجال.

كان دانيال قد تنبّأ عن "زَمَان ضِيقٍ لَمْ يَكُنْ مُنْذُ كَانَتْ أُمَّةٌ إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ". ويستخدم يسوع هنا لغة مشابهة قائلاً: "لأَنَّهُ يَكُونُ فِي تِلْكَ الأَيَّامِ ضِيقٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ابْتِدَاءِ الْخَلِيقَةِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى الآنَ وَلَنْ يَكُونَ" (١٣: ١٩).

ستكون الكارثة، التي ستقع على الأمم، فاجعة جداً لدرجة أنه إن "لَمْ يُقَصِّرِ الرَّبُّ تِلْكَ الأَيَّامَ لَن يَخْلُصْ جَسَدٌ". ولكنه يخبرنا أنه لأَجْلِ الْمُخْتَارِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ– أي البقية التقية من بني إسرائيل وأولئك الذين سينجون من بين الأمم– سوف يقَصّر الأَيَّامَ.

ستمضي ثلاث سنوات ونصف في حوالي ١٢٧٨ يوماً تقريباً. ولكن سطوة الوحش ستكون محدودة ومحصورة في ١٢٦٠ يوماً. فالأيام الـ ١٨ من "التقصير" سوف تسمح بخلاص الكثيرين من الهلاك الفعلي.

على ضوء القوة التدميرية للقنبلة الذرية يمكننا أن نرى كيف يمكن أخذ كلمات يسوع هذه حرفياً.

ففي ذلك الوقت الرهيب من المخادعة وتقسي القلب سيضلل كثيرون على يد مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، وكذلك على يد المسيح الدجال في أورشليم. ولكن النخبة الذين سيختارهم الله سيكونون في منأى عن تأثيرهم المخادع المضلل. ولهؤلاء يقول يسوع: "فَانْظُرُوا أَنْتُمْ. هَا أَنَا قَدْ سَبَقْتُ وَأَخْبَرْتُكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ".

من المؤكد أن هذه النبوءة عن الضيقة العظيمة لا تشير إلى أي حدث قد تحقق، كمثل دمار أورشليم، أو اضطهاد الكنيسة على يد روما الوثنية أو روما البابوية، لأن الآيات التالية تخبرنا عما سيحدث تماماً عندما تأتي فترة الغضب والدينونة هذه إلى الانقضاء.

"«وَأَمَّا فِي تِلْكَ الأَيَّامِ بَعْدَ ذَلِكَ الضِّيقِ فَالشَّمْسُ تُظْلِمُ وَالْقَمَرُ لاَ يُعْطِي ضَوْءَهُ وَنُجُومُ السَّمَاءِ تَتَسَاقَطُ وَالْقُوَّاتُ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ. وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ آتِياً فِي سَحَابٍ بِقُوَّةٍ كَثِيرَةٍ وَمَجْدٍ فَيُرْسِلُ حِينَئِذٍ مَلاَئِكَتَهُ وَيَجْمَعُ مُخْتَارِيهِ مِنَ الأَرْبَعِ الرِّيَاحِ مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلَى أَقْصَاءِ السَّمَاءِ" (١٣: ٢٤– ٢٧).

لاحظوا أن كل هذه الإشارات البشيرية والعودة الفعلية لابن الإنسان ستكون مباشرة "بَعْدَ ذَلِكَ الضِّيقِ". ومن هنا ندرك أن هذه الحالة لم تحدث بعد، لأن المجيء الثاني للرب لا يزال في المستقبل. ولا أحد

سوى الله يعرف متى يكون ذلك. ولكنه لا يزال أمراً يترقبه شعب الله، وليس شيئاً ينظرون إليه إلى الوراء أو في الماضي.

مجيئه إلى الأرض سترافقه اضطرابات طبيعية عنيفة عظيمة، حيث سيهتز كل شيء ويتمايل كمثل رجل سكّير يترنح، وحوادث فائقة للطبيعة ستجري وسط الأجرام السماوية. إن عبارة "الْقُوَّاتُ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ" هي الأبلغ تعبيراً إن اعتبرنا العصر الذري الذي دخلنا فيه، إذ أن "اليورانيوم" هو عنصر أخذ اسمه من الكلمة اليونانية التي تعني "سماء".

لاحظوا الفرق بين هذه المرحلة من المجيء الثاني وتلك التي يصورها الأصحاح (١ تسالونيكي ٤). فهنا يأتي ابن الإنسان إلى الأرض بقوة ومجد عظيمين. أما هناك فالرب ينزل من السماء، ولكنه يدعو قديسيه للقائه في الهواء. هنا يرسل ملائكته ليجمع مُخْتَارِيهِ (أي القلة التقية الباقية من بني إسرائيل والأمم الذين سيكونون في انتظاره في ذلك اليوم) مِنَ الأَرْبَعِ الرِّيَاحِ مِنْ أَقْصَاءِ الأَرْضِ إِلَى أَقْصَاءِ السَّمَاءِ. وهناك مختاروه المقدسون، أي قديسوا العصور الماضية والكنيسة، جسد المسيح، سيُختطفون لملاقاته في الهواء، لكي يعودوا معه في مجد عندما يتحقق ما ورد في هذا المقطع من مرقس.

"فَمِنْ شَجَرَةِ التِّينِ تَعَلَّمُوا الْمَثَلَ: مَتَى صَارَ غُصْنُهَا رَخْصاً وَأَخْرَجَتْ أَوْرَاقاً تَعْلَمُونَ أَنَّ الصَّيْفَ قَرِيبٌ. هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضاً مَتَى رَأَيْتُمْ هَذِهِ الأَشْيَاءَ صَائِرَةً فَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى الأَبْوَابِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَمْضِي هَذَا الْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ. اَلسَّمَاءُ وَالأَرْضُ تَزُولاَنِ وَلَكِنَّ كَلاَمِي لاَ يَزُولُ. وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلاَ يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ الاِبْنُ إِلاَّ الآبُ. اُنْظُرُوا! اسْهَرُوا وَصَلُّوا لأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ مَتَى يَكُونُ الْوَقْتُ" (١٣: ٢٨– ٣٣).

في هذا الجزء تُستخدم شجرة التين كرمز إلى يَهُوذَا، أو الشعب اليهودي. إنها تشير إلى بني إسرائيل. عندما تُخرج شجرة التين ورقها يعرف المرء أن الصيف قد اقترب. ولذلك عندما يقترب حدوث هذه الأمور– عندما يحاول اليهود أن يتميزوا كشعب من جديد ويبدأ حدوث تلك العلامات الموصوفة، فالكل سيعرف أن التحقيق، مجيء الملك، قد حان. سيبقى جيل من اليهود غير المؤمنين حتى ذلك الوقت. ولن تهلكهم محاولات الشيطان.

ومهما هزأ غير المؤمنين، فإن كلمة الله سوف تثبت. السماء والأرض قد تزولان، أما كلامه فلا يزول أبداً.

عبثاً نحاول أن نضع مخططاً كرونولوجيّاً (بالترتيب الزمني) لكي نحدد زمن مجيئه. فهذا سر لم يُكشف حتى للملائكة، وكإنسان على الأرض اختار ابن الإنسان ألا يعرف. إنه حق وامتياز خاص بالآب أن يحدد الزمن، كما أعلن يسوع أيضاً في (أعمال ١: ٧). يا لبطء البشر في قبول هذه الحقيقة، وكم يتخبطون ويتحامقون في محاولة حساب وقت عودته!

إن لنا أن ننتبه إلى كلماته، وأن نسهر ونترقب ونصلي، منتظرين تحقيق وعوده.

"كَأَنَّمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ تَرَكَ بَيْتَهُ وَأَعْطَى عَبِيدَهُ السُّلْطَانَ وَلِكُلٍّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ وَأَوْصَى الْبَوَّابَ أَنْ يَسْهَرَ. اُسْهَرُوا إِذاً لأَنَّكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ مَتَى يَأْتِي رَبُّ الْبَيْتِ أَمَسَاءً أَمْ نِصْفَ اللَّيْلِ أَمْ صِيَاحَ الدِّيكِ أَمْ صَبَاحاً. لِئَلاَّ يَأْتِيَ بَغْتَةً فَيَجِدَكُمْ نِيَاماً! وَمَا أَقُولُهُ لَكُمْ أَقُولُهُ لِلْجَمِيعِ: اسْهَرُوا»" (١٣: ٣٤– ٣٧).

كمثل رجل سافر بعد أن أعطى تعليماته إلى خدامه تتعلق بواجباتهم في غيابه ولكن لم يحدد لهم يوم أو ساعة عودته، هكذا يسوع ربنا صعد إلى السماء، معلناً أنه عندما يحين الأوان سيأتي من جديد ولكن دون أن يحدد لهم الوقت. في هذه الأثناء نكون نحن هنا لخدمته، هو الذي حدد "لِكُلِّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ" وَأَوْصَى الْبَوَّابَ أَنْ يَسْهَرَ.

بسبب عدم المعرفة الأكيدة بموعد رجوعه إلى الأرض، على جميع خدامه أن يكونوا على أهبة الاستعداد، منتظرين وساهرين في ترقب لئلا يأتي فجأة ويجدهم نياماً. وللجميع تأتي الكلمة التحذيرية أن " اسْهَرُوا".

القسم (٢)- الأصحاحات ١٤ و١٥
الذبيحة الأسمى

تتسارع الأحداث الآن إلى النهاية، حيث سيموت ربنا المبارك على الصليب كتقدمة كفارية عظيمة عن الخطية. في متى رأيناه ذبيحة فصحية، مستعيداً الَّذِين لَمْ يخْطَفْهُم (مز ٦٩: ٤). وهنا يسلم ذاته للموت لكي يوفي كل التبعات الناجمة عن الخطيئة في نظر الله، فيكون بذلك، ليس فصحاً حقيقياً وحسب، بل أيضاً العنصر المميِّز المتأصّل في قلب الإنسان الساقط، العداء نحو الله المتبدي في أفعال التمرد ضده. إن الخطوات المؤدية مباشرة إلى الصليب جليلة مهيبة بشدة ومنورة بعمق للغاية.

نلاحظ العداء المطَّرد أبداً عند رؤساء الكهنة والكتبة في الآيات ١ و ٢.

"وَكَانَ الْفِصْحُ وَأَيَّامُ الْفَطِيرِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ. وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةُ يَطْلُبُونَ كَيْفَ يُمْسِكُونَهُ بِمَكْرٍ وَيَقْتُلُونَهُ وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: «لَيْسَ فِي الْعِيدِ لِئَلاَّ يَكُونَ شَغَبٌ فِي الشَّعْبِ»" (١٤: ١، ٢).

هؤلاء المراءون الماكرون الذين كانوا يخدمون الشيطان في بزّة السماء كانوا أكثر براعة ومكراً من أن يجازفوا باعتقال يسوع علانية في يوم العيد، إذ سيكون هناك الكثير من عامة الشعب في أورشليم سيتوجب عليهم مواجهتهم في ذلك الوقت. ولذلك تآمروا سراً منتظرين الساعة المناسبة لينفذوا خططهم الشائنة.

في هذه الأثناء شاءت مجموعة صغيرة من الذين أحبوه أن يكرّموه بطريقة خاصة. كان المنزل في بيت عنيا، حيث تعيش مريم ومرتا ولعازر، أحد أجمل الأماكن في الأرض المحببة على قلب ربنا المبارك. لقد كان أحد الأماكن التي كان الرب فيها موضع ترحيب على الدوام والتي كانت تُفهم فيه رسالته على أفضل وجه. ولعل مريم دخلت إلى فكره أكثر من الباقين لأنها كانت تتعلم عند قدميه ما خفي على أختها الأكثر انشغالاً منها بأعباء المنزل والضيافة، بل حتى كانت في ذلك أفضل من لعازر. أمام هؤلاء الثلاثة كان الرب يسوع يسمح لانفعالاته بأن تظهر وتتدفق أكثر من الآخرين. ونقرأ أن يسوع كان "يُحِبُّ مَرْثَا وَأُخْتَهَا وَلِعَازَرَ" (يوحنا ١١: ٥)، ومن الواضح جداً أنهم كانوا يقدّرون تلك المحبة ويبادلونه إياها، إذ عندما كان الأخ مريضاً، فكرت الأختان أنه كان يكفي أن يبعثا رسولاً إلى يسوع ليقول له: "هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ" (يوحنا ١١: ٣).

أعرف أن البعض يسلّم بوجود امرأتين في قصتين مختلفتين عن دهن الرب يسوع بالطيب في بيت عنيا، ولكن يبدو لي أن هذا محال تماماً نظراً إلى حقيقة أن نفس الحوار قد دار عملياً في كلتا الروايتين. في كلتا الحادثتين يعترض التلاميذ على تَلَف الطِّيبِ على أساس أنه كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ. وفي كل حالة منهما، يدافع الرب عن المرأة فيما بدا لهما تلفاً ويعبّر عن تقديره الشخصي لهذا العمل الذي قامت به المرأة. أرى شخصياً أن هذه الكلمات تبرهن حصرياً على أن هذه المرأة هي مريم التي من بيت عنيا، أخت مرتا ولعازر، وقد مسحت الرب بالطيب، وليس من سواها.

من اللافت والممتع أن نلاحظ كيف أن الروح القدس يتحدث عن بيت عنيا على أنها " قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتِهَا". لا بد أن كثير من الناس المهمين كانوا يسكنون تلك الضاحية القريبة جداً من أورشليم، وكان ليمكن للمرء أن يربط بينها وبينهم بشكل طبيعي أكثر منه بهذه العائلة الهادئة المتواضعة. ولكن بالنسبة لله، كانت هذه "قريتهم"، لأنهم أحبوا ابنه وآمنوا به. لعل في هذا مجرد إشارة ولو بسيطة إلى الطريقة التي ينظر فيها الرب إلى مدننا وقرانا اليوم، مقدراً إياها، ليس لأنها أماكن إقامة أولئك العظماء في نظر العالم– ذوي الأسماء

اللامعة في السياسة والعلوم والأعمال– بل لأنها أماكن سكن بعض قديسيه الذين يعتبرون من "الْهَادِئِينَ فِي الأَرْضِ" (مز ٣٥: ٢٠)، فقراء هذا العالم، الأغنياء في الإيمان (يعقوب ٢: ٥)، الَمَجْهُولِونَ للناس، ولكن المَعْرُوفُونَ عند الله (٢ كور ٦: ٩).

"وَفِيمَا هُوَ فِي بَيْتِ عَنْيَا فِي بَيْتِ سِمْعَانَ الأَبْرَصِ وَهُوَ مُتَّكِئٌ جَاءَتِ امْرَأَةٌ مَعَهَا قَارُورَةُ طِيبِ نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ الثَّمَنِ. فَكَسَرَتِ الْقَارُورَةَ وَسَكَبَتْهُ عَلَى رَأْسِهِ. وَكَانَ قَوْمٌ مُغْتَاظِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا: «لِمَاذَا كَانَ تَلَفُ الطِّيبِ هَذَا؟ لأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هَذَا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ». وَكَانُوا يُؤَنِّبُونَهَا. أَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ: «اُتْرُكُوهَا! لِمَاذَا تُزْعِجُونَهَا؟ قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلاً حَسَناً. لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ وَمَتَى أَرَدْتُمْ تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِمْ خَيْراً. وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ. عَمِلَتْ مَا عِنْدَهَا. قَدْ سَبَقَتْ وَدَهَنَتْ بِالطِّيبِ جَسَدِي لِلتَّكْفِينِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهَذَا الإِنْجِيلِ فِي كُلِّ الْعَالَمِ يُخْبَرْ أَيْضاً بِمَا فَعَلَتْهُ هَذِهِ تَذْكَاراً لَهَا»" (١١٤: ٣– ٩).

"فِي بَيْتِ سِمْعَانَ الأَبْرَصِ". لا نعرف شيئاً عن هذا الرجل، ولكن الافتراض هو أنه كان أبرص وأن يسوع طهّره. افترض البعض أنه كان زوج مرتا، وآخرون افترضوا أنه كان والد الثلاثة الذين كانوا أصدقاء مقربين ليسوع. الـــ "امْرَأَةٌ مَعَهَا قَارُورَةُ طِيبِ نَارِدِينٍ" هي مريم، الذي نقرأ عن عملها هذا الدال على التكرس في يوحنا ١٢. فما كانت لتعتبر أن أي شيء غالٍ على يسوع، ولذلك سكبت على رأسه، وأيضاً على قدميه (كما يقول يوحنا) الطِيب نَارِدِين وهو متكيء إلى المائدة. لقد كانت تقدمة جميلة لذاك الذي كانت ترى فيه المسيا الموعود.

سأل البعض: "لِمَاذَا كَانَ تَلَفُ الطِّيبِ هَذَا؟" ونعرف، من رواية يوحنا، أن يهوذا كان أصل اللغط والتذمر والاستياء. وهذا يدل على مدى ضعف فهمه هو والباقين للأحداث الوشيكة الحصول، رغم أن يسوع قد تنبأ عنها مراراً وتكراراً. لقد سَبَقَتْ مريم وَدَهَنَتْ بِالطِّيبِ جَسَدِهِ لِلتَّكْفِينِ (الآية ٨).

"كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هَذَا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلاَثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ". الدينار الروماني كان عملة نقدية من الفضة قيمته أقل من الـــ ٢٥ سنتاً حالياً، ولكن كان لها قيمة شرائية أكبر منها بكثير، فقد كانت الأجر اليومي العادي للعامل الكادح في ذلك الزمان. وبالتالي، بحسب تقديرات يهوذا، كانت قارورة الطيب تعادل أجور سنة كاملة، مع حذف أيام السبوت وأيام الأعياد الخاصة. لقد بدا هذا تبذيراً أُنْفِقَ بدون حساب على يسوع، ولكن المحبة الحقيقية لا تعرف حدوداً لما تُسر بأن تقدم أو تفعل للمحبوب. الاقتراح بأن ثمن الطيب كان يمكن تقديمه صدقةً لا يعني، بالضرورة، أن يهوذا كان ليهتم بالفقراء. نعلم أن ذلك كان لأنه كان سَارِقاً وَكَانَ الصُّنْدُوقُ عِنْدَهُ وَكَانَ يَحْمِلُ مَا يُلْقَى فِيهِ (يوحنا ١٢: ٦).

" اُتْرُكُوهَا! .... قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلاً حَسَناً". لقد كان يسوع دائماً يقدّر كل دلالة على المحبة الحقيقية، وأعطى قيمة كبيرة لفعل المحبة المتفانية الذي قامت به مريم. ما من شيء يضيع إذا قُدِّمَ ليسوع ربنا. إنه يستحق أفضل ما لدينا. فعل التكرس العبادي الذي تبديه مريم كان خير مثال على ما نقرأه في نشيد الأنشاد (١: ١٢). فقد عرفت في يسوع ملك إسرائيل الحقيقي.

"الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ ..... وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ". من الملائم والواجب أبداً أن نخدم المحتاجين، الذين يمكن أن نجدهم دائماً إن رغبنا في مساعدتهم. هذه الخدمة مطلوبة وواجبة في كل حين. ولكن يسوع كان على وشك أن يغادرهم، وبدا أن مريم أدركت ذلك.

"عَمِلَتْ مَا عِنْدَهَا". ليس من إطراء أعظم من هذا. في مقدور الجميع أن يفعلوا أشياء عظيمة للمسيح، ولكن حسنٌ أن يفعل كل واحد ما يستطيع كما لو كان يفعل ذلك للرب نفسه.

"حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهَذَا الإِنْجِيلِ .... يُخْبَرْ أَيْضاً بِمَا فَعَلَتْهُ هَذِهِ تَذْكَاراً لَهَا". لم تفكر مريم ذلك اليوم بأن تعبيرها عن محبتها للملك المرفوض سيجعل اسمها معروفاً في كل أرجاء العالم؛ وهذا ما حصل فعلاً لأن قصتها قد روتها ثلاثة أناجيل ونُقلت إلى كل صقعٍ في الأرض يُكرز فيه بالمسيح.

في هؤلاء الأصدقاء الثلاثة ليسوع نجد مواصفات يجب أن يتميز بها كل من يؤمن به. ففي مرتا نجد الخدمة، والتي تبلغ ذروتها عندما تكون خالية من الهم والقلق ويُقام بها كما للرب نفسه. وفي مريم نجد التلمذة والتعبد. لقد كانت تُسر بأن تأخذ دور التلميذ عند أقدام يسوع وأن تسكب أفضل ما عندها عليه. ولعازر الذي كان يجلس معه إلى المائدة (يوحنا ١٢: ٢)، يتميز بالشركة أو الصداقة (الصحبة). مغبوطٌ من تجتمع فيه كل هذه الصفات!

إن الخيانة، والمحاكمة الهازئة، والحكم بالموت على ربنا المبارك تشكل معاً أكبر إخفاق للعدالة في كل التاريخ. ومع ذلك فإن كل شيء كان معروفاً مسبقاً عند الله، وكل شيء كان متوافقاً مع الكلمة النبوية الأكيدة. أولئك الذين اشتركوا في تلك الجريمة الشائنة كانوا جميعاً يلعبون الدور الذي تم التنبّؤ عنه منذ القدم، رغم أنهم ما كانوا يعرفون ذلك. ليس الأمر أنه قُدِّرَ لهم مسبقاً أن يسلكوا كما فعلوا. فقد كانت لديهم الحرية الأخلاقية ليفعلوا ما يشاؤون، بمعنى من المعاني، ذلك لأنهم تصرفوا على ذلك النحو عن عمد بمحض إرادتهم. ولكنهم كانوا عبيد الشيطان، العدو الرئيسي لله والإنسان، الذي قادهم لأن يفعلوا ما كان الله نفسه قد أعلن أنه سيُصنع. هناك فرق بين معرفته السابقة وتقديره (بقضاء وقَدَر) حدوث الأمور– هذا الفرق قد ميزه بطرس عندما أعلن، في يوم العنصرة (الخمسين) قائلاً (عن المسيح): "أَخَذْتُمُوهُ مُسَلَّماً بِمَشُورَةِ اللهِ الْمَحْتُومَةِ وَعِلْمِهِ السَّابِقِ وَبِأَيْدِي أَثَمَةٍ صَلَبْتُمُوهُ وَقَتَلْتُمُوهُ" (أع ٢: ٢٣). كل مناوئيه في تلك الدراما التاريخية المريعة كان مسؤولاً شخصياً عن سلوكه نحو المخلص القدوس، حتى وإن كان قد جاء بطرقهم إلى الصليب حيث قدّم نفسه كفّارة استرضائية عن خطايانا.

"ثُمَّ إِنَّ يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ وَاحِداً مِنَ الاِثْنَيْ عَشَرَ مَضَى إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ لِيُسَلِّمَهُ إِلَيْهِمْ. وَلَمَّا سَمِعُوا فَرِحُوا وَوَعَدُوهُ أَنْ يُعْطُوهُ فِضَّةً. وَكَانَ يَطْلُبُ كَيْفَ يُسَلِّمُهُ فِي فُرْصَةٍ مُوافِقَةٍ" (١٤: ١٠، ١١).

"يَهُوذَا الإِسْخَرْيُوطِيَّ وَاحِداً مِنَ الاِثْنَيْ عَشَرَ". لقد كان أمين الصُّنْدُوق لجماعة الرسل (يوحنا ١٢: ٦)، وموضع ثقة الآخرين، ولكنه لم يكن متجدداً أبداً في قلبه وحياته (يوحنا ٦: ٧٠). إذ كان معدوداً ابناً لله (أع ١: ١٧) فإنه كان حقاً ابن الهلاك (يوحنا ١٧: ١٢)، مقدراً له، بسبب خطاياه الخاصة به، مصير الأبدية الضالة في العقاب الأبدي. لقد كان هذا "مَكَانه" (أع ١: ٢٥). رغم أنه كان له امتياز كبير، إلا أنه كان خيراً له لو لم يُولد (متى ٢٦: ٢٤). من الواضح أنه كان الوحيد من بين الاثني عشر الذي لم يكن جليلياً. الاسخريوطي تعني "رجل من قَرْيُوتَ"، وهي مدينة في يَهُوذَا.

"وَعَدُوهُ أَنْ يُعْطُوهُ فِضَّةً". الجشع، محبة المال، هو أصل كل الشرور (١ تيموثاوس ٦: ١٠). لقد دُفع يهوذا لخيانة معلمه وتسليمه إلى أولئك الذين كانوا يسعون لقتله.

لقد قال سمعان عن الرب يسوع المسيح عندما أخذ الطفل الإلهي بين ذراعيه عند تقديمه إلى الهيكل ما يخطر في قلب كثيرين (لوقا ٢: ٣٥). يسوع المسيح هو مِحكّ كل القلوب. كل شيء يعتمد على موقفنا نحوه. يهوذا، الذي رافقه لحوالي ثلاث سنوات، خانه بدناءة على نحو مخزٍ. وبطرس، الصادق في قلبه، امتلأ بروح الجبن، وأنكر أي صلة له به. في حين أن بيلاطس، المقتنع ببراءته، استسلم بضعف لأولئك الذين كانوا يصرخون طالبين قتله، وحكم عليه بالصلب. هؤلاء جميعاً يمثلون البشر، ويظهرون الطرق المختلفة التي لا يزال الناس يسلكون بها نحو مسيح الله.

"وَفِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الْفَطِيرِ. حِينَ كَانُوا يَذْبَحُونَ الْفِصْحَ قَالَ لَهُ تَلاَمِيذُهُ: «أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نَمْضِيَ وَنُعِدَّ لِتَأْكُلَ الْفِصْحَ؟» فَأَرْسَلَ اثْنَيْنِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ وَقَالَ لَهُمَا: «اذْهَبَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَيُلاَقِيكُمَا إِنْسَانٌ حَامِلٌ جَرَّةَ مَاءٍ. اتْبَعَاهُ. وَحَيْثُمَا يَدْخُلْ فَقُولاَ لِرَبِّ الْبَيْتِ: إِنَّ الْمُعَلِّمَ يَقُولُ: أَيْنَ الْمَنْزِلُ حَيْثُ آكُلُ الْفِصْحَ مَعَ تَلاَمِيذِي؟ فَهُوَ يُرِيكُمَا عِلِّيَّةً كَبِيرَةً مَفْرُوشَةً مُعَدَّةً. هُنَاكَ أَعِدَّا لَنَا». فَخَرَجَ تِلْمِيذَاهُ وَأَتَيَا إِلَى الْمَدِينَةِ وَوَجَدَا كَمَا قَالَ لَهُمَا. فَأَعَدَّا الْفِصْحَ" (١٤: ١٢– ١٦).

عندما جاء اليوم الذي كان يجب تقريب حمل الفصح فيه سأل التلاميذ عن المكان الذي سيأكلون فيه الفصح مع معلمهم. لكونهم زائرون في أورشليم فلم يكن لهم منزل خاص بهم يقيمون فيه شعائر هذا العيد المقدس. ولكن جرت العادة أن يقدم العديد من العائلات غرفة للضيوف يستطيع الغرباء عن أورشليم أن يستخدموها بحرية ليحتفلوا بالعيد بحسب التعاليم الناموسية المتعلقة بهذه الخدمة.

كان يسوع قد توقع مسبقاً كل ذلك، وأرسل اثْنَيْنِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ إلى المدينة مع تعليمات محددة بأن يبحثوا عن رجل معين ينبغي أن يلاقيهم، وهو يحمل جَرَّةَ مَاءٍ. لقد كان في هذا تحديد أدق بكثير مما نتصور، إذ عادة ما تحمل النساء الماء في جرار خزفية أو أكواز على رؤوسهن أو أكتافهن. فرؤية رجل يفعل ذلك سيكون بلا ريب أمراً غريباً. عندما سيقابلهما الرجل، عليهما أن يتبعاه إلى أي منزل يدخله، وكان عليهما أن يقولا لصاحب ذلك البيت: "إِنَّ الْمُعَلِّمَ يَقُولُ: أَيْنَ الْمَنْزِلُ حَيْثُ آكُلُ الْفِصْحَ مَعَ تَلاَمِيذِي؟" وسيريهما المضيف في الحال حجرة علوية كبيرة مفروشة ومعدة وفيها سيعدّان وليمة الفصح.

وإذ اتبع التلميذان التعليمات المعطاة، مضى الاثنان إلى المدينة ووجدا كل شيء تماماً كما قال يسوع، فَأَعَدَّا الْفِصْحَ.

"وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ جَاءَ مَعَ الاِثْنَيْ عَشَرَ. وَفِيمَا هُمْ مُتَّكِئُونَ يَأْكُلُونَ قَالَ يَسُوعُ: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. اَلآكِلُ مَعِي!» فَابْتَدَأُوا يَحْزَنُونَ وَيَقُولُونَ لَهُ وَاحِداً فَوَاحِداً: «هَلْ أَنَا؟» وَآخَرُ: «هَلْ أَنَا؟» فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: «هُوَ وَاحِدٌ مِنَ الاِثْنَيْ عَشَرَ الَّذِي يَغْمِسُ مَعِي فِي الصَّحْفَةِ. إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْراً لِذَلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ!»" (١٤: ١٧– ٢١).

في المساء، الذي كان في بداية الرابع عشر من نيسان (نفس اليوم الذي كان يسوع سيموت فيه لأنه المرموز إليه بالحمل الفصحي)، جاء مع تلاميذه الاثني عشر، بمن فيهم يهوذا الخائن، وجلس أو اتكأ معهم جميعاً

إلى المائدة التي وضعوا عليها مختلف الأطباق كما حدد الناموس، إضافة إلى كؤوس معينة من الخمر الذي كان شيئاً مألوفاً معتاداً.

وإذ راحوا يحتفلون بالعيد بصمت وإجلال تكلم يسوع فقال: "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِداً مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. اَلآكِلُ مَعِي".

أجفل التلاميذ لسماعهم ما كان من الممكن أبداً أن يعقل أو يصدق، وسأله الأحد عشر بقلوب صادقة: "هَلْ أَنَا؟" وطرح يهوذا المنافق نفس السؤال. فأجاب يسوع وَقَالَ لَهُمْ: "هُوَ وَاحِدٌ مِنَ الاِثْنَيْ عَشَرَ الَّذِي يَغْمِسُ مَعِي فِي الصَّحْفَةِ". ثم أضاف قائلاً ما يعتقد المرء أنه كان ليمس أقسى القلوب، عندما أعلن: "إِنَّ ابْنَ الإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ابْنُ الإِنْسَانِ. كَانَ خَيْراً لِذَلِكَ الرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ!".

ماذا كان شعور يهوذا وهو يسمع هذه الكلمات؟ لا نعلم، ولا فائدة من التفكير في ذلك. ولكن بعد قليل، وكما يخبرنا يوحنا، التفت يسوع إليه وقال له: "«مَا أَنْتَ تَعْمَلُهُ فَاعْمَلْهُ بِأَكْثَرِ سُرْعَةٍ»" (يوحنا ١٣: ٢٧)، فنهض وخرج في الحال تحت جنح الظلام.

يبدو واضحاً أنه بعد خروج يهوذا مباشرة تأسس عشاء الرب.

"وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزاً وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَاهُمْ وَقَالَ: «خُذُوا كُلُوا هَذَا هُوَ جَسَدِي». ثُمَّ أَخَذَ الْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ فَشَرِبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ. وَقَالَ لَهُمْ: «هَذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ أَشْرَبُ بَعْدُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ جَدِيداً فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ»" (١٤: ٢٢– ٢٥).

إذ يوشك عيد الفصح، التذكار السنوي لتحرير بني إسرائيل من عبودية مصر، على أن ينتهي، يدشّن يسوع عيداً آخر ليكون تذكاراً طوال العصر المسيحي ابتداء من موته والفداء الذي أُنجز بفضل ذلك.

فقد أخذ إحدى أرغفة الفصح المسطحة الفطير، وبعد الشكر، كسره وأعطاه للتلاميذ ليشارك الجميع في تناوله، قائلاً: "«خُذُوا كُلُوا هَذَا هُوَ جَسَدِي»". بالتأكيد لم يخطر في ذهن أحد منهم آنذاك ولو لوهلة أنه يحيل الخبز إلى جسده الفعلي. ورغم أنهم لم يفهموا كل ما عناه بذلك الفعل البسيط، إلا أنهم على الأقل عرفوا أنه يرمز بالخبز إلى جسده.

ثم أخذ الكأس الذي كان من ثمر الكرمة، عصارة العنب، وبعد الشكر على ذلك أيضاً، مرره على الأحد عشر، وشرب الجميع منه. وشرح معنى ذلك بقوله: "هَذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ". وأضاف قائلاً: "اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لاَ أَشْرَبُ بَعْدُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ جَدِيداً فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ". لم يستطيعوا فهم معنى هذا القول آنذاك، ولكن كل شيء سيصبح واضحاً فيما بعد.

الكلمة اليونانية المستخدمة هنا بمعنى "عهد" تعني أيضاً "وعد وميثاق". لقد كانوا يعرفون أن الله قد وعد أن يقيم عهداً جديداً مع إسرائيل ويهوذا– عهداً من النعمة الخالصة. العهد الأول في سيناء كان قد تم تصديقه برش الدم. الكأس التي اشترك التلاميذ في الشرب منه كان يرمز إلى الدم الذي كان لِيُختمَ به العهد الجديد.

عندما انتهى كل شيء غادرت الجماعة الصغيرة العلية واتخذوا سبيلهم إلى جَثْسَيْمَانِي.

"ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ. وَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «إِنَّ كُلَّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ لأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ الرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ الْخِرَافُ. وَلَكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ». فَقَالَ لَهُ بُطْرُسُ: «وَإِنْ شَكَّ الْجَمِيعُ فَأَنَا لاَ أَشُكُّ!» فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ إِنَّكَ الْيَوْمَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». فَقَالَ بِأَكْثَرِ تَشْدِيدٍ: «وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ». وَهَكَذَا قَالَ أَيْضاً الْجَمِيعُ. وَجَاءُوا إِلَى ضَيْعَةٍ اسْمُهَا جَثْسَيْمَانِي فَقَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «اِجْلِسُوا هَهُنَا حَتَّى أُصَلِّيَ». ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا وَابْتَدَأَ يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ. فَقَالَ لَهُمْ: «نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدّاً حَتَّى الْمَوْتِ! امْكُثُوا هُنَا وَاسْهَرُوا»" (١٤: ٢٦– ٣٤).

"ثُمَّ سَبَّحُوا". على الأرجح أن هذا التسبيح هو ما كان يعرف آنذاك باسم "التهليلة الصغرى" المؤلفة من المزامير ١١٣– ١١٨. لنفكر في يسوع، والصليب على مقربة، بل وحتى منظور ليسوع، وهو يؤمُّ التسابيح مع الجماعة الصغيرة.

وبينما هم يسيرون في تؤدة على طول الطريق من البيت الذي تناولوا فيه الفصح، خارجين من بوابة المدينة عبر الجسر إلى جبل الزيتون، حذّر يسوع التلاميذ من الارتداد القادم. فهو، الراعي، سيُضرب، كما تنبّأ زكريا (١٣: ٧). وأما هم، خِرَافُ قطيعه، فسوف يتبددون، لأنهم سيترددون ويرتبكون من جراء ما سيصيبه.

إلا أنه أعطاهم من جديد الوعد بقيامته، وذكّرهم أنه بعدئذ سيسبقهم إلى الجليل ليلقاهم هناك.

إذ كان واثقاً من نفسه ويجهل ضعفه، أعلن بطرس قائلاً: "وَإِنْ شَكَّ الْجَمِيعُ (ترددوا) فَأَنَا لاَ أَشُكُّ". فقال له يسوع أنه وقبل أن يصيح الديك مرتين سوف ينكر ثلاث مرات أية معرفة بذاك الذي كان يعترف به معلماً له. في أناجيل أخرى يرد القول أن "قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ". ليس من تناقض في هذا. فصياح الديك كان في وقت محدد– الساعة الثالثة صباحاً. من هنا نعلم أنه كان يشير أيضاً إلى صياح ديك معين مرتين.

وإذ كان لا يزال منفعلاً قال بطرس باحتدام: "وَلَوِ اضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لاَ أُنْكِرُكَ". وأكد العشرة الآخرون نفس الأمر.

وأخيراً وصلوا إلى ضَيْعَة جَثْسَيْمَانِي، البستان الذي كان يسوع غالباً ما يذهب إليه ليصلي ويتواصل مع أبيه. فترك ثمانية تلاميذ قرب المدخل وأمرهم أن يمكثوا هناك بينما ذهب هو إلى الصلاة. ولكنه الآن أخذ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا مَعَهُ إلى البستان، وإذ نظروا رأوا تغيراً كبيراً يطرأ عليه. فهدوء نفسه المعتاد استحال إلى اضطراب في الروح، فأدركوا أنه كان يمر بمحنة شديدة. ولكنهم لم يستطيعوا أن يفهموا حتى عندما أعلن لهم قائلاً: "نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدّاً حَتَّى الْمَوْتِ". لقد طلب إليهم أن يبقوا في مكانهم وأن يسهروا في حين أنه توغل في بستان الزيتون.

"ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلاً وَخَرَّ عَلَى الأَرْضِ وَكَانَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ السَّاعَةُ إِنْ أَمْكَنَ. وَقَالَ: «يَا أَبَا الآبُ كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ فَأَجِزْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ. وَلَكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ». ثُمَّ جَاءَ وَوَجَدَهُمْ نِيَاماً فَقَالَ لِبُطْرُسَ: «يَا سِمْعَانُ أَنْتَ نَائِمٌ! أَمَا قَدَرْتَ أَنْ تَسْهَرَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟ اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلاَّ تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا الرُّوحُ فَنَشِيطٌ وَأَمَّا الْجَسَدُ فَضَعِيفٌ». وَمَضَى أَيْضاً وَصَلَّى قَائِلاً ذَلِكَ الْكَلاَمَ بِعَيْنِهِ. ثُمَّ رَجَعَ وَوَجَدَهُمْ أَيْضاً نِيَاماً إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ثَقِيلَةً فَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَاذَا يُجِيبُونَهُ. ثُمَّ جَاءَ ثَالِثَةً وَقَالَ لَهُمْ: «نَامُوا الآنَ

وَاسْتَرِيحُوا! يَكْفِي! قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ! هُوَذَا ابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ. قُومُوا لِنَذْهَبَ. هُوَذَا الَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ اقْتَرَبَ»" (١٤: ٣٥– ٤٢).

في استباق لشرب كأس الغضب الذي ملأته خطايانا صلى يسوع وهو في كرب أن تجوز عنه تلك الكأس في تلك الساعة. لقد انقبضت النفس المقدسة من رهبة وخشية أنه جُعِل خطيئة على عود الصليب. لم يكن الموت، بل الغضب الإلهي ضد الخطيئة، إلصاق كل تعدياتنا به هو ما ملأ نفسه بالرعب. لم يكن هناك صراع إرادات. لقد كان في حالة خضوع تام (لله) في كل الأشياء وهو يصلي قائلاً: "يَا أَبَا الآبُ كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ فَأَجِزْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسَ. وَلَكِنْ لِيَكُنْ لاَ مَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ".

في هذا الامتحان، وهو الامتحان الأصعب والأهم لخضوعه لإرادة الآب، أثبت أنه، كما دائماً، الابن المطيع الذي يقوم بكل تلك الأشياء التي ترضي أبيه. ولكنه ما كان ليمكن أن يكون ذلك الإنسان القدوس لو كان فكر بالصليب وكأس الدينونة المر على الخطيئة برباطة جأش. فالأكثر قداسة هو من يتحمل أكثر تبعات حمله لخطيئة الآخرين.

إذ رجع إلى الثلاثة وجدهم نياماً. وفي حديثه إلى بطرس الذي كان قد أبدى كل تأكيدات الولاء تلك، وبّخه بلطف، سائلاً إياه: "أَمَا قَدَرْتَ أَنْ تَسْهَرَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟" ثم طلب منهم جميعاً أن يسهروا ويصلوا لئلا يدخلوا في تجربة، إذ بينما الرُّوحُ نَشِيطٌ، أو مستعدٌ، كان الْجَسَدُ ضَعِيفاً.

ومن جديد عاد إلى الظلمة وصلى كما في السابق، ورجع أيضاً للمرة الثانية إلى الثلاثة لوحدهم ليجدهم نياماً من جديد. وفي المرة الثالثة صلى وجاء إليهم من جديد، وكانت المحنة قد زالت عنه، وإذ نظر بحزن إلى التلاميذ قال: "نَامُوا الآنَ وَاسْتَرِيحُوا!". ثم أضاف: "يَكْفِي! قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ! هُوَذَا ابْنُ الإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي الْخُطَاةِ". ثم قال لهم أن ينهضوا لأن الَّذِي يُسَلِّمُه قَدِ اقْتَرَبَ.

وفي الحال ظهر جمعٌ غفيرٌ يشقون طريقهم بين أشجار البستان يبحثون عنه.

"وَلِلْوَقْتِ فِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ أَقْبَلَ يَهُوذَا وَاحِدٌ مِنَ الاِثْنَيْ عَشَرَ وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْكَتَبَةِ وَالشُّيُوخِ. وَكَانَ مُسَلِّمُهُ قَدْ أَعْطَاهُمْ عَلاَمَةً قَائِلاً: «اَلَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ وَامْضُوا بِهِ بِحِرْصٍ». فَجَاءَ لِلْوَقْتِ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَائِلاً: «يَا سَيِّدِي يَا سَيِّدِي!» وَقَبَّلَهُ. فَأَلْقَوْا أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ. فَاسْتَلَّ وَاحِدٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ السَّيْفَ وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ مَعَكُمْ فِي الْهَيْكَلِ أُعَلِّمُ وَلَمْ تُمْسِكُونِي! وَلَكِنْ لِكَيْ تُكْمَلَ الْكُتُبُ». فَتَرَكَهُ الْجَمِيعُ وَهَرَبُوا. وَتَبِعَهُ شَابٌّ لاَبِساً إِزَاراً عَلَى عُرْيِهِ فَأَمْسَكَهُ الشُّبَّانُ فَتَرَكَ الإِزَارَ وَهَرَبَ مِنْهُمْ عُرْيَاناً" (١٤: ٤٣– ٥٢).

إن السلوك الشائن ليهوذا في تسليمه يسوع إلى القادة في إسرائيل يملؤنا بالسخط لأن شخصاً كان يتمتع بحظوة أمكنه أن يتصرف على ذلك النحو الرديء. ولكن ذلك لم يكن سوى مثال عما هو في قلوبنا دون كبح من النعمة الإلهية. لقد احتمل يسوع ذلك السلوك بوقار هادئ وبدون أي غضب أو ضغينة نحو ذاك الذي كان يعامله بذلك الشكل السيئ للغاية.

وإذ جاء يهوذا وهو يقود الجمع إلى مكان اللقاء الذي كان يعرفه جيداً، قال لهم بأنه سيدلهم على من يسعون وراءه بأن يحييه بقبلة. وإذ اقترب من المكان الذي كان ينتظرهم فيه يسوع بهدوء، وثب يهوذا متقدماً نحو يسوع وقال: "يَا سَيِّدِي يَا سَيِّدِي"، أي "يا معلّم يا معلّم"، وقبّله تكراراً، كما يشير النص الأصلي.

وهنا وضع الجنود أيديهم على يسوع وقيدوه لكي يأخذوه بعيداً معهم. لدى رؤية معلمه يتعرض للخيانة هكذا ويُعامل بهذا الشكل السيئ، ثارت ثائرة بطرس، وراح يشرط من حوله بسيفه، ولكن لم ينجح إلا في قطع أذن مالكوس، عبد رئيس الكهنة– هذا الفعل الذي قد يكلف بطرس حياته فيما بعد. ونعلم أن يسوع، في موضع آخر من الكتاب، (لوقا ٢٢: ٥١)، قد مد يده وشفى الرجل الجريح.

والتفت يسوع نحو الحشد المسلّح وسألهم: "كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي؟" وذكّرهم أنه كان يعلّم علانيةً في الهيكل. فلماذا لم يقبضوا عليه في إحدى تلك المناسبات؟ ولكن كل شيء كان بسماح من الله لكي تتحقق النبوءات في الكتاب المقدس.

إذ استشعر التلاميذ بخطورة الموقف لاذوا بالفرار جميعاً وقد أصابهم الذعر، وتركوا يسوع وحده مع معتقليه.

وكان هناك شاب لا يُذكر اسمه تبع الجموع عن كثب، وكان مئتزرا بقطعة قماش قد لفّها على جسده. وإذ حاول البعض من الحشد أن يمسكوا به أيضاً، فرَّ هارباً، تاركاً الإزار، ومختفياً وهو عارٍ بين أشجار البستان. من كان هذا الشاب؟ أكان يوحنا مرقس نفسه، كاتب هذا الإنجيل؟ اعتقد كثيرون ذلك لأن مرقس هو الوحيد الذي يذكر هذه الحادثة ودون أن يحدد هوية هذا الشاب. سوف لن نستطيع معرفة ذلك بشكل مؤكد إلى أن نقف عند كرسي الدينونة أمام المسيح.

"فَمَضَوْا بِيَسُوعَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ فَاجْتَمَعَ مَعَهُ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْكَتَبَةُ. وَكَانَ بُطْرُسُ قَدْ تَبِعَهُ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى دَاخِلِ دَارِ رَئِيسِ الْكَهَنَةِ وَكَانَ جَالِساً بَيْنَ الْخُدَّامِ يَسْتَدْفِئُ عِنْدَ النَّارِ" (١٤: ٥٣، ٥٤).

تلاشى الذعر الأول، وتلميذان على الأقل– يوحنا وبطرس– رجعا فتبعا الحشد إلى بيت رئيس الكهنة، حيث كان أمام يسوع أول جلسة استماع، إذا صح تسميتها هكذا. مرقس الإنجيلي لا يذكر يوحنا الذي كان من أقارب عائلة قيافا، والذي تجرأ على دخول البيت. أما بطرس فقد تبع الجمع عن بُعد إلى أن صاروا داخل القصر أو في الرواق.

"مَضَوْا بِيَسُوعَ إِلَى رَئِيسِ الْكَهَنَةِ". القبض على الرب يسوع المسيح ليلاً، وجره إلى دار رئيس الكهنة قبل الفجر كان غير قانوني، ولكن هؤلاء الرجال، الذين هم في العادة دقيقون للغاية في إتباع تقاليد الشيوخ، أمكنهم أن يتناسوا هكذا تفاصيل لرغبتهم في التخلص من يسوع المسيح.

"كَانَ بُطْرُسُ قَدْ تَبِعَهُ مِنْ بَعِيدٍ .... وَكَانَ جَالِساً بَيْنَ الْخُدَّامِ يَسْتَدْفِئُ عِنْدَ النَّارِ". امتعاض بطرس المهذب كان قد بدأ قبل أشهر، عندما تجرأ على لوم الرب يسوع (متى ١٦: ٢٢). لعله بدأ يشعر بالرفعة والتعظيم بسبب إطراء يسوع الشديد لهم قبل قليل (متى ١٦: ١٧، ١٨). منذ ذلك الوقت وصاعداً نرى دليلاً تلو الآخر على خذلانه وإخفاقه. والآن، ذاك الذي تبجح بأنه لن يتخلى عن ربه تبعهم على مبعدة، وجلس مع حفنة الأشرار.

ومع ذلك، فقد كانت محبته للرب هي التي أعادته ودفعته لإتباع الحشد، ولو من بعيد، لكيما يرى نهاية المسألة التي كانت بعكس آماله وتوقعاته.

"وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةً عَلَى يَسُوعَ لِيَقْتُلُوهُ فَلَمْ يَجِدُوا لأَنَّ كَثِيرِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِ زُوراً وَلَمْ تَتَّفِقْ شَهَادَاتُهُمْ. ثُمَّ قَامَ قَوْمٌ وَشَهِدُوا عَلَيْهِ زُوراً قَائِلِينَ: «نَحْنُ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ: إِنِّي أَنْقُضُ هَذَا الْهَيْكَلَ الْمَصْنُوعَ بِالأَيَادِي وَفِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِي آخَرَ غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِأَيَادٍ». وَلاَ بِهَذَا كَانَتْ شَهَادَتُهُمْ تَتَّفِقُ. فَقَامَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ فِي الْوَسَطِ وَسَأَلَ يَسُوعَ قَائِلاً: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هَؤُلاَءِ عَلَيْكَ؟» أَمَّا هُوَ فَكَانَ سَاكِتاً وَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ. فَسَأَلَهُ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ أَيْضاً وَقَالَ لَهُ: «أَأَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ الْمُبَارَكِ؟» فَقَالَ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ. وَسَوْفَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِساً عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ وَآتِياً فِي سَحَابِ السَّمَاءِ». فَمَزَّقَ رَئِيسُ الْكَهَنَةِ ثِيَابَهُ وَقَالَ: «مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ قَدْ سَمِعْتُمُ التَّجَادِيفَ! مَا رَأْيُكُمْ؟» فَالْجَمِيعُ حَكَمُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ مُسْتَوْجِبُ الْمَوْتِ. فَابْتَدَأَ قَوْمٌ يَبْصُقُونَ عَلَيْهِ وَيُغَطُّونَ وَجْهَهُ وَيَلْكُمُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ: «تَنَبَّأْ». وَكَانَ الْخُدَّامُ يَلْطِمُونَهُ" (١٤: ٥٥– ٦٥).

عبثاً حاول الرؤساء إيجاد دليل على أية مكيدة عند يسوع. ورغم أنه كان لديهم شهود كاذبون يشهدون زوراً وبدون ضمير لاتهامه، إلا أن شهادتهم كانت متناقضة جداً لدرجة أنه ما كان يمكن استخدامها لتكذيبه وإضعاف الثقة به.

وأخيراً سأل قيافا يسوع معترضاً عن السبب في أنه لم يردّ أو يحاول أن يبرر نفسه من تلك التهم الزائفة، ولكن لم يلقَ جواباً.

وبارتباك، ولكن بتصميم على إيجاد سببٍ ما يدينون به أسيرهم، سأل رئيس الكهنة: "«أَأَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ الْمُبَارَكِ؟»" فأجاب يسوع على هذا السؤال قائلاً في منتهى الهدوء: "أَنَا هُوَ. وَسَوْفَ تُبْصِرُونَ ابْنَ الإِنْسَانِ جَالِساً عَنْ يَمِينِ الْقُوَّةِ وَآتِياً فِي سَحَابِ السَّمَاءِ". ودلّ هذا ضمناً على أنه كان ابن الإنسان الذي تحدث عنه دانيال ٧، الذي سيتلقى الملكوت من الْقَدِيمِ الأَيَّامِ.

ممتلئاً سخطاً، وقد أصابه الذعر، على ما يبدو، نسي قيافا الناموس الذي كان يحظر على رئيس الكهنة أن يشق ثوبه، ومزّق رداءه وهو يعلن أنه ما من حاجة إلى مزيد من الشهود، لأن الجميع سمعوا التجديف الذي نطقته شفتا يسوع. فما الذي يستحقه مثل هكذا شخص؟ لقد حكموا عليه بالموت بالإجماع.

تلا ذلك مشهدٌ مخزٍ كان ليلحق العار بأي محكمة يكون فيها السجين مداناً للغاية. لقد بصق البعض على سيمائه المقدسة. وآخرون عصبوا عينيه، ثم، وهم يلطمونه بإهانة براحة يدهم، راحوا يصرخون به هازئين: "«تَنَبَّأْ»"، وهم يطلبون منه أن يحدد اسم أولئك الذين كانوا يسيئون معاملته. ولكن فمه المقدس لم ينبس ببنت شفة.

في هذه الأثناء، كان بطرس يواجه اختباره العظيم وفشل فيه، كما حذّره يسوع مسبقاً قبل ساعات فقط من ذلك.

"وَبَيْنَمَا كَانَ بُطْرُسُ فِي الدَّارِ أَسْفَلَ جَاءَتْ إِحْدَى جَوَارِي رَئِيسِ الْكَهَنَةِ. فَلَمَّا رَأَتْ بُطْرُسَ يَسْتَدْفِئُ نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ: «وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ!» فَأَنْكَرَ قَائِلاً: «لَسْتُ أَدْرِي وَلاَ أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ!» وَخَرَجَ خَارِجاً إِلَى الدِّهْلِيزِ فَصَاحَ الدِّيكُ. فَرَأَتْهُ الْجَارِيَةُ أَيْضاً وَابْتَدَأَتْ تَقُولُ لِلْحَاضِرِينَ: «إِنَّ هَذَا مِنْهُمْ!»

فَأَنْكَرَ أَيْضاً. وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضاً قَالَ الْحَاضِرُونَ لِبُطْرُسَ: «حَقّاً أَنْتَ مِنْهُمْ لأَنَّكَ جَلِيلِيٌّ أَيْضاً وَلُغَتُكَ تُشْبِهُ لُغَتَهُمْ». فَابْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ!» وَصَاحَ الدِّيكُ ثَانِيَةً فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ لَهُ يَسُوعُ: «إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ الدِّيكُ مَرَّتَيْنِ تُنْكِرُنِي ثَلاَثَ مَرَّاتٍ». فَلَمَّا تَفَكَّرَ بِهِ بَكَى" (١٤: ٦٦– ٧٢).

"كَانَ بُطْرُسُ فِي الدَّارِ أَسْفَلَ". مكانه الحق كان يجب أن يكون وسط الجماعة مع الرب، ولكن الخوف أبعده عن أن يطابق نفسه بالمخلص علانيةً في ساعة الامتحان تلك.

"أَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ النَّاصِرِيِّ". كانت هذه إحدى الجواري أو الخادمات التي اتهمته على هذا النحو. من الواضح أنها رأته وسط جماعة الرب يسوع في مناسبة ما سابقة.

"فَأَنْكَرَ قَائِلاً: «لَسْتُ أَدْرِي وَلاَ أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ!»". لقد كان هذا إنكاراً كاملاً لأي معرفة له بالرب يسوع المسيح، وخرج هذا النكران من شفاه ذاك الذي أبدى إعلانات تأكيدية عظيمة بالإخلاص والولاء.

"فَرَأَتْهُ الْجَارِيَةُ أَيْضاً وَابْتَدَأَتْ تَقُولُ لِلْحَاضِرِينَ: «إِنَّ هَذَا مِنْهُمْ!»". إذ عرفته جارية أخرى، دلت الآخرين عليه في الحال على أنه أحد أتباع يسوع.

"فَأَنْكَرَ أَيْضاً". وها هي المرة الثانية التي ينكر فيها التلميذ الخائف كل معرفة له بالمسيح. ثم اتهمه الآخرون، وقد قادهم أحد أقارب مالكوس، الذي قطع بطرس أذنه وهو يشرط بالسيف (يوحنا ١٨: ٢٦)، بأنه واحدٌ من الجماعة التي كانت تُعرف بأنها جماعة تلاميذ المسيح.

"فَابْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: «إِنِّي لاَ أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ الَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ!»". بدافع الخوف والذعر، ارتد بطرس إلى لغة أيامه قبل اهتدائه وحلف بأغلظ الأيمان بأنه لم يعرف الرب يسوع المسيح على الإطلاق. يا للدركات التي يمكن للمؤمن أن يسقط إليها إذا ما قطع الشركة مع الرب.

"فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ الْقَوْلَ الَّذِي قَالَهُ لَهُ يَسُوعُ". صياح الديك (للمرة الثانية في ذلك الصباح الباكر) قد أعاد بطرس إلى رشده، وتذكر بحزنٍ كلمات الرب يسوع، الذي كان قد نبهه مسبقاً إلى هذا الإخفاق.

الفرق بين الارتداد وفتور الإيمان:

لاحظ أن الفرق قد أُظهر بشكل واضح في الروايات المتعلقة بيهوذا وسمعان بطرس. الارتداد هو رفض كامل للحق، وبالتالي لذاك الذي جاء ليعلنه والذي هو نفسه الطريق والحق والحياة. قد يقر المرء بالإيمان بالمسيح ويبدي التزاماً خارجياً ظاهرياً لتعليمه دون أن يولد من جديد. وفي ساعة التجربة المريرة، إذ قد يرتد المرء، فإنه يتبرأ كلياً من كل ما كان قد أقر بأنه يؤمن به سابقاً. هذا معنى أن يصبح المرء مرتداً، ولأجل هكذا شخص ليس من وعد بالتجديد أو الاستعادة. فتور الإيمان، من جهة أخرى، هو ضعف في خبرة المرء الروحية يودي به في ساعة التجربة والامتحان إلى أن يفقد القدرة على الصمود والثبات، وهكذا يأتي الإخفاق فيشوه شهادة المرء. إلا أن الرب يقول أنه مقترن بالعاصي، وسوف يسترجعه في نهاية الأمر (إرميا ٣: ١٤). كان بطرس فاتر الإيمان. ورغم أنه وقع في خطيئة فاحشة ثقيلة الوطأة، إلا أنه أدرك سريعاً حالته المأساوية البائسة وعاد إلى الرب الذي كان قد أنكره في توبة عميقة.

نأتي الآن إلى المحنة الكبيرة التي لم يتعرض فكر ربنا لمثلها منذ بداية إقامته المؤقتة هنا على الأرض، والتي نقلته في الواقع من المجد الذي كان له مع الآب قبل إنشاء العالم إلى هذه الدنيا حيث كانت الخطيئة قد شوهت الخليقة الجميلة قبل زمن طويل.

هناك تفاصيل واردة في الأناجيل الأخرى غفل عنها هذا الإنجيل. ونجد المشهد يتحرك سريعاً من مجلس رؤساء اليهود إلى قاعة محكمة بيلاطس ثم إلى الصليب. ليس من ذكر لبلاط هيرودس، ولا للأمور الأخرى التي قاد روح الله بقية الكُتَّاب إلى أن يتوسعوا فيها.

الأصحاح ١٥

"وَلِلْوَقْتِ فِي الصَّبَاحِ تَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالشُّيُوخُ وَالْكَتَبَةُ وَالْمَجْمَعُ كُلُّهُ فَأَوْثَقُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ وَأَسْلَمُوهُ إِلَى بِيلاَطُسَ. فَسَأَلَهُ بِيلاَطُسُ: «أَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟» فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ تَقُولُ». وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ كَثِيراً. فَسَأَلَهُ بِيلاَطُسُ أَيْضاً قَائِلاً: «أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ انْظُرْ كَمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ!» فَلَمْ يُجِبْ يَسُوعُ أَيْضاً بِشَيْءٍ حَتَّى تَعَجَّبَ بِيلاَطُسُ. وَكَانَ يُطْلِقُ لَهُمْ فِي كُلِّ عِيدٍ أَسِيراً وَاحِداً مَنْ طَلَبُوهُ" (١٥: ١ – ٦).

في وقت باكر من الصباح دعا رئيسُ الكهنة السنهدريمَ إلى الاجتماع، وبموافقتهم أُوثِقَ يسوع واقتيد كمجرم خطير، وحالما صار بيلاطس مستعداً لعقد محكمة أسلموه له لكي يُحاكَم بحسب القانون الروماني ويُعدَم كزعيم عصيان مسلح، لأنهم عرفوا أن تهمة التجديف الملفقة لن يكون لها معنى أو أهمية بالنسبة للوالي الحاكم الذي يتصرف بالنيابة عن الحكومة الإمبراطورية.

ماكراً، أنانياً، قاسياً بوحشية عادمة الشفقة، كان بيلاطس سياسياً محنكاً لم يكن ليأخذ بالاعتبار حقوق أي إنسان إن كان ذلك سيشكل إحراجاً له. إذ كان مقتنعاً كلياً براءة يسوع والكراهية وراء الاتهام الذي وجهه له رؤساء إسرائيل، جبن بيلاطس أمام التهديد المتمثل في قولهم له: "إِنْ أَطْلَقْتَ هَذَا فَلَسْتَ مُحِبّاً لِقَيْصَرَ" (يوحنا ١٩: ١٢). وإذ خشي أن يقدّم أعداؤه السياسيون صورةً سيئة عنه أمام الإمبراطور، اختار أن يضحّي بالرب يسوع، الذي كان في نظره مجرد حِرَفِيّ جليلي بسيط، قد صار معلّماً، وذلك لكي يُبقي على الحظوة التي له في روما. وبنتيجة ذلك، غرق اسمُه في وحل العار عبر القرون والأجيال، كما تمثل في كلمات دستور الإيمان: "تألم على عهد بيلاطس البنطي".

إذ أعلن الرؤساء أن يسوع قد قال أنه الملك الشرعي لليهود وأنه جمع حوله زمرة من الساخطين بهدفٍ معلنٍ صراحةً هو تحرير بني إسرائيل من نير الرومان، طرح بيلاطس السؤال مباشرة على السجين: "«أَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟»" فأجاب يسوع: "«أَنْتَ تَقُولُ»"، أي كأنه يقول: "أنت قلت ما هو عين الصواب". فمن ناحية القول أنه ملك اليهود، فقد كان حقاً كذلك، رغم أن الوقت لم يكن قد أتى بعد ليعتلي عرش داود.

باتقاد وحماس أطلق رؤساء الكهنة الاتهام تلو الآخر ضد يسوع، وهو لم يَرُدّ على أي منها.

متعجباً من هدوء وسكون هذا الإنسان المتواضع الذي وقف بخنوع وصبر أمامه، سأله بيلاطس: "أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟" ثم أضاف قائلاً: "انْظُرْ كَمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ!". ولكن يسوع، وكما سبق أشعياء وتنبّأ، "لم يفتح فاه".

احتار بيلاطس في أمره. لقد أدرك القلق أو الاهتمام المزعوم المرائي عند الكهنة والكتبة على كرامة وشرف الإمبراطورية، وأدرك أنهم إنما كانت تحركهم روح الحسد من هذا الإنسان الذي أسر مخيلة كثيرين من عامة الشعب. في الواقع، ما من شك في أن بيلاطس كان قد سمع من الأقاويل والأخبار عن معجزات يسوع. فعملاؤه كانوا في كل مكان في كل أرجاء الأرض. وكان يعرف جيداً سبب كراهية رؤساء إسرائيل للناصري.

إذ بحث عن طريقة ليحرر يسوع دون إغضاب هؤلاء الكهنة المتعجرفين، تذكّر بيلاطس أنه منذ بعض الوقت، أعطتْه روما صلاحية إطلاق سراح أحد السجناء السياسيين في عيد الفصح، لكي يسترضي اليهود،

تاركاً الخيار لهم. ففكر في متمرّد حقيقي كان يتبعُه البعضُ قبل فترة، ولكنه كان الآن ينتظر عقوبة الإعدام، فقرر بيلاطس أن يعرض على الشعب أن يختاروا بين هذا المجرم ويسوع.

"وَكَانَ الْمُسَمَّى بَارَابَاسَ مُوثَقاً مَعَ رُفَقَائِهِ فِي الْفِتْنَةِ الَّذِينَ فِي الْفِتْنَةِ فَعَلُوا قَتْلاً. فَصَرَخَ الْجَمْعُ وَابْتَدَأُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا كَانَ دَائِماً يَفْعَلُ لَهُمْ. فَأَجَابَهُمْ بِيلاَطُسُ قَائِلاً: «أَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟». لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوهُ حَسَداً. فَهَيَّجَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْجَمْعَ لِكَيْ يُطْلِقَ لَهُمْ بِالْحَرِيِّ بَارَابَاسَ" (١٥: ٧– ١١).

الاسم "بَارَابَاسَ" يعني "ابن الآب". وبعض المخطوطات القديمة تسمّيه يسوع بَارَابَاسَ. ولقد أصبح رمزاً لضد المسيح. لقد كان معروفاً جيداً كقائد لثورة ضد الحكم الروماني على فلسطين وكان قد شارك في عصيان مسلح وفيه أُدين بالقتل. من الواضح أنه كان بطلاً في نظر عامة الناس، لأنهم بدأوا في الحال يصرخون راجين بيلاطس أن يتبع العادة المتبعة المشار إليها قبل قليل وأن يعطيهم حرية إعتاق من يشاؤون من السجناء أو الأسرى.

ووافق بيلاطس على ذلك، ولكن على أمل أن يجنّبه هذا أي مسؤولية تجاه يسوع. ولذلك سأل: "أَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟" لقد استخدم هذا اللقب بتهكم ساخر، وكأنه يرى في يسوع متمرداً على روما، إذ كان يعرف في قلبه السبب الحقيقي وراء بغضهم ليسوع.

"فَهَيَّجَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ الْجَمْعَ" الذين كانوا سهلي الانقياد في مشهد من الاهتياج، وحرضوهم على المطالبة ببراباس، وهذا ما فعلوه.

"فَأَجَابَ بِيلاَطُسُ أَيْضاً وَقَالَ لَهُمْ: «فَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَ بِالَّذِي تَدْعُونَهُ مَلِكَ الْيَهُودِ؟» فَصَرَخُوا أَيْضاً: «اصْلِبْهُ!» فَقَالَ لَهُمْ بِيلاَطُسُ: «وَأَيَّ شَرٍّ عَمِلَ؟» فَازْدَادُوا جِدّاً صُرَاخاً: «اصْلِبْهُ!» فَبِيلاَطُسُ إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ لِلْجَمْعِ مَا يُرْضِيهِمْ أَطْلَقَ لَهُمْ بَارَابَاسَ وَأَسْلَمَ يَسُوعَ بَعْدَ مَا جَلَدَهُ لِيُصْلَبَ" (١٥: ١٢– ١٥).

"فَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَ بِالَّذِي تَدْعُونَهُ مَلِكَ الْيَهُودِ؟" كما أشرنا قبل قليل، كان بيلاطس مقتنعاً بأن الحسد وحسب عند رؤساء الكهنة هو الذي قادهم إلى اتهام الرب يسوع أمامه. وعبثاً حاول أن يتجنب أي مسؤولية في هذه المسألة، بل طرح السؤال عليهم بطريقة يجعلهم يشعرون بها أن القرار النهائي يعود إليهم.

"فَصَرَخُوا أَيْضاً: «اصْلِبْهُ!»". بسبب كشفه لنفاقهم وريائهم، طالب رؤساء الدين الخسيسين بموتٍ قاسٍ لذاك الذي طالما كان يوبّخهم.

"«وَأَيَّ شَرٍّ عَمِلَ؟»" لقد كان القاضي الروماني هذا يعرف أن يسوع لم يخالف أي قانون من قوانين الإمبراطورية ولذلك لم يكن ليستحق الموت، ولكن بيلاطس كان أيضاً خائفاً من اليهود خشية أن يأخذوا موقفاً سلبياً منه. طالب الغوغاءُ، بتحريض من الكهنة، بصلب ذاك الذي لم يستطيعوا أن يثبتوا أي شر عنده.

"أَطْلَقَ (بيلاطس) لَهُمْ بَارَابَاسَ وَأَسْلَمَ يَسُوعَ بَعْدَ مَا جَلَدَهُ لِيُصْلَبَ". ذاك الشخص الذي كان يفترض فيه حفظ حق البريء كان مهتماً أكثر باسترضاء اليهود أكثر من حماية المسيح. ولذلك، فبيلاطس الذي كان قبل هنيهة قد أعلن أن يسوع إنسان بار (متى ٢٧: ٢٤) أصدر الحكم عليه بأن يموت صلباً.

لو كان بيلاطس قاضياً ذا ضمير لكان رفض أن يقر بالتهم التي لا دليل عليها التي ادّعاها خصوم المسيح، وكان ليطلق سراحه، ولكن الله هو المتحكّم بالأمور وقد استخدمه أداة ليحقق بها كلمته بخصوص الطريقة التي سيموت بها المسيح.

"فَمَضَى بِهِ الْعَسْكَرُ إِلَى دَاخِلِ الدَّارِ الَّتِي هِيَ دَارُ الْوِلاَيَةِ وَجَمَعُوا كُلَّ الْكَتِيبَةِ. وَأَلْبَسُوهُ أُرْجُواناً وَضَفَرُوا إِكْلِيلاً مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَيْهِ وَٱبْتَدَأُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: «ٱلسَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ!» وَكَانُوا يَضْرِبُونَهُ عَلَى رَأْسِهِ بِقَصَبَةٍ وَيَبْصُقُونَ عَلَيْهِ ثُمَّ يَسْجُدُونَ لَهُ جَاثِينَ عَلَى رُكَبِهِمْ. وَبَعْدَمَا اسْتَهْزَأُوا بِهِ نَزَعُوا عَنْهُ الأُرْجُوانَ وَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ لِيَصْلِبُوهُ. فَسَخَّرُوا رَجُلاً مُجْتَازاً كَانَ آتِياً مِنَ الْحَقْلِ وَهُوَ سِمْعَانُ الْقَيْرَوَانِيُّ أَبُو أَلَكْسَنْدَرُسَ وَرُوفُسَ لِيَحْمِلَ صَلِيبَهُ" (١٥: ١٦– ٢١).

بعد سلوك بيلاطس الرعديد في إذعانه وخنوعه لرؤساء الكهنة وإدانة يسوع، اقتيد الرب من ساحة المحكمة إلى الفناء الخارجي الذي يُدعى دار الولاية، حيث أخضعوا المتألم الصابر إلى فصلٍ من السخرية الوقحة الفظة والتعذيب.

كانوا قد سمعوا التهمة الموجّهة إلى يسوع بأنه أعلن نفسه ملكاً؛ ولذلك، وبمرح رديء راحوا يتظاهرون بالاعتراف به هكذا، فألبسوه رداء أرجوانياً كعلامة على الاعتراف الظاهر به ملكاً. وجعلوا على جبينه المقدس إكليلاً صُنِع من الشوك البري الذي كان منتشراً جداً في البراري والريف. وكانوا يحيّونه، منحنين أمامه في إذلال ساخر هازئ، قائلين: "«ٱلسَّلاَمُ يَا مَلِكَ الْيَهُودِ!»". بالنسبة لهؤلاء الجنود، كان ذلك نوعاً من الدعابة أو المزاح المضحك. ورغم الأعمال الوحشية التي أغدقوها على يسوع، إلا أنهم لا يحملون ولو نصف وزر شعبه خاصته الذين طالبوا بصلبه.

إذ أرضوا رغبتهم السادية ابتغاء للمتعة في آلام الأسير (يسوع)، نزعوا عنه الرداء، ووضعوا ثوبه عليه، وراحوا يدفعونه خارجاً إلى مكان الصلب.

ووُضِعَ صليبٌ ثقيل على كتفه ليحمله إلى الجلجثة، أو الجمجمة. يقول التقليد أنه قد وقع تحت وطأة ثقل الصليب، ولكن لا يقول الكتاب المقدس شيئاً عن ذلك، نعلم فقط أن سمعان، الْقَيْرَوَانِيُّ، وهو فلاح عابر سبيل، تم التعريف به هنا على أنه أَبُو أَلَكْسَنْدَرُسَ وَرُوفُسَ، وفي موضع آخر يُدعى باسمه فقط، سمعان الْقَيْرَوَانِيُّ، قد أُجبرَ على أن يحمل الصليب ليريح المُدان المحكوم عليه. قال المسيحيون الأوائل أن هذا القيرواني وأبناءه قد صاروا من الأتباع المخلصين ليسوع فيما تلا من الأيام. والبعض يطابق بين أحد هؤلاء الأبناء مع روفس الوارد ذكره في (رومية ١٦: ١٣).

الجزء التالي من الأصحاح يأتي بنا إلى تل الجمجمة. الجمجمة، الجلجثة، أي موضع الجمجمة– يا للذكريات المقدسة التي تتحلق حول هذه الكلمات! لم تكن هذه الكلمات تعني شيئاً قبل صلب ربنا سوى إشارة إلى مكان خارج أسوار أورشليم يتم فيه إعدام المجرمين– الجناة الذين ينتهكون قوانين روما العظيمة. ولكن، ولأكثر من تسعة عشر قرناً من رفع ابن الإنسان (على الصليب)، صار الاسم "الجلجثة"، أو مترادفاته في اللغات الأخرى، يحرّك قلب الملايين لأنه رمز حب أقوى من الموت، لم تقوَ أنهار الدينونة الكثيرة أن تُطفئه.

من اللحظة التي انحدر فيها من لدن الآب إلى الزريبة في بيت لحم، كان الصليب نصب عيني ربنا المبارك. فلقد صار إنساناً لكي يغدو ذبيحة استرضائية عن خطايانا (١ يوحنا ٢: ٢). ولقد أحسن أحد كُتاب الترانيم حين قال:

"طريقُه، الذي كان خلواً من أية راحة في الدنيا،

قاده إلى الصليب وحسب".

فهناك تمت تسوية مسألة الخطيئة إلى الأبد، عندما جُعِلَ، ذاك لَمْ يَعْرِفْ خَطِيَّةً، خطيئةً (أي صار تقدمةً عن الخطيئة) وذلك "لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللهِ فِيهِ" (٢ كورنثوس ٥: ٢١).

نلاحظ برهبة ومهابة أن ابن الله بقي معلقاً على صليب العار ذاك لست ساعات مريعة. هذه الساعات الست تُقسم إلى مرحلتين. أولاً من الساعة الثالثة إلى السادسة– أي كما نقول من الساعة التاسعة صباحاً إلى منتصف النهار، حيث كانت الشمس لا تزال مشرقة، وأمكن للجميع أن يروا ما كان يجري. خلال هذه الساعات الثلاث كان يسوع المسيح يتألم على أيدي الناس. ما أزال الخطيئة ليس ما أنزله الناس به من عقاب أو عذاب (عبرانيين ٩: ٢٦). سيُدان الناس على كل الحقد والبغضاء ما لم تدفعهم التوبة إلى التحول إلى الخلاص بذاك الذي صلبوه (أعمال ٢: ٢٣؛ المزمور ٦٩: ٢٠– ٢٨).

ومن الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة انتشرت العتمة في كل أرجاء الدنيا. وما أمكن لعين بشر أن ترى وسط ذلك الظلام. عندها جُعلت روح المسيا تقدمةً كفارية عن الخطية. ما أطلقت عليه إليزابيث باريت براونينغ تسمية "صرخة عمانوئيل اليتيمة"، أي تلك الصرخة: "«إِلُوِي إِلُوِي لَمَا شَبَقْتَنِي؟» (اَلَّذِي تَفْسِيرُهُ: إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟)"، عند ربطها بالمزمور ٢٢، الذي منه استُمدت، تدل على التخلي في الروح الذي مرّ فيه الرب يسوع المسيح عندما صار حامل الخطية العظيم. فعندها تعامل معه الله، القاضي العادل البار، ككفيل يقف بديلاً عن الخاطئ. وبفضل ما احتمله هناك، جُعلت الكفارة للمعصية، والآن أمكن لله أن "يكُونَ بَارّاً وَيُبَرِّرَ مَنْ هُوَ مِنَ الإِيمَانِ بِيَسُوعَ" (رومية ٣: ٢٦). ألا فليجعل الله قلوبَنا حساسة رقيقة أبداً، وأرواحنا تتأثر بعمق ونحن نتأمل من جديد موت المخلص في الجلجثة.

"وَجَاءُوا بِهِ إِلَى مَوْضِعِ «جُلْجُثَةَ» الَّذِي تَفْسِيرُهُ مَوْضِعُ «جُمْجُمَةٍ». وَأَعْطَوْهُ خَمْراً مَمْزُوجَةً بِمُرٍّ لِيَشْرَبَ فَلَمْ يَقْبَلْ. وَلَمَّا صَلَبُوهُ اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا: مَاذَا يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ؟ وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ فَصَلَبُوهُ. وَكَانَ عُنْوَانُ عِلَّتِهِ مَكْتُوباً «مَلِكُ الْيَهُودِ». وَصَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ وَاحِداً عَنْ يَمِينِهِ وَآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ. فَتَمَّ الْكِتَابُ الْقَائِلُ: «وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ». وَكَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ قَائِلِينَ: «آهِ يَا نَاقِضَ الْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ! خَلِّصْ نَفْسَكَ وَانْزِلْ عَنِ الصَّلِيبِ!» وَكَذلِكَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَعَ الْكَتَبَةِ قَالُوا: «خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا. لِيَنْزِلِ الآنَ الْمَسِيحُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَنِ الصَّلِيبِ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ». وَاللِّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ كَانَا يُعَيِّرَانِهِ. وَلَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ. وَفِي السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلاً: «إِلُوِي إِلُوِي لَمَا شَبَقْتَنِي؟» (اَلَّذِي تَفْسِيرُهُ: إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟) فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْحَاضِرِينَ لَمَّا سَمِعُوا: «هُوَذَا يُنَادِي إِيلِيَّا». فَرَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلأَ إِسْفِنْجَةً خَلاًّ وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ قَائِلاً: «اُتْرُكُوا. لِنَرَ هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا لِيُنْزِلَهُ!». فَصَرَخَ

يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. وَٱنْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ الْمِئَةِ الْوَاقِفُ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هَكَذَا وَأَسْلَمَ الرُّوحَ قَالَ: «حَقّاً كَانَ هَذَا الإِنْسَانُ ابْنَ اللَّهِ!»" (١٥: ٢٢– ٣٩).

"مَوْضِعُ «جُمْجُمَةٍ»". يعتقد الكثيرون اليوم أن هذه تشير إلى تلة على هيئة جمجمة تقع خارج أورشليم، قرب بوابة دمشق، التي تُعرف الآن باسم "جلجلة غوردون". ويفهم آخرون من هذه الكلمات مجرد إشارة إلى مكان تنفيذ أحكام الإعدام.

"خَمْراً مَمْزُوجَةً بِمُرٍّ". كان هذا شراباً مخدِّراً، مُعَداً ليسكّن ألم أولئك الذين يموتون صلباً. لكن الرب يسوع أبى أن يشرب منها. إنه ما كان ليقبل أي شيء يمكن أن يمنع دخوله كليةً إلى كل ما كان يشتمل عليه الصليب.

"اقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا". بهذا كانوا يحققون بدون معرفة منهم نبوءة داود، التي أُطلقت قبل أكثر من ألف سنة، والتي دونها المزمور ٢٢: ١٨. كانت ثياب المجرمين تُعتبر جزءاً من علاوة أو أجر إضافي يناله الجنود الذين يؤدون وظيفتهم عند الصلب.

"وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ". هذا يُحتسب بالنسبة إلى التوقيت الروماني، من شروق الشمس، أو ما نعتبره الساعة السادسة.

"كَانَ عُنْوَانُ عِلَّتِهِ مَكْتُوباً «مَلِكُ الْيَهُودِ»". لقد كان من المعتاد أن يُثبّتَ إعلانٌ فوق رأس من سيُصلب يدل على نوع الجرم أو الذنب الذي ارتكبه. من سخرية القدر أن بيلاطس لقّب يسوع بلقب ملك اليهود، كونه إنساناً يموت تمرداً على سلطة الرومان.

"صَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ". كان هذان مدانين فعلياً بجرائم ضد شريعة الأرض. لا يخبرنا مرقس عن الحوار الذي يدور بينهما وعن ذاك الذي يعترف بإثمه ويستصرخ يسوع أن يخلصه. نجد تدويناً لهذا في (لوقا ٢٣: ٣٩– ٤٣).

"«أُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ»". كان أشعياء قد كتب هذا عن (يسوع) قبل سبعة قرون. والآن تتحقق كلماتُه حرفياً (أشعياء ٥٣: ١٢).

"كَانَ الْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ". بدون إشفاق على ألمه وحزنه وكربه، راح الغوغاء الساخرون يحرّفون كلماته ويرددونها في وجهه، موبّخين إياه ساخرين ومطالبين إياه بأن يُظهرَ قوتَه بأن ينزل من على الصليب إن كان فعلاً الممسوح من الله. لم يدركوا أن خطاياهم، وليست المسامير التي دُقّت في يديه وقدميه، هي التي علّقته على عود الصليب.

"خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا". عندما نطق رؤساء الكهنة بهذه الكلمات ساخرين كانوا يعلنون حقيقة عظيمة. إن كان سيخلّص الآخرين فلن يستطيع أن يخلّص نفسه.

"لِيَنْزِلِ الآنَ الْمَسِيحُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَنِ الصَّلِيبِ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ". في سخرية للقدر قاسية كانوا يخاطبونه بنفس الألقاب التي كانت فعلاً ألقابه الشرعية الحقة، ولكن لم يبدر منه أي تجاوب. أن ينزل عن الصليب كان يعني الهلاك الأبدي لكل جنسنا الساقط.

"لَمَّا كَانَتِ السَّاعَةُ السَّادِسَةُ كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى السَّاعَةِ التَّاسِعَةِ". مع حلول تلك الظلمة الفائقة الطبيعة على كل الأرض، لا بد أن إحساساً رهيباً بالخوف قد أصاب نفوس ذلك الجمع السفيه.

في تلك الساعات الثلاث قُرّبَ كأسُ الدينونة إلى شفتي المخلّص وأُفرغ حتى الثّفل، لكي نشرب نحن كأس الخلاص (المزمور ١١٦: ١٣).

"«إِلُوِي إِلُوِي لَمَا شَبَقْتَنِي؟»" هذه الكلمات بالآرامية، ونجدها في الآية الأولى من المزمور ٢٢. إنها تدلنا، كما لا يمكن لغيرها أن تفعل، على معنى أن يأخذ يسوع المسيح مكان الخاطئ ويحتمل في نفسه الإحساس بالتخلي الإلهي، الذي سيختبره الخطأة غير التائبين.

"«هُوَذَا يُنَادِي إِيلِيَّا»"، أي النبي إيليا. كانت هذه كلمات شخص لم يفهم اللغة الآرامية وظن أن بقوله "إِلُوِي" إنما ينادي إيليا النبي.

"فَرَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلأَ إِسْفِنْجَةً خَلاًّ". نعلم من (يوحنا ١٩: ٢٨، ٢٩)، أن ذلك كان رداً على قول يسوع "«أَنَا عَطْشَانُ»"، وذلك مع تلاشي الظلمة. لقد تداعت إلى فكره نبوءةٌ ما كانت قد تحققت بعد (مزمور ٦٩: ٢١)، وإزاء صراخه، مُلِئت إسفنجة بخلّ وقُرِّبَتْ إلى شفاهه الظمأى.

الكأسان:

لقد رفض الرب يسوع المسيح كأس الخمر الممزوج بالمرّ، ولكنه شرب من كأس الخلّ. لقد كانت الأولى بغاية إفقاده الحس. وما كان ليرضى بذلك. أما الأخرى فكانت ترمز إلى حموضة ومرارة موقف الإنسان نحوه. وهذه قبلها دون تذمر.

"صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ". لم يَمُتْ يسوع من الإنهاك. لقد فارق الروح عندما اكتمل كل شيء (متى ٢٧: ٥٠).

"ٱنْشَقَّ حِجَابُ الْهَيْكَلِ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ". يد الله هي التي شقت ذلك الحجاب إلى شطرين، رمزاً إلى أن الطريق إلى الأقداس قد صار مفتوحاً الآن (عبرانيين ١٠: ١٩، ٢٠). ما عاد الله بحاجة بعد لأن يبقى محتجباً في الظلام الدامس (٢ كورنثوس ٦: ١). لقد أمكنه أن يخرج إلى النور، وصار بمقدور الإنسان أن يدخل إليه بكل ثمن دم المسيح الذي يطهّر (١ يوحنا ١: ٧).

"«حَقّاً كَانَ هَذَا الإِنْسَانُ ابْنَ اللَّهِ!»". مقتنعاً بما رأى وسمع، أعلن قائد المئة، المسؤول عن تنفيذ الصلب، إيمانه الشخصي بفوق طبيعية حامل الآلام القدوس الذي مات لتوه على ذلك الصليب.

إن صلب ربنا يسوع كان أكثر من مجرد استشهاد في سبيل الحق، مع أنه كان كذلك أيضاً. إن الشاهد شهيد. ولكن الصليب كان بغاية إظهار بغض الله للخطيئة ومحبته غير المحدودة للجنس البشري الضال. علينا ألا نفكر بالجلجثة وكأنها مجرد موضع موت إنسان بريء عن أناس آثمين. لقد كانت تشير إلى الله وقد قدّم نفسه في شخص ابنه ليتحمل الدينونة التي كان الناموس يعتبرها شرعاً قصاصاً للخطية. فهناك "المُساءُ إليه حرّرَ المسيء أو المذنب".

"وَكَانَتْ أَيْضاً نِسَاءٌ يَنْظُرْنَ مِنْ بَعِيدٍ بَيْنَهُنَّ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ الصَّغِيرِ وَيُوسِي وَسَالُومَةُ ٱللَّوَاتِي أَيْضاً تَبِعْنَهُ وَخَدَمْنَهُ حِينَ كَانَ فِي الْجَلِيلِ. وَأُخَرُ كَثِيرَاتٌ اللَّوَاتِي صَعِدْنَ مَعَهُ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ إِذْ كَانَ الإِسْتِعْدَادُ – أَيْ مَا قَبْلَ السَّبْتِ – جَاءَ يُوسُفُ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ مُشِيرٌ شَرِيفٌ وَكَانَ هُوَ أَيْضاً مُنْتَظِراً مَلَكُوتَ اللَّهِ فَتَجَاسَرَ وَدَخَلَ إِلَى بِيلاَطُسَ وَطَلَبَ جَسَدَ يَسُوعَ. فَتَعَجَّبَ بِيلاَطُسُ أَنَّهُ مَاتَ كَذَا سَرِيعاً. فَدَعَا قَائِدَ الْمِئَةِ وَسَأَلَهُ: «هَلْ لَهُ زَمَانٌ قَدْ مَاتَ؟» وَلَمَّا عَرَفَ مِنْ قَائِدِ الْمِئَةِ وَهَبَ الْجَسَدَ لِيُوسُفَ. فَاشْتَرَى

كَتَّاناً فَأَنْزَلَهُ وَكَفَّنَهُ بِالْكَتَّانِ وَوَضَعَهُ فِي قَبْرٍ كَانَ مَنْحُوتاً فِي صَخْرَةٍ وَدَحْرَجَ حَجَراً عَلَى بَابِ الْقَبْرِ. وَكَانَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يُوسِي تَنْظُرَانِ أَيْنَ وُضِعَ" (١٥: ٤٠– ٤٧).

هناك أمرٌ يثير الشفقة على نحو محزن في هذه الجماعة الصغيرة من النسوة المؤمنات اللواتي كن يحبين الرب يسوع المسيح، واللواتي رحن ينظرن إلى ما يجري مذهولات ومتحيرات، بلا شك، ولو على مبعدة، وهم يرون ذاك الذي آمنوا أنه المسيا الذي ينتظره إسرائيل، الملك الممسوح من الله، يموت على صليب الخزي.

يذكر مرقس امرأتين تحملان الاسم مريم: مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَيُوسِي– أي يعقوب ويهوذا، وهما اثنان من الرسل. إنه لا يذكر مريم أم ربنا. ولكننا نعلم، من إنجيل يوحنا، أنها كانت واقفة عند الصليب إلى أن أوكل ابنُها المحتضر إلى الرسول يوحنا الحبيب أمرَ العناية بها.

وكانت سالومة وبقية النسوة ضمن تلك الجماعة التي كانت قد جاءت من الجليل لكي يكونوا قربه ويسمعوا العظات والرسائل الثمينة التي كان يقولها. ما الأفكار التي كانت تراود خاطرهن وهن يرونه في الظاهر عاجزاً لا حول له ولا قوة في قبضة أعدائه؟ هل تذكّرن ما كان تلاميذه قد نسوه: بأنه كان قد وعد بأنه سيقوم من الموت في اليوم الثالث؟ يبدو أنهن لم يتذكرن ذلك، إذ نجد فيما بعد أن قيامته كانت بالنسبة لهن كما بالنسبة لكل أصدقائه أمراً عجيباً مذهلاً.

لقد كتب أشعياء قبل سبعمئة سنة أنه سيُوضع مع الأغنياء عند موته. ولذلك فعندما أسلم حياته فعلياً، يُوسُفُ الَّذِي مِنَ الرَّامَةِ، وهو عضو في مجلس إسرائيل الأعلى، وأحد التلاميذ سراً، والذي كان ينتظر ملكوت الله، خرج الآن إلى العَلَن، مُبدياً انتماءه إلى المسيح المنبوذ بذهابه بجرأة إلى بيلاطس وطلبه جسد المخلّص المصلوب.

كان أولئك الذين يُحكم عليهم بالموت على ذلك النحو يبقون مطولاً معلقين على الصليب، ليس فقط لساعات بل حتى لأيام، إلى أن يريحهم الموت من آلامهم. ولذلك بالكاد أمكن لبيلاطس أن يصدّق أن يسوع كان قد مات. فاستدعى (بيلاطس) قائد المئة الذي كان مسؤولاً عن تنفيذ الإعدام وسأله إذا ما كان يسوع قد مات. عندما أكدوا له صحة ما سمعه أمر بإعطاء جسده إلى يوسف، الذي اشترى كتاناً وأنزل الجسد عن الصليب بوقار وإجلال، وبحسب عادات اليهود في الدفن، لفّه بالكتان ووضع الجسد الكريم في قبر جديد، وهو ضريح كان منحوتاً في صخرة قرب مكان الصلب. وبعد أن دحرج حجراً ضخماً على مدخل الضريح مضى في حال سبيله.

وقفت مريم المجدلية ومريم الأخرى على مبعدة ترقبان ما يجري، وتنظران أين وُضِعَ. لقد كانتا تفكران، كما نعلم، أن تعودا إلى القبر حالما ينقضي يوم السبت، وأن تضمخا، كما يليق، الجسد الذي كان قد وُضِعَ على عجل في القبر، ولكن ما كان لهذا أن يحدث؛ فالله كان على وشك أن يُظهر قوته ويعبّر عن تأييده للعمل الذي قام به ابنه الحبيب بإقامته له من القبر في انتصار.

القسم (٣)- الأصحاح ١٦
القيامة: المسيح لا يزال يخدم

لم تكن ليلة الموت المظلمة نهاية خدمة ربنا المبارك. فبالنسبة له، قاد "طريقُ الحياة" من القبر صعوداً إلى المجد، إلى يمين الآب، حيث المسرات إلى الأبد. روحه لم تبقَ في الجحيم– العالم غير المنظور، ولا رأى جسدُه الكريم فساداً في القبر (مز ١٦). كان أشعياء قد أعلن بروح النبوءة قائلاً: "إِنْ جَعَلَ نَفْسَهُ ذَبِيحَةَ إِثْمٍ يَرَى نَسْلاً تَطُولُ أَيَّامُهُ وَمَسَرَّةُ الرَّبِّ بِيَدِهِ تَنْجَحُ" (أشعياء ٥٣: ١٠). ولذلك فإن من سُلِّمَ إلى الموت باختياره لأجل آثامنا أقيمَ بفضل تبريرنا (رومية ٤: ٢٥). هذه هي الترجمة الأصح، وليس كما قيل أحياناً أنه أُقيم لأجل تبريرنا، بل بالحري لأن موته قد لبى كل استحقاقات عدالة الله ضدنا؛ ولذلك فقد كانت قيامته هي الإعلان الإلهي عن تبريرنا من كل شيء.

كما رأينا حتى الآن، كان يسوع قد أخبر مسبقاً مراراً وتكراراً عن قيامته التي كانت ستحدث بعد ثلاثة أيام؛ ولكن تلاميذه كانوا بطيئين عن السمع وأخفقوا في فهم معنى وفحوى كلماته. لذلك فقد كانت القيامة غير متوقعة، وأخذ الأمر وقتاً لتصديق هكذا حقيقة مدهشة رائعة. ظهور ذاك الذي مات حياً من جديد، بأوضح ما يكون، وحده أقنعهم بالحقيقة. وظل البعض يشك في المسألة حتى النهاية، كما سيُظهر هذا الأصحاح.

عدة نساء أتقياء كن آخراً عند الصليب وأولاً عند القبر في صباح الفصح العجيب ذاك.

"وَبَعْدَمَا مَضَى السَّبْتُ اشْتَرَتْ مَرْيَمُ الْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ حَنُوطاً لِيَأْتِينَ وَيَدْهَنَّهُ. وَبَاكِراً جِدّاً فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَى الْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ. وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: «مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟» فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ الْحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ! لأَنَّهُ كَانَ عَظِيماً جِدّاً. وَلَمَّا دَخَلْنَ الْقَبْرَ رَأَيْنَ شَابّاً جَالِساً عَنِ الْيَمِينِ لاَبِساً حُلَّةً بَيْضَاءَ فَانْدَهَشْنَ. فَقَالَ لَهُنَّ: «لاَ تَنْدَهِشْنَ! أَنْتُنَّ تَطْلُبْنَ يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ الْمَصْلُوبَ. قَدْ قَامَ! لَيْسَ هُوَ هَهُنَا. هُوَذَا الْمَوْضِعُ الَّذِي وَضَعُوهُ فِيهِ. لَكِنِ اذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلاَمِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى الْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ». فَخَرَجْنَ سَرِيعاً وَهَرَبْنَ مِنَ الْقَبْرِ لأَنَّ الرِّعْدَةَ وَالْحَيْرَةَ أَخَذَتَاهُنَّ. وَلَمْ يَقُلْنَ لأَحَدٍ شَيْئاً لأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ" (١٦: ١– ٨).

السبت الأخير للناموس الذي ما عاد الله يعرفه أبداً قد شارف على الانقضاء. خلال يوم الراحة ذاك من العهد القديم، لم يعرف أحد على وجه الأرض إن كان الفداء قد أُنجز أم لا. لقد لاحظه اليهود، رغم أن أيديهم كانت ملطخة بدم عبد يهوه، الذي أصروا على موته، وبذلك حققوا، بدون معرفة منهم، ما ورد في نصوصهم الكتابية أنفسهم. والآن طلع فجر اليوم الأول من أسبوع جديد في زمن جديد. ومع شروق أول أشعة النور عبر السماء، تركت ثلاث نساء بقلوب محطمة منكسرة– مريم المجدلية، ومريم أم يعقوب الصَّغِير، وَسَالُومَةُ– منازلهن واتخذن سبيلهن نحو البستان حيث كان القبر الجديد الذي أعدّه يوسف والذي وُضِع فيه جسد يسوع، ولُفَّ بكتان، والذي كُنَّ قد اعتزمْنَ أن يضمّخْنه ويدْهنّه بالحنوط على عادة اليهود.

إذ ارتفعت الشمس في صفحة السماء أكثر، أمكنهن رؤية القبر، وهنا فكرن في الحجر الضخم الذي كان قد دُحرج لإغلاق مدخل القبر. لقد كان هذه الحجر يشبه إلى حد بعيد حجر رحى نُحت من شق صغير

في حجر الجير على منحدر بحيث يمكن أن يُدحرج إلى الثلم ليسد مكان الباب في الضريح، ولكن إبعاده أو دحرجته ارتجاعياً وإلى الأعلى من جديد كان سيأخذ جهداً ويتطلب قوة كبيرة جداً.

وبينما كانت النسوة تسرن في الطريق رحن يتساءلن فيما بينهن كيف سيستطعن الدخول إلى التجويف الصخري للقبر حيث كان الجسد موضوعاً. فسألن: "«مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا الْحَجَرَ عَنْ بَابِ الْقَبْرِ؟»". لم يكن هناك أحد من التلاميذ ليقوم بهذه الخدمة لهن. لقد كانوا (التلاميذ) ينوحون على موت يسوع ومن الواضح أنهم كانوا يفكّرون أنه ما من شيء الآن ليغير مجرى الأحداث نحو الأفضل.

ولكن مع اقتراب النسوة أكثر اندهشن لرؤية الحجر وقد دُحرج وأن المدخل مكشوف تماماً. ونعلم من أناجيل أخرى أن أول ما خطر في ذهنهن هو أن القبر قد نهبه أعداء يسوع وأنهم سرقوا جسده وحملوه بعيداً.

ولكن ما إن دخلن القبر حتى رَأَيْنَ "شَابّاً جَالِساً عَنِ الْيَمِينِ لاَبِساً حُلَّةً بَيْضَاءَ". لقد ملأ حضورُه النساءَ بخوف غريب. ولم يفهمن لأول وهلة أن هذه الشاب كان حاضراً عند خلق الكون، "عِنْدَمَا تَرَنَّمَتْ كَوَاكِبُ الصُّبْحِ مَعاً وَهَتَفَ جَمِيعُ بَنِي اللهِ" (أيوب ٣٨: ٧). لقد كان شاباً سرمدياً لأنه لم يكن ينتمي إلى الأرض بل من الخلائق السماوية.

وطمأنهن في الحال، طالباً منهن ألا يخفن. وأضاف قائلاً: "أَنْتُنَّ تَطْلُبْنَ يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ الْمَصْلُوبَ. قَدْ قَامَ! لَيْسَ هُوَ هَهُنَا. هُوَذَا الْمَوْضِعُ الَّذِي وَضَعُوهُ فِيهِ".

بعيون منذهلة مندهشة نظرت النسوة إلى القبر الفارغ حيث لم يبقى سوى الكفن. وأوصاهن الملاك أن يمضين في طريقهن وأن يخبرن تلاميذه، وبطرس، أن يسوع كان يسبقهم إلى الجليل إلى مكان اللقاء ذاك الذي كان قد أخبرهم عنه قبل صلبه. وهناك سيُظهر ذاته لهم.

هناك شيء مؤثر على نحو غريب مميز في هاتين الكلمتين "وبطرس". لا بد أن (بطرس) كان قد قضى فترة دفن الرب في حزن وكرب في الروح إذ كان يفكر ملياً في نكرانه له. ما كان ليشعر أنه يستحق بعد أن يُدعى تلميذاً له. ولكن الرسالة الخاصة أن "وبطرس"، كانت التوكيد من يسوع على أنه كان يحبه وأنه كان لا يزال يعتبره واحداً من خاصته.

سرعان ما غادرت النسوة المكان وهرعن إلى المدينة، وهن خائفات أن يخبرن أحداً عما رأينه أو سمعنه. من الواضح أن إحداهن قد التفتت إلى الوراء، وإذ تخلّفت عنهن في البستان، فإن يسوع نفسه ظهر لها. كانت هذه إحدى النساء الثلاث اللواتي أحبين أكثر لأن خلاصها كان عظيماً.

"وَبَعْدَمَا قَامَ بَاكِراً فِي أَوَّلِ الأُسْبُوعِ ظَهَرَ أَوَّلاً لِمَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةِ الَّتِي كَانَ قَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ. فَذَهَبَتْ هَذِهِ وَأَخْبَرَتِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَهُمْ يَنُوحُونَ وَيَبْكُونَ. فَلَمَّا سَمِعَ أُولَئِكَ أَنَّهُ حَيٌّ وَقَدْ نَظَرَتْهُ لَمْ يُصَدِّقُوا" (١٦: ٩– ١١).

"ظَهَرَ أَوَّلاً لِمَرْيَمَ الْمَجْدَلِيَّةِ". يبدو أنه ما من دليل كتابي على أن مريم هذه كانت امرأة خليعة أو غير أخلاقية، كما افترض كثيرون. لقد كان يُنظر إلى اسم مريم المجدلية عبر العصور وكأنه مرادف للمومس. ذلك أن كثيرين حاولوا أن يطابقوا بين مريم المجدلية وتلك المرأة في المدينة، التي جاءت إلى بيت الفريسي، كما ورد في رواية لوقا ٧، وغسلت قدمي يسوع بدموع توبتها. ولكن لا يبدو هناك أي إثبات على أن المرأتين هما نفس

الشخص. ما يخبرنا النص هنا (في إنجيل مرقس) هو أن يسوع كان قد أَخْرَجَ مِنْ مريم سَبْعَةَ شَيَاطِينَ. ولكن ليس من الضرورة أن تكون المرأة التي فيها شياطين امرأة غير محترمة. وليس من الضروري أن نفترض أن تملك الشيطان لنفسٍ يعني عدم العفة.

لقد أظهر يسوع ذاته لمريم بطريقة أزالت كل شكوكها؛ وهرعت لتخبر تلاميذه، الذين كانوا ينوحون ويبكون على موت ربهم، فقالت لهم أنه قام حقاً من بين الأموات.

ولكن بما أنهم ما كانوا بعد قادرين على تصديق القصة، ورغم أنها أكدت لهم بثقة أنها رأته وتحدثت إليه، فإنهم لم يصدقوا أن ذاك الذي مات هو حي من جديد. لا يذكر مرقس زيارة يوحنا وبطرس إلى القبر، وتأييدهم وتعزيزهم لصدق رواية مريم. إلا أنه يخبرنا بكلمات قليلة عن الحادثة التي يسهب لوقا في وصفها– ألا وهي لقاء يسوع مع تلميذي عمواس.

"وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ بِهَيْئَةٍ أُخْرَى لاِثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَهُمَا يَمْشِيَانِ مُنْطَلِقَيْنِ إِلَى الْبَرِّيَّةِ. ذَهَبَ هَذَانِ وَأَخْبَرَا الْبَاقِينَ فَلَمْ يُصَدِّقُوا وَلاَ هَذَيْنِ" (١٦: ١٢– ١٣).

استناداً إلى الكلمات "ظَهَرَ بِهَيْئَةٍ أُخْرَى"، توصّل البعض إلى استنتاج خاطئ بأن يسوع، بعد القيامة، ما عاد يمتلك الجسد ذاته الذي صُلبَ فيه. إلا أن نصوصاً كتابية أخرى تخالف هذه الفكرة تماماً. فأعينهما هي التي كانت متعبة، كما يقول لوقا، وليس الأمر أنه اتخذ جسداً مختلفاً آخر.

بعد ظهوره لهما وهما جالسين معه إلى وليمة الطعام، عادا إلى أورشليم وأخبرا الأحد عشر أنهما رأياه. ومن جديد نعلم أن الآخرين "لَمْ يُصَدِّقُوا وَلاَ هَذَيْنِ". لقد كان يصعب إقناعهم بأن يسوع قد غلب الموت.

آخر ظهور يذكره مرقس جرى في تلك الغرفة نفسها التي كانوا يتناولون فيها طعام العشاء.

"أَخِيراً ظَهَرَ لِلأَحَدَ عَشَرَ وَهُمْ مُتَّكِئُونَ وَوَبَّخَ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ وَقَسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ لأَنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقُوا الَّذِينَ نَظَرُوهُ قَدْ قَامَ. وَقَالَ لَهُمُ: «اذْهَبُوا إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ وَاكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ. وَهَذِهِ الآيَاتُ تَتْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ: يُخْرِجُونَ الشَّيَاطِينَ بِاسْمِي وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئاً مُمِيتاً لاَ يَضُرُّهُمْ وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ». ثُمَّ إِنَّ الرَّبَّ بَعْدَ مَا كَلَّمَهُمُ ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ اللَّهِ. وَأَمَّا هُمْ فَخَرَجُوا وَكَرَزُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَالرَّبُّ يَعْمَلُ مَعَهُمْ وَيُثَبِّتُ الْكَلاَمَ بِالآيَاتِ التَّابِعَةِ. آمِينَ" (١٦: ١٤– ٢٠).

"ظَهَرَ لِلأَحَدَ عَشَرَ وَهُمْ مُتَّكِئُونَ"[٦]. لا نستطيع أن نجزم فيما إذا كانت هذه نفس المناسبة التي ذكرها لوقا (٢٤: ٣٦– ٤٣) ويوحنا (٢٠: ١٩). وعلى الأرجح جداً أن الحادثة كانت إما في أول مساء، عندما كان توما غائباً، أو في المساء الثاني، عندما كان (توما) هناك. وبما أن البعض كان لا يزال غير مؤمن، فإن الرب "وَبَّخَ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ وَقَسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ" في أنهم لم يقبلوا شهادة النساء، وكلوبا ورفيقه، الذين أكدوا ما كان يسوع نفسه قد قال لهم بأنه سيحدث. من المهم أن نضع عدم إيمانهم نصب أعيننا عندما نأتي إلى التمعن فيما قاله لهم فيما بعد. من الملائم أكثر أن تكون هذه الواقعة قد حدثت في المناسبة الأبكر أكثر من التالية، إذ في الوقت الذي اقتنع فيه توما كان لا بد أن تكون جميع الشكوك قد ذهبت من الجميع.

[٦]- في ترجمة أدق، نقلاً عن اليونانية: "وهم متكئون إلى المائدة": (ἀνακεῖμαι). [فريق الترجمة].

إن التفويض العظيم لم يُعْطَ مرةً واحدة، بل في عدة مناسبات، وفي كل مرة كانت هناك فروقات ذات أهمية بالغة. هنا يحدد برنامجه للكرازة بالإنجيل للعالم بأسره بتعابير واضحة لا لبس فيها. "اكْرِزُوا بِالإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا". توجب عليهم أن ينقلوا البشرى السارة عن الفداء الذي أُكمل، ليس فقط إلى إسرائيل الذين كانت رسالة الملكوت مقتصرة عليهم بشكل كبير خلال خدمة الرب على الأرض (متى ١٠: ٦)، بل "إِلَى الْعَالَمِ أَجْمَعَ". وكان يجب إزالة كل عائق لكي يتدفق نهر النعمة إلى الجميع.

"مَنْ آمَنَ وَاعْتَمَدَ خَلَصَ". إن من استقبل الرسالة بإيمان كان عليه أن يشهد على ذلك بأن يعتمد، وبذا يعلن نفسه تلميذاً له علانية. لم يكن هناك ثمة قيمة خلاصية في الطقس بحد ذاته، بل كان مجرد تعبير عن الخضوع للمسيح. وأولئك الذين رفضوا الإيمان سوف يُدانون. لاحظوا أنه لم يقل أن من لا يعتمد سوف يُدان.

"هَذِهِ الآيَاتُ تَتْبَعُ الْمُؤْمِنِينَ". هذه الآيات هي ما يسميه بولس "عَلاَمَاتِ الرَّسُولِ" (٢ كورنثوس ١٢: ١٢). هذه القدرات على اجتراح المعجزات أُعطِيَتْ للرسل المعتمَدين للتصديق على أنهم ممثلون عن المسيح (أعمال ٤: ٣٠– ٣٣؛ ٥: ١٢). ولكن لم يُظهرها أحدٌ ممن لم يؤمنوا، وقد رأينا أن "البعض قد شكّوا" حتى بين الاثني عشر. من الخطأ أن نعتقد أن العلامات تتبع أولئك الذين آمنوا بالرسل أو المرسلين. ليس الحال هكذا. بالنسبة للبعض، أولئك الذين أصبحوا بأنفسهم شهوداً علانية، كانت هكذا علامات تُمنح لهم فعلاً (١ كور ١٢: ٧– ١١)، ولكن كان هذا بحسب مشيئة الله المطلقة.

"ارْتَفَعَ إِلَى السَّمَاءِ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ اللَّهِ". لا يخبرنا مرقس كم من الوقت قد انقضى بين إعطاء هذا التفويض والصعود، ولكن الروايات الأخرى (في الأناجيل) تشير إلى أن هذه الفترة كانت حوالي أربعين يوماً. وفي الوقت المحدد استُقبلَ الإنسانُ المسيح يسوع فوق في السماء بمجد (١ تيموثاوس ٣: ١٦)، حيث يشارك عرش الآب الآن (عبرانيين ١: ٣).

"فَخَرَجُوا .... وَالرَّبُّ يَعْمَلُ مَعَهُمْ". في الواقع إن كل ما عمله خدامه لأجله كان قد تم بواسطته لأنه يعمل فيهم ومن خلالهم بقوة روح قدسه. ونعلم من الإنجيل أنهم "خَرَجُوا وَكَرَزُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ". نعرف من سفر أعمال الرسل أنهم كانوا بطيئين في القيام بذلك. لقد مضى بعض الوقت إلى أن استطاعوا أن يحرروا أنفسهم من الميول اليهودية والتحيّز لليهود لكي يتجهوا إلى كل العالم ويعرّفوا الأمميين ببشرى الإنجيل السارة. ولكن مع مرور الوقت دخلوا أكثر وبشكل أكمل إلى فكر الرب وهكذا حملوا البشارة إلى كل مكان كما أمرهم.

هذا العمل في تبشير العالم لا يزال مستمراً، ولن يكتمل إلى يسمع كل الناس في كل مكان رسالة نعمة الله وقد خرجت إلى العالم الضال. إن الاهتمام بالإرساليات التبشيرية ليس مادة اختيارية في جامعة كلية الله للنعمة. إنها مادة يجب على كل تلميذ فيها أن يدرسها كمادة أساسية اختصاصية. نحن الذين خلصنا مؤتمنون من قِبَلِ ربنا القائم على الامتياز المجيد بأن ننقل الإنجيل إلى العالم بأسره. ولهذا السبب بالذات قد أُبقينا في هذا العالم. وبالنسبة لخلاصنا، فإنه أكيد ومضمون لنا من الله كما في اللحظة الأولى التي آمنا فيها بالمسيح. لعله كان يمكن أن نؤخذ إلى موطننا السماوي فوراً. ولكن الله بحكمته اللا متناهية أبقانا هنا على الأرض لكي نكون شهوداً على نعمته المخلّصة ولكي يأتي آخرون كثيرون بواسطتنا إلى مشاركتنا النعمة التي لنا في المسيح. لو كانت

الكنيسة مخلصة للتفويض الموكل إليها، لكان جسد المسيح قد أُكمل منذ زمن بعيد ولكانت عودة الرب قد تحققت، إلا أنه كان يؤجل، على ما يبدو، وذلك لاهتمامه بخلاص الناس (٢ بطرس ٣: ٩).

لم أسهب في المسألة الحاسمة المتعلقة بموثوقية وصحة نسبة الجزء الأخير من هذا الأصحاح، الآيات ٩ إلى ٢٠. فهذه لا ترد في مخطوطتين أقدم ما تكونان، ولكنها تحمل توقيع الوحي، ويشهد سفر أعمال الرسل وتاريخ الإرساليات على موثوقيتها، ولذلك لا أرى سبباً للافتراض أنها ليست جزءاً من الكتاب المقدس الموحى به من الله الذي لتعليمنا وبركتنا.

لا يتابع مرقس الحديث ليصف الصعود، بل ينهي إنجيله بالرب القائم كخادم لا يزال يعمل مع أتباعه وهم يسيرون في إطاعة كلمته.